السنة الثانية (شعبان سنة ١٣٥٤ — نوفمبر سنة ١٩٣٥) الجزء الثانى

صحيفة دار العلوم

١٩٣٤

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» فى جميع مدارسها

المدير
ابو الفتح الفقى

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات تكون باسم مساعد التحرير
محمد مهدى علام
عضو المكتب الفنى بوزارة المعارف
١١٤ شارع عماد الدين . القاهرة

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	لغير الطلبة	٢٠ قرشا
	للطلبة	١٢ «
	لمدرسى المدارس الأولية	١٢ «
خارج القطر		٥ شلنات انجليزية
ثمن العدد		٥ قروش

المطبعة الرحمانية بمصر
بالخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

وصف حفلة التكريم

التى أقامت فى نادى دار العلوم فى مساء الجمعة ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٥ للأستاذ صالح هاشم عطية «بمناسبة اختياره» مربياً لحضرة صاحب السمو الملكى أمير الصعيد وقرب سفره فى حاشية سموه .

فى نادى دار العلوم الفخم الأنيق ، وفى حجراته الفسيحة الحالية بنفيس الأثاث ، المعطرة بأدب العروبة وثقافة الاسلام ومعارف الغرب ، أقام أعضاء الجماعة حفلا شائقاً لتكريم ابن دار العلوم البار الأستاذ صالح هاشم عطية وكيل كلية اللغة العربية السابق والمربى المختار لأمير الصعيد فى سفره الميمون .

هناك انتظم الحفل مقصوراً على أصدقاء الأستاذ المكرم ، وبعض المدعوين من زملائه ومن رجال الصحافة ، وتحلقوا حول موائد منسقة زاهية حالية بشهى الطعام ولذيذ الفاكهة والحلوى ، تعبق بأرج الورد ، وعطر الحديث ، وشذى المودة وريا الوفاء ، وكانت الحجرات والردهة حوافل بالمكرمين والمدعوين . وكلهم معجب بصالح وعلمه ونبله ، فخور باختياره فى منصب جليل ، فرح بصلة الود ووثاقة الرباط بين أبناء دار العلوم ، جذل بوفائهم لأخ عزيز عليهم حبيب إليهم

وكان ممن شرفوا الحفل حضرات أصحاب العزة الأساتذة أحمد عاصم بك ناظر دار العلوم ، وأحمد أبو الفتح بك الأستاذ بالحقوق سابقاً ، ومحمد حسنين الغمراوى بك مفتش اللغة العربية سابقاً والأستاذ على الجارم المفتش بوزارة المعارف والأستاذ الجليل الشيخ احمد الاسكندرى أستاذ الأدب بدار العلوم والجامعة المصرية سابقا وعضو المجمع اللغوى الملكى ، وعديد من أعضاء نادى دار العلوم .

وقد افتتح الحفل بآى الذكر الحكيم ، ثم ألقى الأستاذ عبد الحميد حسن المفتش بوزارة المعارف ووكيل النادى كلمة رحب فيها بالحاضرين ونوه فيها بمآثر المحتفل به بعبارة لبقة أخاذة ، وتلا برقية رقيقة من الأستاذ نجيب حتاته رئيس النادى يعتذر فيها لغيابه عن القاهرة ، ويرسل بأخلص تحياته للمحتفل به ويشارك جميع الأعضاء فى شعورهم نحوه ، ثم قال الأستاذ عبدالحميد حسن أن اللجنة كانت تنوى تقديم هدية

ثمينة للأستاذ صالح هاشم عطية ، تذكاراً للمودة والاخاء ، ولكن الأستاذ صالحا رأى أن يخصص ثمن الهدية ببعض أعمال الخير التى تقوم بها جماعة دار العلوم ؛ ولم يسع اللجنة إلا أن تقره على رأيه ، شاكرة له فضله الجديد وأريحيته السمحة .

ثم ألقى الأستاذ أبو الفتح الفقى كلمة الجماعة فى تكريم صالح — وهى منشورة بعد — ثم تلاه الأستاذ مهدى علام المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفنى بها بكلمة نشرنا ملخصها فى مكان آخر من هذا العدد ، ووقف بعد ذلك الأستاذ جاد لاشين المدرس بمدرسة بنبا قادن الثانوية فألقى كلمة مستفيضة فيما امتاز به الأستاذ هاشم فى النواحى الخلقية والعلمية ، وألقى بعده الأستاذ عبد الفتاح عبد الله مفتش المعارف بالجيزة كلمة فاضت عباراتها بالإخلاص والود ، ولا عجب فالخطيب صديق حميم للمحتفل به ، وزميل قديم له فى طلب العلم ، وجار قريب له فى سكنه ، ثم تلاه حضرة الأديب الفاضل محمد عبد الرازق افندى سكرتير كلية اللغة العربية ، فألقى كلمة فياضة بالمعانى الطيبة التى انطوت عليها نفسه نحو الأستاذ صالح هاشم ، فنالت استحسان السامعين . ثم ألقى الأستاذ عبد المغنى المنشاوى المدرس بدار العلوم قصيدة عامرة الأبيات . استعيد معظم أبياتها ، وعجب بها الحاضرون ، وقد نشرناها فى مكان آخر من هذا العدد .

وعند ذلك أعلن الأستاذ أبو الفتح الفقى اختتام الحفل ، وهتف ثلاثا لجلالة الملك وسمو ولى عهده ، فدوى المكان بالهتاف والتصفيق ، وأرسل المجتمعون برقية إلى معالى كبير الأمناء تعلن فيها جماعة دار العلوم ولاءها للسدة الملكية ، وترفع آيات الشكر للمقام الكريم ، بمناسبة اختيار أحد أعضائها مربيا لسمو الأمير فاروق .

كلمة الأستاذ أبى الفتح الفقى

رئيس جماعة دار العلوم

فى حفلة تكريم الأستاذ صالح هاشم عطية بمناسبة اختياره مدرساً لحضرة صاحب السمو الملكى الأمير فاروق وسفره فى حاشيته إلى انجلترة .

سادتى ، أساتذتى ، إخوانى .

نعمة كبرى من نعم الله علينا ، وفضل عظيم من فيض جلالة مولانا المليك المفدى . تلك النعمة ، وهذا الفضل يتمثلان فى تشريف « صالح » باختياره مربياً لزين الشباب ، وزهرة الأسرة الملكية الناضرة وقرة عين مصر والمصريين ، صاحب السمو الملكى « أمير الصعيد ـ فاروق » . مفخرة لدار العلوم وأبنائها توجتنا بها الأسرة العلوية منذ إنشاء دارنا ؛ غير أن تشريف « صالح » بتربية زين الشباب دعامة مجد جديدة تزيد ترسيخ بنيانها ؛ لأن « صالحاً » ابن من أنجب من أنجبت ، وأبر من أنتجت ، وأنبه من أبرزت ، وشرف عظيم لجماعة دار العلوم أن يخص « صالح » من بين مؤسسيها بهذا الشرف العظيم . صالح الذى يمثلها فى جميع نواحيها ؛ فهو عضو فى جميع لجانها ، وحافظ خزانة ناديها ، وما رأيت عضواً يشرف علينا من جميع هذه النواحى غير صالح ومن غير صالح تتمثل فيه طهارة النفس ، ونقاء السريرة ، وصفاء القلب ، وعفة اللسان ، إلى شجاعة فى القول ، وأصالة فى الرأى ، وحصافة فى التفكير ، واتزان فى الحكم ، إرادة قوية حازمة نشيطة فعالة ، فى غير تردد ولا تراجع . إذا نظرنا إلى أى ناحية من نواحى هذا النادى ، رأينا أثراً من آثار « صالح » يمثل تفانيه فى إنشائه ، ولن تغيب عن خاطرى تلك المناظر التى شاهدته فيها مجداً مرهقاً ، يصل صباحه بمسائه فى إعداد النادى والإشراف عليه . يفعل هذا ويرى فيه الشرف والرفعة . وفى هذا يتجلى المبدأ السامى الذى ننشده ، وهو تفانى الفرد فى خدمة المجموع ، وإنكار الذات فى أداء واجب الجماعة

أما علم صالح وفضله ، ونبوغه الهادىء . وعبقريته الرزينة ، فلا أدل عليها

من آثاره البارزة فى معاهد التعليم العالية التى تولى تربية أبناء وطنه فيها . ويكفيه فخراً وشرفاً إنه كان أستاذ أساتذة المستقبل فى دار العلوم ، والمعلمين العليا ، وكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية ، وكانت شخصيته النبيلة المحبوبة ، المثل الأعلى فى تكوين طلابه ؛ فهو رجل يكره الثرثرة ، ويمقت الرياء ، ويبغض الفخر ، ويزدرى الإعلان عن النفس ، ويسخر من التحدث بما أدى من واجب ، وأثمر من ثمرات . ولا أدل على عظمة الرجال من هذه الصفات ، ولا أبقى فى التقدير من أن يترك العظيم الناس يتحدثون عنه ، ولا يتحدث هو عن نفسه .

من السعادة لجماعة دار العلوم ، ومن فواتح الخير لناديها ، أن يكون أول حفل يقام به لتكريم علم من أعلام دار العلوم ، وأن يكون هذا التكريم لأعظم شرف تحظى به الدار العتيدة . وهل هناك شرف أعظم من تولى تربية « ولى عهد البلاد ، وأمير الشباب » فاروق » وإن اختيار صالح بالذات لضمان لمضاعفة هذا الشرف وتخليد لهذا المجد ، فان نجاحه فى مهمته محقق بعون الله ؛ ورعاية مولانا المليك ، وبفضل صالح وعلمه ، وبصره الدقيق بعلوم التربية ، وخبرته وتجاريبه بطرائق التكوين ، وإن المستقبل لكفيل بتحقيق ما نؤمله ونرجوه .

ياصالح ليس سمو مهمتك بمانع من لوعة فرقتك فى قلوبنا ؛ فقد كنت المؤاسى لجراحنا ، ووسيط الخير فى إزالة مايعتور نفوسنا ؛ على أننا سنكتم هذه اللوعة بين جوانحنا ، ونضغطها بقوة إخلاصنا لك ؛ لتنقش على صفحات قلوبنا . سطور حبك ومودتك التى لن يؤثر فيها كر الجديدين ؛ كما أنه ليس بمانع عبرة تترقرق بين مآقينا ، نحبسها إشفاقاً على شعورك الدقيق ، وعاطفتك الرقيقة ، وقلبك الحساس ، لتبقى تذكرة صافية شفيفة مضيئة ، تذكرنا بصفاتك التى أعجزنا حصرها وقعد بنا البيان عن تعدادها

فى حفظ الله ، ورعاية المليك ، وساحة الأمير نستودعك ، محوطا بقلوبنا ، مذكوراً بآثارك بيننا ، حتى تعود إلينا بسلامة الله ، وفى رعايته . والسلام عليكم ورحمة الله .

أبو الفتح الفقى

كلمة الأستاذ مهدى علام

المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفنى بها

فى حفلة التكريم

لقد شاءت المصادفة السعيدة أن تكون هـذه الحفلة أولى حفلات التكريم بنادى دار العلوم . ولهذه المصادفة مغزى جميل ، إذ أن أول تكريم تقوم به جماعة دار العلوم يوجه إلى ابن من أعز أبنائها وأكرمهم عليها . ولعل الجماعة قد استفتحت بهذا التكريم لتكرم نفسها فى شخص المحتفل به : فانه مامن صفة من صفات الخير فى هذه الجماعة إلا هى ماثلة فى صالح : فاذا أرادت الجماعة أن تكرم مافيها من العلم، فلتكرم صالحا العالم ؛ وإذا شاءت أن تكرم مافيها من الحصافة ، فلتكرم صالحاً الحصيف ؛ وإذا أحبت أن تكرم ما فيها من العزة والإباء ، فلتكرم صالحا العزيز الأبى ؛ وإذا رغبت فى أن تكرم ما فيها من الصدق والوفاء ، فلتكرم صالحاً الصادق الوفى ؛ وإذا أرادت أن تكرم كل هذه الصفات مجتمعة ، فلتكرم صالحا وحسبها .

فنحن إذن إذ نكرم صالحا إنما نكرم خير ما فينا من الصفات ، وأنبل ما تتصف به جماعتنا من الأخلاق ، وأعز ما نعتز به من الحجا والرأى .

وإننا لنقدم تهنئتنا لصالح على أن اختير للمنزلة التى خلق لها ؛ فان جميع ما مر بصالح ، ومر به صالح ، من أدوار التثقيف ، ومن تجارب المناصب التى شغلها ، قد أكسبه جدارته بهذا المنصب الرفيع ؛ وما أرانى فى حاجة إلى التدليل، فقد ارتضاه مليك البلاد — أعزه الله — أميناً على تربية ولى عهده المحبوب ، وليس بعد شهادة الملوك شهادة .

أيها السادة

إن مثل المتحدث إليكم فى مناقب صالح كمثل مستبضع التمر إلى هجر ، أو جالب الفحم إلى نيوكاسل . فما منكم من سيد إلا عرفه كما عرفته ، وما كانت أخلاقه وأعماله لتخفى وإن توارت وراء حجاب من التواضع إلا كما تستتر الشمس وراء السحاب ، تبعث ضوءها ، وتبث حرارتها ، ولكنها لا تمن على الناس بلا فح الأشعة ، ولا تلح عليهم بأنها ولية نعمتهم .

غير أن حب الصديق لصديقه ووفاء الأخ لأخيه يحتمان على أن ألح إلى بعض النواحى التى عرفتها فى صالح ، مما أخشى أن يكون تواضعه قد سترها عن كثير .

صالح الطالب فى انجلترة

لقد أسعدنى الحظ بأن حللت محل صالح فى بيت أقام فيه وهو يطلب العلم فى بلاد الانجليز ، وأن أدرس على بعض الأساتذه الذين درس عليهم فى إحدى الجامعات . ولقد كان من مفاخر المصريين عامة ، وأبناء دار العلوم خاصة أن قد خلف لهم صالح فى تلك البلاد ـ سواء فى علاقاته العلمية ، أو فى علاقاته الاجتماعية تقاليد كريمة نبيلة ، مما أنطق ألسنة كل من اتصلوا به بالثناء عليه وعلى المصريين فى كل مناسبة يرد فيها ذكر المصريين .

فكان بذلك سفيرا غير رسمى لقومه ولمعهده فى وقت لم تكن مصر تعرف فيه السفراء والممثلين .

صالح فى كلية اللغة العربية

ثم أنتقل إلى عمل صالح فى ذلك المعهد الشقيق فاذا هو معجزة الأعمال : كلية ناشئة ، وطلاب يسيرون على نظام غير مسبوق ، وأساتيذ يختلفون فى ثقافاتهم ففيهم الأزهرى العريق ، وفيهم شيخ دار العلوم وفيهم شيخ دار العلوم المثقف ثقافة أوربية وفيهم خريجو المعلمين العليا

ولكن ثقافات هؤلاء جميعا انتهت إلى صالح فالتقوا عنده وكيلا للكلية ومصباحها المنير ، فكان ملتقى الثقافات أو « خط تقسيم المعارف » .

كلمة أخيرة

وكلمة أخيره هى أنه ليس لصالح فضل فى هذه الفضائل ، لأن الفضل إنما يكون للمجاهدين فى سبيل اكتساب الفضائل أما هو فليس له فضل فى اكتسابها ، فلقد ولد بها ونشأ فيها ، وما كان يكون « صالحا » بغيرها .

غير أن له مع ذلك فضلا آخر هو محاولته تعميم هذه الفضائل فى جميع البيئات التى اتصل بها ولا سيما تلاميذه الذين يعدون اليوم بالألوف فى جميع مراحل التعليم والذين تبلرت تلمذتهم فتمثلت فى أسمى تلميذ وهو أمير الصعيد المحبوب .

مهدى علام

القصيدة

التى قالها الأستاذ عبد المغنى المنشاوى المدرس بدار العلوم فى الحفل الذى أقامته جماعة دار العلوم فى ناديها بمناسبة سفر الأستاذ صالح هاشم عطية مع صاحب السمو الملكى الأمير فاروق مربياً له

أخا الشعر هذا مقام الأدب فأدّ عن الشعر حقا وجب
وأوقع بناديه ألحانه وأوزانه فى عيار الذهب
وخلّ الخيال وتزويره وقل للحقيقة أنتِ الطلب
لئن كان أعذبه كاذبًا لشعرك يملح إما كذب
ففى صالح كل معنى سما وفى صالح كل فن عجب

كتاب تطالع فيه الحياة تحييك، جل الذى قد كتب
ولغز يحير لب اللبيب ويخطىء حسبته من حسب
فبينا ترى الشرق فى وجنتيه ترى الغرب عن أفقه ما غرب
تكلم «روسو» بآرائه ومال «الخليل» إلى ما ذهب
وبينا تراه الحيّ الصموت تراه الايادىّ إما خطب

سل الأزهر الفرد ما خطبه ودار العلوم إليها انتسب
وسل شِرْعة الله عن دينه وعن علمه أمهات الكتب
وعن خلقه نافحات الرياض وعن فضله نافحات السحب
يجبْنك هذا الفتى الهاشمى نجىّ الفرنجة فخر العرب

تصوّرَ خُلقا رضىّ الصفات بعيدَ الأناة قريب القُرب
عن الشر تبصره مُعرضا وفى الخير تبصره عن كثب
بجدُّ ويلطف فى جدّه كأنك من جدّه فى لعب
فأحبب به مُسرفا فى الرّضا وأحبب به عادلاً فى الغضب
وأشرق به كوكبا فى الندّى وأعجبْ به باسما للكرب

فسل عنه نادى دار العلوم وسائل (أباالفتح) رأس الشعب
وسائل (نجيباً) رئيس الندى أفى رأيه قد تشكّى الوصب
إذا كنتما روح هذا الندى فصالح كان القوى والعصب

دَءوب على الخير من طبعه ونيلُ العلا دأب هذا الدَّابْ
رآه المليك أبا صالحا فكان لفاروقه المنتخب
تهنَّأ إذن يا أمير الصعيد فقد جاء يسعى أمير الأدب

أرونى سوى صالح صالحاً لهذا المقام الخطير الحسب
فتى هاشم أنت كافٍ لهم كفى هاشم رتبة فى النسب
بيانك ياذا اللسان الحديد تَعَيًّا به ذو اللسان الخشب
وأين من الدُّر نظم الحصى وأين من الرأس عَجْبُ الذنب
فأنت الأديب وأنت الأريب وأنت المجلِّى وهذا القصب
يذكرنا منك صوت الندى وسلم الولى وحرب الحَرَبْ
وعون الصديق وأنس الرفيق وهدى الطريق إذا ما احتجب
تعين المصاحب إما استعان ولست بسائله ما السبب
ورأيك فى داجيات الخطوب يكشفها ثاقبا كالشهب

ظفرنا بها من بنات القريض شمولا تخامر بنت العنب
فذا بحرها جاريا كالفرات وذا ضربها سائلا كالضرَبَ
أذنْنا لنكتب أبياتها سويداءنا قلَّ ذوْب الذهب
فقى صالح كل غال يُذَال وفى صالح كل شىء يحب

نودعك الآن لاعن قِلًى فعُد سالماً بعد نيل الأرب
وإنا على بعدنا إخوة كفى بالمعارف أما وأب
حِراصٌ على ودِّنا ماحرصت فتبَّت يدا كل واش وتبْ
نموت ونحيا على حبنا وقد يحشر المرء مَعْ مَنَّ أحب

صفحة مطوية

من حياة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله

بقلم الشيخ عبد الوهاب النجار

الأستاذ السابق بدار العلوم

كان المرحوم الإمام منفياً فى بيروت كما يعلم جميع الناس ، وقد اتصل وهو فى بيروت برجل أفغانى يقال له ميرزا باقر (١) . وقد كان ذلك الرجل بارعا فى الإنكليزية ، واستخدم فى السلك السياسى ، وتعرف برجال كثيرين فى أوربة من المستشرقين وغيرهم .

فجاء ميرزا باقر إلى الشيخ محمد عبده وقال له : إن الله تعالى قد آتاك عقلا راجحا ، وذهنا ثاقبا ، وقوة فى الحجة ، فما أعددت من الجواب إذا سألك الله تعالى عن هباته وأفضاله عليك ، فيم صرفتها ؟ وما الذى عملته لخدمة دينى الذى ارتضيته ، وأنت اليوم فى كل طرفة عين تبعد عن أيام الدنيا وتقرب من أيام الآخرة ؟

فقال له الأستاذ : وماذا عسى أن أعمل ، وأنا غريب طريد شريد ؟ فقال له ميرزا باقر : إنك تقدر أن تعمل عملا عظيما . فإنك يمكنك أن تدعو أوربة إلى الإسلام ، فقال له : ومن يسمع لى ، وأوربة عن الدين فى عمى ، لا يطلبون حقا ، ولا يبطلون باطلا ، بل هم فى تعصب محض ضد الإسلام . فقال له ميرزا باقر : فى أوربة قوم عقلاء قد أعتقوا أنفسهم من التعصب ، ولو ظهر لهم الهدى لصدعوا به بدون مبالاة . أعرف منهم اسحق تيلر ، فلو كاتبته وطلبت مساجلته فى بيان الحق من الشبه

---

(١) لمرزا باقر هذا ذكر فى الجزء الأول من تاريخ المرحوم الإمام ، للمرحوم السيد رشيد رضا .

التى عنده على الإسلام لإزالتها وتوضيح الحق فيها لما تأخر عن ذلك ، ولسر سروراً عظيما . فقال الشيخ : إنى لا أعرف من الإنكليزية لاقليلا ولا كثيراً — فقال له ميرزا باقر : إنى أنقل ماتكتبه بالعربية إلى الإنكليزية ، وترسله به إليه . فاذا جاء كتابه بالإنكليزية نقلته إليك بالعربية .

فكتب الشيخ إلى ذلك الرجل العالم المسيحى ، يذكر له ما سمعه عنه ؛ من العلم والعقل والاعتدال وعدم التعصب للباطل ، وأنه لذلك رغب فى مخاطبته ، ليعرض على الشيخ الشبه التى تعترضه فى سبيل الإسلام ليجيبه بالحق فيها فاذا اقتنع فالشيخ لا يطلب إليه إلا إذاعة ما اقتنع بأنه حق ، لتزول بذلك الجفوة بين أهل الدينين ، ولا يكون الإسلام عرضة لهجمات توجه إليه من المسيحيين بغير حق ، عن جهل أو تعصب .

جاء كتاب أسحاق تيلر مرحبا بهذه الفكرة ، شاكرا للأستاذ بدأه بالمراسلة قاطعا على نفسه عهداأن يذيع ما اقتنع به ، ثم أورد إحدى الشبه فقال : إن الإسلام يقرر فى هذه المسألة كذا ، والمسيحية تقرر كذا ، وما ذهبت إليه المسيحية معقول بخلاف ماذهب إليه الإسلام .

فأجابه الأستاذ الإمام : بأن ما عزاه أو عزته كتب المسيحيين إلى الاسلام ليس منه فى قليل ولا كثير ، وإنما تسند إلى اسرائيليات وروايات خرافية ليست من القرآن ، وأن الذى قرره القرآن هو كذا ، وما عداه لا يحمل على القرآن ، ولا يكون من الدين فى شىء ، وعندك الآية كذا من سورة كذا فيها ذلك صريحا ، وهكذا كان إسحاق تيلر يورد الشبه ، والأستاذ يردها بالدليل الواضح وصريح القرآن . حتى لم يبق للرجل شبهة ، وكلما فرغ من موضوع أجاب الرجل بأنه اقتنع . فلما لم يبق فى نفسه شىء طالبه الأستاذ الأمام بإعلان مااقتنع به فلبى ذلك الطلب ، فماذا عمل؟

جمع القساوسة ورتب ما دار بينه وبين الأستاذ الإمام ، وقام خطيباً بين القسس ، وبين لهم الشبه التى أوردها على الإسلام ، وماأجاب به الشيخ ؛ وسألهم ألكم اعتراض على ماجاء به حتى أستوفى البحث معه فيه ، أم تسلمون معى كما سلمت له ؟ وأشار إلى تلك الأوراق وقال لهم : من بقى فى نفسه شىء فليطلع على تلك

الأوراق . فقام بعضهم إلى المنضدة التى عليها الأوراق ، ونظر فى بعضها . ثم قالوا له : إن هذه الأوراق كثيرة ، وإنك قطعت فى كتابتها والمخابرات بشأنها شهوراً ، فنرجو أن تضعها مدة كافية تحت تصرفنا للاطلاع عليها ، وإبداء الرأى فيها ، فأجابهم وقال لهم : ها هى تى هنا ، ولكم الاطلاع عليها فى الزمن الكافى .

خرج أولئك القسوس ، وقد أيقنوا أن هذه الأوراق ستحدث ضجة فى المسيحية ، خصوصاً ما لإسحاق تيلر من المكانة وقوة عارضته وبلاغته فى الخطابة ؛ فخلصوا نجيا ، وتم اتفاقهم على أن يعرضوا خطر المسألة على الملكة فكتوريا وأتبعوا العزم بالفعل ، وقابلوها على غير موعد معتذرين بأن ما دعاهم إلى طلب مقابلتها ، خطورة المسألة التى جاءوا فيها ، وهى أنه يوجد ببيروت من البلاد العثمانية شيخ مصرى يكتب كتابات توقع الفتنة فى العالم المسيحى ، وأن هذا الرجل خطر شديد على المسيحية ، وأنهم بتبليغها هذا الأمر نقلوا ما فى أعناقهم إلى عهدتها. فطمأنتهم ووعدتهم أن تهتم بهذا الأمر بنفسها ، ولم تلبث أن طلبت إلى السلطان عبدالحميد أن يكون على (التلفون) وقالت له : إن عندكم فى بيروت رجلا اسمه الشيخ محمد عبده المصرى ، وهذا الرجل خطر ، لأنه يفسد ما بين أهل دين الاسلام وأهل الدين المسيحى ، فيجب أن يحذر منه .

فأما السلطان عبد الحميد فخاطب والى بيروت وسأله : هل عندكم رجل مصرى اسمه الشيخ محمد عبده ؟ فقال له : نعم ، وأنا أعرفه ، وظاهر أمره الصلاح . فخاطب السلطان الغازى مختارا باشا (بالتلغراف) . فأنبأه بأنه لا يعرف هذا الرجل ، وأنه سيسأل عن شأنه .

لجأ الغازى مختار باشا إلى رجل من ثقاته ، يعرف فيه الصدق والإخلاص ، هو الشيخ على الليثى . فأثنى على الشيخ محمد عبده ودافع عنه . فأخبره الغازى بما أنبأه به السلطان عبدالحميد . فقال له : إن الأمر سهل ، تزور أفندينا الخديوى ، وتسأله العفو عنه ، والأمر باستقدامه إلى مصر . فاستحسن الغازى هذا الأمر ؛ وذهب إلى المرحوم الخديوى توفيق باشا واستعطفه على الشيخ محمد عبده ؛ فوعده بذلك . فقال له خير البر عاجله ؛ فلم يخرج الغازى من حضرة الخديوى إلا بعد أن أصدر أمره

بالسماح للشيخ بالعودة إلى مصر ، وأرسل « تلغرافا » الى بيروت باستقدامه .

عاد الغازى مختار باشا إلى سراى الاسماعيلية ، وأنبأ السلطان عبد الحميد بأن أمر الخديوى صدر بعودة الشيخ محمد عبده إلى مصر .

أما السلطان عبد الحميد فأرسل إلى والى بيروت تلغرافا بتسهيل ترحيل الشيخ وأن يخبره إذا صار الشيخ فى عرض البحر بإبحاره وباسم الباخرة التى هو فيها ، وموعد وصولها إلى القطر المصرى .

صدع الوالى بالأمر وأنبأ السلطان بذلك ؛ فأرسل السلطان تلغرافا إلى الملكة فيكتوريا ينبئها بأنه اهتم بما قالته له ؛ وسأل عن ذلك الرجل الذى أخبرته بشأنه فعلم الآن بأنه غير موجود فى بيروت ، وأنه الآن فى عرض البحر ذاهبا الى مصر على الباخرة (كذا) وأنه يصل إلى القطر المصرى فى ساعة كذا من يوم كذا .

ولعل الخطب الطنانة التى كان يخطبها القس اسحاق تيلر ويرسلها من منبر كنيسته مثنياً على الاسلام ساخطا على من يناوئونه كان أساسها تلك المحاورة التى كانت بينه وبين الإمام والتى كانت السبب فى عودته إلى مصر .

عبد الوهاب النجار

الميسر عند العرب

بقلم محمود مصطفى

أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية

الميسر هو القمار ، من يسر ييسر كالموعد والمرجع . واشتقاقه من اليسر ؛ لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب . أو هو من اليسار ، لأن فيه سلب اليسار والاستحواذ على الثروة .

ولا شك أنه بهذا التعريف يطلق على كل ما فيه مخاطرة وجُعْل يستحقه الغالب أو صاحب الحظ . ولكنه أطلق أصلا وشاع في الاستعمال اختصاصه بذلك الأسلوب من المقامرة التي سنجعلها موضوع مقالنا .

وما نريد بحديثنا عن الميسر عند العرب إحياء لهذا المنكر ، ولا إشاعة لطريقته . فلسنا والحمد لله من مشيعي الفاحشة في الناس ، ولا أهل زماننا ضعاف الوسائل في باب المخاطرات والمراهنات ، فقد رمتهم المدنية بشتى الأساليب التي يدلف بها الإنسان لسلب مال أخيه ، بحيل واسعة ومداخل لطيفة ، حتى لقد صارت هذه الأساليب التي جرها علينا طمع الانسان في مال أخيه واحتياله لسلبه ، من المخاطر التي تقلق بال الحكومات ؛ فتسن من أجلها القوانين ، وتقيم الأرصاد ؛ وتنشر الجواسيس ، وتبث العسس .

على أن ميسر العرب بأسلوبه القديم غير صالح لأهل مدنيتنا : فأين مجلس الأعراب في أكناف خيامهم ، واستنارتهم بالنيران (١) يتطاير شررها ، ويتعالى دخانها ، وقد عقروا ناقة فتضرجت بدمائها ، وتعفرت بالرمال لحومها ، وعلى مقربة منهم فقراء العشيرة ينتظرون ما يرمى به هؤلاء الأيسار من أنصبتهم التي حرموها على أنفسهم كرما وأنفة ؟ أين مجلس هؤلاء من مجلس سادتنا وأغنيائنا

(١) كانت عاداتهم أن ييسروا ليلا

فى الأندية وقد تبنَّكوا (١) فى مقاعد وثيرة ، وامتدت أمامهم موائد خضراء تسر الناظرين ، وطاف بهم النُّدُل (٢) يوزعون عليهم المرطبات والمدفئات والحلويَات والحوامض ؛ وقد انبعث عليهم النور من جوانب المكان يستضيئون به ولا يرون شعاعه ، ويتمتعون ببهائه ولا يصطَلون حره ، ثم سال بينهم النضار بدل دماء هذه النوق التى يلوثهم رشاشها ويؤذيهم ريح جسيدها .

لاشك أن أهل مدنيتنا لا يستبدلون بمجالسهم الوثيرة قضيض الحصى يحتونه عن جنوبهم المتعفرة ، ويزيحونه عن مقاعدهم القلقة ، وهم إلى ذلك شِحاح ، ماجرّهم إلى هذه المجالس إلا الطمع وحب المال . يرسل الواحد منهم على المائدة الدينار والدينارين بل العشرات من ذلك بل الألوف بمثل سماحة الكرام ، وجود الأفذاذ ؛ ولو سأله سائل ثمن رغيف لأشاح عنه بوجهه ، وتبرم بصوت استغاثته ، وعد طلبه مهما تلطف فيه إلحافا يعيبه به . ولا يعيب نفسه بالشح على الفقراء ، والجود ، بل التخرّق فيه ، على الأنداد والنظراء .

ولكنه جود عرفت مغزاه ، فهو حيلة للسلب ، وطعم للصيد ، ولولا أن الحرص فتح له أوسع أبواب الأمل ، لرأيت موقفه من هؤلاء الجاساء ، كموقفه من أولئك الفقراء .

٭٭٭

لم يكن الدافع إلى تناول هذا الموضوع ، إلا شدة علاقته بالأدب ، وحاجة الدارس للشعر والنثر الجاهليين وغير الجاهليين ، أن يفهم مايرد فيهما من الاشارات إلى الميسر ، وأسماء قداحه وأحوال أيساره (لاعبيه) ، وكل من يتصل به من قرب أو بعد .

كيف نفهم قول امرئ القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

نحن محتاجون أن نعرف السهمين اللذين يستغرقان أجزاء الجزور العشرة ، ولا نستسيغ ذلك حتى ينجلى أمامنا ما يفعله العرب فى قمارهم هذا .

---

(١) جلسوا متمكنين (٢) خدم الدعوة

أم كيف نفهم قول مُتَمِّم بن نُوَيْرَة يرثى أخاه مالكا :

ولا بَرَماً تُهدى النساء لعرسه إذا القِشْع(١) من برد الشتاء تقعقعا

فإذا عرفت أن البَرَم هو الذى لايدخل مع القوم فى القمار ، احتجت إلى معرفة السبب فى استنكار الناس لأمر البرم ، وتحقيرهم لشأنه ، فجر هذا إلى شرح الميسر ، فاحتجت إلى أن تكون منه على علم .

أم كيف نفهم قول النابغة الذبيانى :

إنى أتمم أيسارى وأمنحهم من الأيادى وأكسو الجفنة الأدَمَا

فما معنى تتميم الأيسار ومن هو متممهم ؟ فهذا البيت وحده يحتاج فى شرحه إلى دراسة موضوع الميسر دراسة مستفيضة . لاغنى فى شرحه عن دقيقة من دقائقه ، إلى غير ذلك مما يرد فى النثر والشعر من ذكر المُعَلَّى ، والمنيح ، والوغد ، وضرب المثل بها فى حسن الطالع أو نكده .

* * *

إذا يجب على الأديب ألا يقصرً فى درس هذا الموضوع ، ولكنه حين يهم بذلك يجد فيه من العراقيل والعقاب ، ما ينفد معه صبره ، يجد مسألة حسابية فى منتهى التعقيد يحملها أغلب المؤلفين فيزيدوا تعقيدها ، وتصبح طلسما لاسبيل لحله ، فيتهم القارئ المستنير عقله ، ويستبطئ فهمه ، ويعجب كيف كلّ ذهنه عن مسألة كان العرب الأجلاف يأتونها فى لهوهم ، ويحلونها بأيسر محاولاتهم . ثم إذا تجاوز القارئ المتتبع لهذه المسألة ، تلك الكتب التى أوجزتها ، إلى الكتب التى أطالت فيها يجد مصادفة مدهشة ، جرت فى هذه المسألة خاصة ، وهى سقوط أسطر فى أثناء شرح طريقتها يضيع معها المعنى ، وليس هذا مقصوراً على كتاب واحد بل إنه قد تعداه إلى غيره ! ! !

أفلا تضيق ذرعا إذا اهتممت بهذه المسألة ، فوقفت لك هذه الحوائل فى طريق فهمك ، وانسدت السبل أمام تأتيك ورويتك . تحتفل للفهم ، وتستعد للتلقى فيسقط فى يدك ، ويستحيل عليك مرادك ، بسبب مما ذكرنا لك .

(١) القشع : المنقشع اللحم كبرا . وتقعقع : اضطرب وارتعش

أليست هـذه إحدى العجائب أن يعمد الفساد إلى مسألة من المسائل العلمية فينالها بجميع أنواع التحريف والخلط ، حتى تصير فى أكثر مظانها كدرة عكرة ، لا سبيل إلى ورودها ، ولا حيلة للدخول إلى فهمها !!!

لا بد أن أمثل لقارئ مقالى تلك الحيرة التى خبطت فى تيهها حتى يعرف حلاوة الظفر بالحقيقة إذا جلّيتها له أخيراً .

التمست شرح طريقة العرب فى قمارهم ، فى كتب التفسير عند قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للنـاس . . . » الآية . فتناولت كتاب الكشاف عن حقائق التنزيل ، للعلامة جار الله الزمخشرى ، فوجدته يقول :

فإن قلت كيف صفة الميسر ؟ (قلت) : كانت لهم عشرة قداح .

وهى الأزلام والأقلام : الفذّ ، والتّوْءم ، والرقيب ، والحِلْس ، والنافس ، والمُسْبِل ، والمُعَلَّى ، والمَنيح ، والسَّفِيح ، والوَغْد . لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء ، وقيل ثمانية وعشرين . إلا لثلاثة ، وهى المنيح ، والسفيح ، والوغد . ولبعضهم :

لى فى الدنيـا سهام ليس فيهن ربيح

وأساميهن وغـــد وسـفيح ومنيح

للفذّ سهم ، وللتوءم سهمان ، وللرقيب ثلاثة ، وللحِلْس أربعة ، وللنافس خمسة ، وللمُسْبل ستة ، وللمعَلّى سبعة . يجعلونها فى الرِّبابة ، وهى خريطة ، ويضعونها على يدى عدل ، ثم يجلجلها ويدخل يده فيخرج باسم كل رجلٍ رجلٍ قِدْحاً منها . فمن خرج له قِدْح من ذوات الأنصباء ، أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح ، ومن خرج له قدح مما لا نصيب له ، لم يأخذ شيئا ، وغرم ثمن الجزور كله ، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء .

وهذه العبارة مدمجة لا تصور حال هذه العملية الدقيقة ، وفيها غموض من نواح ، وإحالة من نواح أخرى . فأما الغموض ففى قوله فيخرج باسم رجلٍ رجلٍ

قدحاً منها ؛ فهل معناه أن يتفق القوم على أن يكون أول سهم يخرج باسم فلان والثانى باسم فلان وهكذا ؟

ذلك ما نراه مخالفاً للحقيقة التى ذكروها فى أمر هذه المقامرة كما سيتضح لك. وإذا كان كما يقول فتى تنتهى عملية إخراج السهام ؟ وكيف يوزع الغنم والغرم على المشتركين فيها ؟ وما كيفية حساب ذلك ؟ وكم عدد الأيسار ؟ هل هم بعدد السهام العشرة كلها . أم هم سبعة بعدد السهام الرابحة لاغير ؟ . هذه هى نواحى الغموض فى قول صاحب الكشاف . فأما الإحالة ففى قوله ويجزئونها عشرة أجزاء ، فكيف تصلح هذه الأجزاء لسهام مجموع أنصبتها ثمانية وعشرون ؟

وقصارى القول أن ليس فى كلام صاحب الكشاف تجلية للموضوع ولا تصوير ولا تكييف له مع كونه استعد للشرح ، وتعرض للبيان ، وتصور سائلا يسأل ، ونصب نفسه للأجابة عن سؤاله . .

ثم يجىء الإمام فخر الدين محمد الرازى ، صاحب مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير فيقول : وأما صفة الميسر فقد قال صاحب الكشاف . . . وينقل عبارة الكشاف لا يزيد عليها ولا ينقص منها حرفا .

ثم يجىء الفاضل الكامل الشيخ إسماعيل حقى افندى صاحب روح البيان فيذكر عبارة هى فى جوهرها عبارة الكشاف لولا زيادات طفيفة لا أثر لها فى تجلية الموضوع كقوله : ويضعونها على يدى عدل عندهم يسمى المجيل والمفيض ثم يجيلها ويجلجلها أى يحركها باليد . ثم يذكر العبارات التى بينا وجه غموضها بنصها .

وفى روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للعالم الجليل السيد محمود شكرى الألوسى البغدادى يقول : وصفته (أى الميسر) أنه كانت لهم عشرة قداح وهى الأزلام والأقلام . . . ويستمر ناقلا عبارة الزمخشرى بنصها لايغير شيئا إلا نقص الأبيات التى جمع فيها الشاعر أسماء السهام التى لانصيب لها ، ثم يختمها بالجملة التى ختمت بها عبارة الكشاف ، وهى : ومن خرج له قدح

مما لانصيب له لم يأخذ شيئا ، وغرم ثمن الجزور كله مع حرمانه ، فيزيد عبارة « مع حرمانه » والكلام فى غنى عنها .

٭٭٭

فإذا انتقلنا إلى الكتب التى أطالت الشرح وفصلت القول وجدنا فيها ذلك الاتفاق الغريب ، والمصادفة العجيبة ، وهى سقوط أسطر من الكلام أخلت بالمعنى وأحالت فهمه .

فنى نهاية الأرب فى فنون الأدب لأبى العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٢ هـ يقول فى الجزء الثالث ص ١١٩ بعد أن تكلم عن القداح وذكر صفتها وأنصبتها وروى ماقيل من الشعر فيها ، تعرض لشرح عملية هذه المقامرة فقال :

« . . . . فيعمدوا (١) (كذا) إلى القداح فتشد مجموعة فى قطعة جلد ثم يعمد إلى الحُرُضة (٢) فيُلَف على يده اليمنى ثوبا (كذا) لئلا يجد مس قدح له فى صاحبه هوى فيحابيه فى إخراجه ، ثم يؤتى بثوب أبيض يدعى المجولُ (كذا) فيبسط بين يدى الحرضة ، ثم يقوم على رأسه رجل يدعى الرقيب ويدفع رِبابة القداح إلى الحرضة ، وهو محول الوجه عنها . والربابة ماتجمع فيها القداح فيأخذها ويدخل شماله من تحت الثوب ، فينكر القداح بشماله ، فاذا نهد منها قدح تناوله فدفعه إلى الرقيب ، فإن كان مما لاخطر له رد إلى الربابة ، فإن خرج بعده المسبل أخذ الثلاثة الباقية ، وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور أخرى ، وعلى هذا يفعل بمن فاز ومن خاب ، فربما نحروا عدة جزور (كذا) ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئا ، وإنما الغرم على الذين خابوا . وهذا كلام ظاهر السقط عند كلمة المسبل .

ثم يجىء القلقشندى صاحب صبح الأعشى المتوفى سنة ٨٢١ هـ فيأتى فى

---

(١) صوابه فيعمدون لأن الكلام معطوف على يشترون جزورا فيفصلونها ثم يؤتى بالحرضة الخ (٢) هو مجيل القداح

الجزء الأول من كتابه هذا بعبارة منقولة من عبارة نهاية الأرب إن لم يكونا جميعا نقلا عن ثالث وقع فى كلامه هذا السقط ، وفى هذه العبارة يقول بعد كلام : فينكر القداح فأذا نهد منها قدح تناوله ودفعه إلى الرقيب ، فإن كان مما لاحظ له رد إلى الربابة ، فأن خرج بعده المسبل مثلا أخذ الثلاثة الباقية وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور آخر .

وهذا النقص فى عبارة القلقشندى هو بنفسه الذى حدث فى عبارة نهاية الأرب . ويلاحظ أن القلقشندى زاد كلمة « مثلا » بعد المسبل مما يدل على أنه أراد أن ينوع فى التعبير بما لايغير المعنى ، فعل غير الفاهم إذا أرادأن يبدى تصرفا فى كلام مغلق عليه ؛ فهو يضيف واوات وفاءات . ويضع كلمة بدل مرادفها ، ويزيد مثلا كلمة « مثلا » أو « أيضاً » أو نحوهما .

* * *

إلى الآن وبعد كل هذه النقول مازلنا فى حيرة من أمرنا لانستطيع كشف هذا السر الذى عثرنا به فى آثار الجاهلية ، ولا نستطيع بعقولنا المدنيـة المثقفة إدراك مابلغته مداركهم فى هذه الملهاة المبنية على طريقة حسابية لها نصيبها من الدقة أو التركيب والقرب أو البعد كما ستفهمها إن شاء الله . وسنشرحها على وجهها فنقول :

* * *

قد تبين لك من مجموع النقول السابقة أسماء القداح ومقدار أنصبتها واسم القائم بأخراجها . والقائم على مراقبته ، واسم الخريطة التى تجتمع فيها القداح ، والثوب الذى يغطيها . بان لك ذلك فلا داعى لإعادته بنصه فى عبارة الكتاب الذى روى غلتنا فى شرح هذه العملية . وبقى أن نشير إلى أنه فى كلام طويل ذكر أن عدد الأيسار (اللاعبين) سبعة ، وأن أجزاء الجزور عشرة ، فعلى هذ الحساب يستقيم شرحه .

ولذلك نكتفى بهذه الاشارات ثم نبدأ بسرد العملية وحالاتها المتعددة التى تكون عليها .

ذلك الكتاب هو « بلوغ الأرب فى أحوال العرب » للألوسى . والعجيب أنه هو بعينه صاحب التفسير الذى ذكرنا سابقاً أنه تبع عبارة الكشاف الغامضة المدمجة المستحيلة . فكيف اتفق للرجل أن يكون مبينا واضحا هنا وغامضا مشكلا هناك . لعله ظن أن تفسير القرآن ليس مجالا للفكر ولا موضعا للتصرف ، وأن العمل فيه يجب أن يقتصر على النقل عن المتقدمين ، أو لعل الرجل اهتدى أخيراً إلى هذا البيان الشافى ولم يكن بِملْك يده حين كتب تفسيره .

قال فى الجزء الثالث من بلوغ الأرب بعد أن انتهى من مقدمات العملية :

« فإن خرج الفذ أخذ صاحبه نصيبه (وله جزء واحد كما تقدم) ثم ضربوا بالقداح الباقية على التسعة الأجزاء الباقية ؛ فإن خرج التوءم أخذ صاحبه جزأين وقعد إن شاء ، وضربوا بباقى القداح على السبعة الأجزاء الباقية ؛ فإن خرج المعلّى أخذ صاحبه الأجزاء السبعة التى بقيت . ووقع الغرم أعنى ثمن الجزور على من لم يخرج سهمه . وهم أربعة : أصحاب الرقيب ، والحِلْس . والنافس ، والمُسبِلَ . وجملة هذه القداح ثمانية عشر سهما ؛ فيجزأ الثمن على ثمانية عشر جزءا ، ويلزم كل صاحب قدح من هذه القداح مثلَ ما كان يصيبه من اللحم لو فاز قدحه .

فان لم يخرج الفذ ولا التوءم وخرج الرقيب أخذ صاحبه ثلاثة أجزاء ، ثم ضربوا ثانية فخرج المعلى أخذ صاحبه السبعة الأجزاء الباقية ، وهى تتمة الجزور ، وكانت الغرامة على من لم يخرج قدحه ، وهم أصحاب القداح الخمسة التى خابت وهى : الفذ والتوءم والحلس والنافس والمسبل : ومجموع سهامها ثمانية عشر . فإن خرج المعلى (١) أخذ صاحبه سبعة أجزاء الجزور ، واحتاجوا إلى نحر جزور أخرى ؛ لأن فى القداح التى خابت المسبل ، وله ستة أجزاء ، ولم يبق من اللحم إلا ثلاثة أجزاء . ومن خاب قدحه فى الجزور الأولى (٢) لم يأكل منها شيئاً ، وذلك عندهم قبيح يعاب . فاذا نحروا الجزور الثانية وضربوا عليها بالقداح فخرج المسبل أخذ صاحبه ستة أجزاء منها الثلاثة التى بقيت من الجزور الأولى ولزمه الغرم فى

(١) هذا تصوير ثالث للعملية ويلاحظ أنه قدم تصويرين قبله

(٢) أى من هذه الصورة الثالثة

الجزور الأولى ، ولم يلزمه فى الثانية شىء . لأن قدحه قد فاز فيها ، وصار غرم الجزور الثانية على من لم يخرج قدحه على ما سبق من الحساب .

وبقى من الجزور الثانية سبعة أجزاء (١) يضرب عليها القداح من بقى ؛ فإن خرج النافس أخذ صاحبه خمسة أجزاء ، ولم يغرم شيئاً من ثمن الجزور ، ولزمه الغرم فى الأولى ، وبقى جزءان من اللحم وقد بقى من القداح ، الحلس ، وله أربعة أجزاء ، فاحتاجوا إلى نحر أخرى لتتم الأجزاء الأربعة . ولا يأكل من خاب من الجزور الثانية شيئا . فان نحروا الجزور الثالثة ، وفاز الحلس أخذ صاحبه أربعة أجزاء : منها جزءان من الثانية وجزءان من الثالثة ، ولم يغرم من ثمن الجزور الثانية (٢) شيئاً لأنه قد فاز ، وكان ثمنها على من خاب قدحه . وبقى من الجزور الثالثة ثمانية أجزاء فيضرب عليها بالقداح من بقى حتى تخرج قداحهم موافقة لأجزاء الجزور (٣) . فان كانت أجزاء اللحم موافقة لأجزاء القداح لم يحتاجوا إلى نحر شىء . فاذا أعاد من فاز قدحه مرة ثانية فخاب غرم من ثمن الجزور التى خاب قدحه فيها على هذا الحساب .

فإن فضل من أجزاء الجزور شىء وقد خرجت القداح كلها كانت الفاضلة لأهل الوَبَد من العشيرة ؛ وهم أهل الضعف ، وسوء الحال ، وشدة العيش » اه

***

فهذا بيان لا شك فيه ؛ كشف الغامض وأزاح الريب . فاذا استقر فى نفسك ولا أراه إلا مستقراً فإنى أعرض عليك رأيا فيما قاله صاحب الكشاف ومن تابعه من المفسرين ، ولكنه لا يتمشى معه إلا فى بعض النواحى دون الأخرى . فإذا جاز لنا أن نحذف من كلامه ونزيد فيه حتى يستقيم على طريقتنا ، ويطرد مع نهجنا فذلك ، وإلا فليبق على غموضه .

يمكن أن يستقيم كلام الزمخشرى إذا أخذنا بقوله : « إن الأجزاء ثمانية وعشرون » ، وتركنا قوله « أو عشرة » ، وإذا أضفنا إلى كلامه أن الأيسار عشرة لا سبعة .

---

(١) هذا الكلام تتميم للتصوير الثالث وكان قد قطعه باستطراده إلى حكم الأكل والغرامة.

(٢) قوله: الثانية خطأ، وصوابه: الثالثة، لأنه لم يربح إلا حين ضربوا عليها كما هو مفهوم.

(٣) يلاحظ أن الباقى من القداح هو الرقيب ، والتوءم ، والفذ ، ومجموعها ستة ، والباقى من الجزور ثمانية أجزاء ، فيفضل جزءان . فقوله : « حتى تخرج قداحهم موافقة لأجزاء الجزور » لا يتحقق فى هذه الحالة .

وعلى ذلك تكون الطريقة فى أجراء هذه الملهاة بالصورة الآتية :

يجتمع عشرة من الأيسار ويحضرون جزوراً يضمنون ثمنها لصاحبها ولا يعجلون له الدفع ؛ لأن الغارمين له لا يعرفون إلا بعد انتهاء العمل . ثم تجعل القداح العشرة فى الربابة ، وتجال وتجلجل إلى آخر الوصف المعروف ، ثم ينادى الحُرُضة على أحد الجالسين (ولا بد أن لهم ترتيباً يراعيه لاندرى ماهو . فيصح أن يكون على نسق جلوسهم فيأخذهم من اليمين أو الشمال مثلا أو على ترتيب أسنانهم أو أقدارهم) فينادى على أولهم ويخرج قدحا يكون هو نصيبه ، فإن خرج له قدح رابح عرف مقدار ربحه و بقى القدح خارج الربابة لا يعاد إليها ، ثم ينادى على الثانى ويخرج قدحا فيعرف مقدار ربحه ، ويكون له ، ولا يعاد كذلك إلى الربابة، ثم ينادى على الثالث ، ثم الرابع وهكذا إلى العشرة . ولا شك أن مجموع الأنصبة للقداح الرابحة هو ثمانية وعشرون نصيبا ، وهو مقابل لأجزاء الجزور الثمانية والعشرين ، فيأخذ كل رابح ماخرج له ، والثلاثة الباقون من العشره (وقد خرجت لهم القداح الثلاثة التى لا نصيب لها فى أثناء تلك العملية) هم الذين يغرمون ثمن الجزور فيقسم بينهم أثلاثا .

فأنت ترى أن هذه الطريقة ممكنة بالشروط التى ذكرناها ، ولكنها لا تواتينا مع جعل الأيسار سبعة ، ولا مع جعل الأجزاء عشرة ، ولا مع عودة اليسر إلى الخطار فى أثناء العملية ، كما جاز فى الطريقة الثانية التى شرحها الألوسى ؛ لأن قدحه اذا عاد بعد خروجه زاد مجموع الأنصبة على مجموع الأجزاء . وذلك غير متأت فى طريقة صاحب الكشاف . كذلك لا يتأتى فيها ما ذكر من أنهم قد يحتاجون الى ذبح جزور ثانية وثالثة إذا حصل عول كما صوره الألوسى . ونستطيع أن نستخلص مما تقدم أن هناك طريقتين : بسيطة وهى طريقة صاحب الكشاف تتم فيها العملية بجزور واحدة ولا عول فيها ، وطريقة مركبة عويصة لها صور شتى ، وتحتاج إلى حساب دقيق ، وهى الطريقة التى شرحها الألوسى من بين النقول التى عرضناها عليك .

وأخيراً نحمد الله الذى كشف لنا غامض هذا الأمر وهدانا فيه إلى مانرجو أن يكون صوابا بإذنه تعالى .

محمود مصطفى

حول إعجاز القرآن

٢

وضوح المعانى وائتلافها

بقلم السباعى السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم

على انتشار الغرابة فى كلام كثير من الفحول ، اختار القرآن كلماته ظاهرة المعنى واضحة المراد ، فوقعت مفهومة حتى لغير الخاصة من الدهماء . ولقد كانت اللفظة ترد فى ثناياه غير بارزة المعنى فى ذاتها للسواد فيشع عليها أسلوبه شعاعا يكشف عن معناها ، ويصوب اليها نوراً يبين من غرضها ومرماها ، فاذا هى كفلق الإصباح . وكثيرا ما كان يعدد الأسلوب من معانى اللفظة الواحدة تعديداً لايخرج على كثرته عن معناها الأصيل . خذ لذلك مثلا كلمة « الهدى » ، فقد جاءت فى قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم » بمعنى البيان . وفى قوله : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » بمعنى الإيمان . وفى قوله : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » بمعنى القرآن . وفى قوله : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » من الدعاء . وفى قوله : « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » من الإلهام . وفى قوله : « إن الله لا يهدى كيد الخائنين » من الإصلاح . إلى غير ذلك من معانيها التى قاربت العشرين . ومثلها فى ذلك كلمات كثيرة كالصلاة والرحمة ، والسوء والفتنة والروح والقضاء والذكر والدعاء وغيرها مما ورد متنوع المعانى باختلاف السياق على مثل تلك الكثرة أو يزيد .

وكما كان الأسلوب يسبغ على اللفظة الواحدة معانى تختلف باختلاف السياق ، كان يقبل من الكلمة الواحدة فى الموضع الواحد جملة معان يحتملها

التفسير دون أن تخرج فى أحدها عن صالح التفاسير . من ذلك قوله تعالى : « انفروا خفافاً وثقالا » فقد احتمل تفسيره شبانا وشيبا أو أغنياء وفقراء أو أعزابا ومتأهلين أو نشاطا وكسالى أو أصحاء ومرضى . وكل ذلك سائغ مقبول ، ومنه قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات » فقد قيل : الظالم : المضيع الواجبات المنتهك الحرمات . والمقتصد : فاعل الواجبات ، تارك الحرمات . والسابق : الذى يفضل المقتصد فيتقرب بالحسنات . وقيل : بل الظالم : مؤخر الصلاة إلى نهاية وقتها ، والمقتصد مصليها خلاله ، والسابق مؤديها أولا . وقيل : بل الظالم : مانع الزكاة ، والمقتصد : مؤتيها وحدها ، والسابق : الزائد عليها بالصدقة . وقد تختلف القراءة فى كلمة فتفسر على كل قراءة تفسيراً صالحا . ومن أمثلة هذا قوله تعالى : « لقالوا إنما سكّرت أبصارنا » فقد قرئ بتشديد سكّرت بمعنى سدت ، وقرئ بتخفيفها على معنى أخذت ؛ ومنه أيضا قوله تعالى : « سرابيلهم من قطران » فقد فسر على أن القطران كلمة واحدة لما تُهنأ به الإبل الجربى ، وعلى أنه كلمتان : إحداهما القطر ، أى النحاس ؛ والثانية آنٍ ، بمعنى ذائب من شدة الحرارة ، ولكن سهلت همزتها .

وعلى كثرة ما عرا التعقيد بنوعيه كلام الفصحاء والبلغاء فخفيت معانيه خفاء كبيرا لاضطراب التراكيب بتعقيد الألفاظ وخفاء أكبر منه لسوء التصوير ، لعدم استقامة التفكير ؛ حتى أصبح تلمسها عسيرا على الجهابذة المتبصرين ، كما هى شواهد ذلك فى كتب البلاغة حيث مواطن النقد والمحاكمات — على كثرة ذلك قد سلم القرآن من نوعى التعقيد على طوله المديد ، وعلى كثرة ما عالج من معان جاوزت فى عددها عدد الآيات البالغ ستة الآلاف ويزيد ، فكان فى كل غرض قصد إليه مستقيم التركيب ، عذب الأسلوب ، واضح المعنى ، صادق التفكير . وهذا حكم يصدق على جميع القرآن من حيث سلامة التراكيب دون استثناء ، وعلى معانيه من حيث الوضوح إلا ما أتى متشابها لحكمة كما سيأتى .

ولقد راعى القرآن فى معانيه الجزئية فوق ما تقدم من صحة ووضوح

وجودَ الروابط والصلات بين كل طائفة يجمع بينها معنى عام ، حتى أصبح التلاؤم شديدا ، والانسجام بيّنا ؛ وصارت أغلب سُوَره تتصل خواتيمها بفواتيحها اتصال تناسب ، أو اتحاد فى حسن ابتداء ، وجمال انتهاء ، ضامّة بينها كلاً متعاشقَ الأجزاء يرمى إلى غرض واحد ، أو إلى أغراض فيها ـ على تعددها ـ تناسب وائتلاف ، وهذا شىء واضح للعيان .

فمن الربط بين الفواتيح والخواتيم ما نراه فى سورة الحشر من تسبيح ، وفى سورة الممتحنة من نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ، وهما من السور القصار ؛ وما نراه فى سورة النحل من ذكر القرآن ، وفى سورة الأحزاب من ذكر الكافرين والمنافقين والمشركين ، والسورتان متوسطتان ؛ ثم ما نراه فى سورة البقرة عن الإيمان ، وفى سورة آل عمران عن الكتاب وأهل الكتاب ، وهما من السور الطوال .

وعليك أيها القارىء الرجوع إلى هذه الآيات ؛ لترى فيها وجه ما نقول ، والرجوع إلى غيرها متتبعا أوجه الاتحاد . أمّا التماسُ الربط بين الفواتيح والخواتيم عن طريق التناسب ، فهو يتناول معظم القرآن ، ولذا آثرنا التمثيل للاتحاد دونه ، فارجع إليه فإنه سهل المنال .

وقد بلغ القرآن فى التناسب ، بين ما تضمنت كل سورة من آيات ، درجة الإعجاز ، إذ جاءت كل آية تابعة ماقبلها ، متبوعة بما بعدها ، على اختلاف هذه التبعية على وجوه :

فمنها مايظهر فيه الارتباط بين الآية اللاحقة والآية السابقة من حيث تعلق الكلم بعضه ببعض ، لعدم تمام السابق من غير اللاحق ، أو لتمامه بدونه ، ولكن مع وقوع اللاحق من السابق موقعَ التأكيد أو البدل أو البيان أو الاعتراض ، وهذا كثير جدا لا يحتاج الوقوف على التناسب فيه إلى تفكير .

ومنها مايكاد يظهر فيه كل من السابق واللاحق بمظهر المستقل ، ولكن قليلا من التدبر يكشف عن جهة جامعة بينهما من أنواع العلاقات ؛ ولهذا كان من عادة

القرآن ذكر الرحمة بعد العذاب ، وذكر الرغبة بعد الرهبة ، وذكر الوعد بعد الوعيد ، أو التوحيد والتنزيه بعد الأحكام ؛ ليكون ذلك باعثا على العمل ، أو مبيّنا عظم أمر النهى ، كما كان من عادته أن يخرج من شىء إلى شىء لمناسبة تسمح بهذا الخروج ؛ ثم تارة يعود إلى ما كان فيه . فيسمى ما خرج إليه حينئذ استطرادا ؛ وتارة لا يعود فيسمى انتقالا .

مثال الأول : خروجه فى قصة إبراهيم فى سورة الشعراء ـ وكان الحديث قبلها فى قصة موسى - إلى وصف المعاد عقب قوله على لسان إبراهيم : « ولاَ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ » إلى آخر ما ذكر فى وصف اليوم ؛ فإنه عاد بعده إلى قصص الأنبياء بالدخول فى قصة نوح ، وهذا هو الاستطراد .

ومثال الثانى : خروجه فى سورة « ص » ـ حيث كان حديث الأنبياء ـ إلى ذكر المتقين بقوله : « هذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآب » فإنه أنهى السورة دون أن يعود إلى ذكر الأنبياء ، وهذا هو الخروج .

وقد تخفى المناسبة فى الظاهر فى بعض الآيات ، فتحتاج فى تلمسها إلى فضل علم بأسباب التنزيل ، ومن أمثلة ذلك — وهى قليلة — قوله تعالى : « لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ؛ إنّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاه فاتبِعْ قُرْآنَه ، ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بيَانَه » . فإن هذه الآية وردت فى « سورة القيامة » بين أوصاف اليوم الآخر ، الذى خلصت له السورة ، ولكن السبب فى وجودها يرجع إلى أسرار التنزيل ؛ فقد حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه ما أنزل من أول السورة إلى قوله تعالى : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَه » بادر إلى حفظه متعجلا فحرك لسانه ؛ ولما كان فى هذا انشغال له عما هو نازل من سائر السورة ، لفته المولى سبحانه بهذه الآية ، ثم عاد إلى تكملة ما بدأ به . وفى الآية مناسبات أخر ذكرها المفسرون ، ولكنى فضلت عليها ما ذكرت ، كما فضلت التمثيل بهذه الآية من هذا النوع على غيرها ، لأنها أبعدها فى ظاهرها تعلقا بما حوالها .

وكما تختفى المناسبة فى الظاهر ، وهى موجودة ، فتكون الآية محل كلام فى تلمس

المناسبات ، كذلك قد تظهر بعض الآيات بمظهر الاختلاف ولا اختلاف . من هذا ما ذكره سبحانه عمّا خلق منه آدم ، فقد جعله التراب والطين والحمأ والصلصال فى كثير من الآيات ، فأشعر ذلك بالمخالفة فى ظاهره ، ولكن لا خلاف ؛ لأن مرجع هذه الأشياء كلها إلى جوهر واحد تشكلت منه هو التراب . ومنه قوله تعالى : « فاتقُوا الله ما استَطَعتُمْ » مع قوله : « اتقُوا الله حقَّ تُقَاته » . ووجه عدم المخالفة أن الآية الأولى للأعمال والثانية للعقائد . وكذا قوله : « فإنْ خِفتُمْ ألاَّ تَعدِلُوا فوَاحِدَةً » مع قوله : « ولنْ تَستَطِيعوا أنْ تَعدِلوا بينَ النِّساء ولَوْ حرَصتُمْ » . فإن الأولى فى توفية الحقوق ، والثانية فى ميل القلوب . ومن أمثلة هذا النوع فى الموضع الواحد قوله تعالى : « قُلْ أئِنَّكم لَتَكْفرُون بالذى خَلَقَ الأرضَ فى يَوْمَيْن » إلى قوله : « ذَلِكَ تَقدِيرُ العَزِيزِ العلِيم » . فإن ظاهرها يقتضى أن خلق الأرض والسماء استغرق ثمانية أيام ، وهذا ينافى المُجمَع عليه والمصرّح به فى كثير من الآيات من أنها ستة ، ولكن المتدبر هنا يرى أن اليومين الأولين الخاصين بخلق الأرض داخلان فى الأربعة بعدهما ، إذ كان جَعْل الرواسى وتقدير الأقوات فى يومين أتماهما أربعة ؛ ثم كان خلق السموات فى يومين ثالثين ، أكملا سالفيهما ستة كما هو المعروف . وهناك آيات أخر من هذا النوع لا يخفى التوجيه فيها على ذوى البصائر والعقول ؛ أما الاختلاف بمعنى التناقض فلا وجود له البتة فى القرآن .

تلك كلمة أسلفناها عن معانى القرآن فى صدقها ووضوحها وتلاؤمها وعدم اختلافها ، وإنه لمن الضرورى ـ وقد امتد بنا الحديث هذا الامتداد ـ أن نشفعها كما وعدنا بأخرى موجزة عن مبهمات القرآن ومتشابهاته ، لما لهما من المساس بالموضوع .

فأما المبهمات ، فنقصد بها الآيات ذوات الحاجة إلى إيضاح ، وهى نوعان :

نوع فسره القرآن في موضع غير موضعه ، كقوله تعالى : « صِرَاطَ الذينَ أنعَمْتَ عليهم » . فإنه بيّن هؤلاء فى آية أخرى هى قوله : « فأولَئِكَ مَعَ الذين أنعَمَ اللهُ عَلَيْهم من النبيّين والصدّيقين والشهَداء والصالحين » ، وكقوله : « وإذا بُشِّر أحدُهم بما ضَرَبَ للرحمٰن مَثَلاً » . فقد فسره بقوله : « وإذا بُشِّر أحدُهم

بالأنثى »، وكقوله : « أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعامِ إلا ما يُتْلَى عَلَيْكُم »، فإنه مفسَّر بقوله : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَة » . . . الآية .

ونوع ترك تفسيره لأسباب ظاهرة ، منها : اشتهاره نحو : « اسْكُنْ أنتَ وزوجكَ الجَنَّة » . فمعروف أنها حواء ؛ ومنها : التستّر عليه نحو : « ومِنَ النَّاسِ منْ يُعْجِبُكَ قوْلُهُ فى الحيوٰة الدُّنيا ويُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وهُوَ أَلَدُّ الخِصَام » . فقد نزلت فى الأخنس بن شُرَيْق ، ولم يذكر الله اسمه تستراً عليه ، لمّا علم من أنه سيُسلم ويحُسن إسلامه ؛ ومنها : ألا يكون فى ذكره فائدة ، كما فى قوله : « أوْ كَالَّذِى مَرَّ على قَرْيَة » . إذ الغرض مطلق التمثيل ؛ ومنها : سوقه مساق العموم . وإن كان فى الأصل خاصاً ، كما فى قوله عن ضُمرة بن جُنْدُب : « ومَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مهاجراً إلى اللهِ ورَسُولِه ثُمَّ يُدْرِكه الموتُ فَقَدْ وَقَعَ أجرُه على الله » ؛ ومنها : تعظيمهُ بذكر الوَصف دون الاسم ، كما فى قوله : « والَّذِى جَاءَ بالصِّدْق وَصَدَّقَ بِهِ » ، يقصد النبيّ وأبا بكر ؛ إلى غير ذلك من الأسباب .

وأمّا المتشابهات فهي ما استأثر الله تعالى بعلمها ؛ إذ ليس فى قدرة العقول الوصول إلى حقائقها ، ولعله لاشيء منها فى القرآن إلا الحروف المبدوء بها بعض السور ، والحكمة الحقة فى وجودها لاتعدو اختبار العباد فى درجات الإيمان : فإن من لم ترسخ عقائدهم يقفون عندها وقفة الزيغ والإلحاد ، كما ذكر الله تعالى ذلك صريحاً بقوله : « هُوَ الَّذِى أنزَلَ عليكَ الكتابَ مِنْهُ آيات مُحْكَمات هُنَّ أمُّ الكِتاب وأُخَرُ مُتَشابِهات فَأمَّا الَّذِين فى قُلُوبِهِم زَيْغ فيتَّبعونَ ما تَشابهَ مِنه ابتغاءَ الفِتْنَةِ وَابتغاء تأويله ، ومَا يَعْلَمُ تأويلَه إلا الله . والراسخونَ فى العلم يَقُولونَ آمنا به كلٌّ مِنْ عند ربنا ومَا يذَّكر إلا أولو الألباب » . إذ الصدق أن الوقف فى هذه الآية على لفظ الجلالة ، والكلام بعده ابتداء . أما القول بالعطف الذى يجعل الراسخين فى العلم من العالمين بالتأويل فغير وجيه ؛ لأن من قالوا به — فضلا على تركهم جملة « يقولون » قلقة نابية — لم يصلوا إلى مقنع فى التأويل .

وهذا طرف مما يقولون فى هذه الحروف : فبعضهم يجعلها مأخوذة حرفاً حرفاً من مبادئ أسماء الله تعالى ، أو من مبادىء جمل ينسبها سبحانه إلى

نفسه ، على أن ذلك اختزال ؛ وبعضهم يجعلها من أسماء الله سبحانه وتعالى أو أسماء للسور ؛ وبعضهم يقول إنها مركبة على حساب جمل الأعداد لأشياء موقوتة فى علم الله . وكل هذه أقوال لاغناء فيها كما ترى ، إذ لم تنته إلى معنى معروف .

وأخيراً هناك رأى لا بأس من إيراده ، هو قول من يقولون : إنها حروف ذكرت سرداً ، إعلاماً للعرب ومن بعدهم ، بتركيب القرآن - الذى أعجزهم - من هذه الحروف المعروفة لهم ؛ ولذلك كثر ذكر الكتاب بعد هذه المبادىء ، ثم يذكرون فى سبب المخالفة بينها شيئاً يهدى إليه الاستقراء ، هو دوران الحروف التى بدئت بها سورة ما فى كلماتها بنسبة ليست لغيرها فى تلك السورة ، ولا لها نفسها فى سورة لم تبدأ بها . على أن أصحاب هذا الرأى قد ظفروا عن طريق الاستقراء أيضاً بأشياء غاية فى العجب ، إذ وجدوا مثلا أن السور التى بدئت بالحروف ثمان وعشرون ، بعدد حروف الهجاء ، وأن الحروف التى دارت فيها نصف تلك الحروف ، وأنها مشت على هذه المناصفة فى تقاسيم كثيرة للحروف معروفة عند القراء . ففيها نصف الحروف المهموسة ونصف المجهورة ، وفيها نصف الحروف الشديدة ونصف الرخوة ، وفيها نصف الحروف الحلقية ونصف الحروف المطبقة ، وهكذا .

إلى هذا الحد وصلت البحوث فى المتشابهات دون جدوى . وعندى أن الوصول إلى معانيها ينافى الحكمة فى وجودها ، إذ رأيى فى تفسير آيتها هو ما أثبت آنفاً من أن علمها الحق عند الله وحده ، علام الغيوب .

السباعى بيومى

بين اللفظ والمعنى

بقلم أحمد الشايب

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

(١)

لسنا نريد فى هذه الكلمة السريعة أن نحيط بجميع ما كتبه نقاد العرب عن اللفظ والمعنى، وقيمة كل منهما فى درجة الفن الأدبى وجماله، كلا. ولسنا نحاول الإلمام الإجمالى بشىء من ذلك، إذ كان متناثراً فى ثنايا الكتب والسطور مضطربا لا يخضع لوحدة موضوعية أو أسلوبية. وذلك كله يحتاج إلى بحث خاص يجمع شتاته، ويسلكه فى نظام علمي حديث لا تتسع له صفحات هذه الصحيفة العتيدة. ولكنا نحب أن نقف هنا وقفة الطائر على رأيين واضحين، عرض لهما اثنان من رجال البلاغة والنقد الأدبى قديماً، هما ابن قتيبة أبو محمد عبدالله ابن مسلم المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فى كتابه « الشعر والشعراء »؛ ثم الإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ فى « أسرار البلاغة ». وهذان الرأيان قد اختلفا فى نقطة خطيرة جد الخطورة، من حيث اتصالهما بعناصر الأدب، وقيمة كل عنصر من الناحية الفنية. ثم طريقة فهم الأدب وردّه إلى نواحى جودته عند العرب القدماء، وعند الفرنجة المعاصرين.

(٢)

يقول ابن قتيبة فى مقدمة كتابه: « تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: ضرب حسن لفظه وجاد معناه، كقول القائل:

فى كفه خَيزران ريحه عبق من كف أرْوَعَ فى عِرنينه شَممُ

يغضى حياء ويغضَى من مَهابته فما يُكلَّمُ إلا حين يبتسم

لم يقل أحد فى الهيبة أحسنَ منه .

وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا ، كقول القائل :

ولما قضينا من منى كلَّ حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسحُ

وشُدَّت على حُدْب المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

وهذه الألفاظ أحسن شىء مطالعَ ومخارجَ ومقاطعَ ، فإذا نظرت إلى ما تحتها وجدته : ولما قضينا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح . وهذا الصنف فى الشعر كثير ، ونحو منه قول جرير :

إن الذين غدَوا بلبّك غادروا وَشَلاً بعينك لا يزال مَعينا

غَيَّضْنَ من عبراتهن ، وقلن لى : ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟ »

إلى آخر ما أورد فى مقدمته هذه من الأضرب والأمثلة .

ويجب أن نقف هنا قليلا لنسجّل على ابن قتيبة أنه أرجع الشعر إلى عنصرين أو ركنين اثنين : اللفظ والمعنى ، وأنه جعل المعنى قسيما للفظ يتناول ماسواه مما يفهمه الإنسان أو يشعر به حين يقرأ الشعر ، أو بالأحرى حين يقرأ الأدب ، إذ كان الشعر هو الفن الأدبى الممتاز . ثم نعود فنسأله هذا السؤال الذى لا ننتظر الإجابة عنه الآن : أهناك حقا فرق يتصل بعناصر الأدب بين مثاله للضرب الأول ومثاله للضرب الثانى ؟

(٣)

فلما جاء الجرجانى ظهرت فى كتابيه : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » قوة عنيفة فى مناقشة الأقدمين ، تنتهى هذه القوة إلى رأى خطير : هو أن البلاغة أو القيمة الفنية فى الأدب ، ترجع إلى تكوين الألفاظ على وفق المعانى ، وما

تقتضيه هذه من نظام وتعبير ؛ وذلك هو ما يسمى عند النقاد المحدثين بالأسلوب « Style » . ولما عرض لشرح هذه الأبيات السابقة - أو بعبارة دقيقة لتحليلها إلى عناصرها الأدبية - على هذا الأساس الذى شرحه فى كتابيه شرحاً شافيا ، رأيناه يختلف عن ابن قتيبة اختلافا واضحاً وخطيراً . وكأنه يرد بذلك على ابن قتيبة وأضرابه ممن يمسخون الشعر ، ويعقونه حين يفسرونه تفسيراً سقيما مسلوب الروح ، يحيا فقط بهيكل عظمى جردته الجهالة الفنية من أعصابه وعضلاته ، إذ يقول الجرجانى :

« وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال :

* ولما قضينا من منى كل حاجة *

فعبّر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم . ثم نبه بقوله :

* ومسح الأركان من هو ماسح *

على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ؛ ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر . ثم قال :

* أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا *

فوصل بذكر مسح الأركان ماوليه من زم الركاب وركوب الركبان . ثم دل بلفظة الأطراف على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول ، وشجون الحديث ، أو ماهو عادة المتظرفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء . وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه ألفة الأصحاب ، وأنسة الأحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ، ورجا حسن الإياب ، وتنسم روائح الأحبة والأوطان ، واستماع التهانى والتحايا من الخلان والإخوان . ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق بها مفصل التشبيه . وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحى والتنبيه ، فصرح أولا بما أومأ إليه فى الأخذ بأطراف الأحاديث ، من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ،

وفى حالة التوجه إلى المنازل . ثم قال : « بأعناق المطى » ولم يقل بالمطى ، لأن السرعة والبطء يظهران فى أعناقها . . . . الخ (١) » .

فاذا أردنا فهم كلام الجرجانى بما تقتضيه قوانين النقد الحديث ، ثم وازنا بينه وبين ابن قتيبة فيما يريدان من كلمة « المعنى » استطعنا أن ندون النتائج الآتية : —

أولها — أن عبد القاهر الجرجانى فهم من كلمة المعنى أموراً أخرى لم يفطن لها ابن قتيبة ومن لف لفه ، إذ أن الجرجانى أخذ يذكر لنا أنواعاً من الكناية والاستعارة والتشبيه والمجاز ، هى فى الواقع صور شتى لقوة المعنى وجماله ، كما يعرف ذلك من له إلمام بالفنون البيانية فى علم البلاغة العربية ، وهذه الصور هى فى الواقع عنصر أدبى قيم ، يسمى فى النقد الحديث : عنصر الخيال « Imagination » .

ثانيها — أن الجرجانى أشار كذلك إلى هذا الشعور الذى ملك نفس الشاعر حين تصور الحاجّ عائدين إلى أوطانهم بعد قضاء المناسك : فرحين راجين المثوبة وحسن العقبى . وهذا الشعور القوى أثار فى نفس الشاعر روعة صورها فى شعره حتى إذا قرأه الجرجانى انتقل هذا الشعور إلى نفسه فولد فيها عاطفة تشبه عاطفة الشاعر نفسه ، وهذه العاطفة عنصر أدبى هام فى الأدب يسمى عند الانجليز : « Emotion » أى انفعال أو عاطفة .

ثالثها — أن ابن قتيبة وقف فى شرحه الأبيات عند المعنى الحرفى ، أو الفكرة الأولى التى تعد أهون مافى الشعر من معنى ، وأدنى مايؤديه من غاية ، وليس من شك عندى أن الجرجانى يعرف هذا أيضاً ، ولكنه عزف عنه ساخراً منه ، إذ كان شيئاً ثانوياً غير مقصود فى فن الشعر ، إلاّ على أنه هيكل عظمى أو حجارة يعلوها النقش والتصوير .

رابعها — أنه يظهر لنا أن ابن قتيبة لم يوضح ، أو لم يتضح فى ذهنه ، ما هو مقصود بالمعنى عند الأقدمين أنفسهم ، بدليل الأمثلة التى أوردها للضرب الذى

(١) أسرار البلاغة (ص ١٤ — ١٧) طبعة المنار .

جاد معناه وقصر لفظه ، فبينا نراه يريد من المعنى الجيد حكمة أو حقيقة كقول لبيد :

ما عاتب الحرَّ الكريمَ كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالحُ

إذ نراه يريد من المعنى الجيد تشبيها سديداً محكما كقول الفرزدق :

والشَّيْبُ ينهض فى الشباب كأنه ليــــل يصيح بجانبيه نهارُ .

فما الرأى فى ذلك كله ؟

(٤)

يظهر أننا لانستطيع الفصل فى هذا الخلاف ، ووضع الأمر فى نصابه العلمى والفنى معا ، دون أن نوضح شيئا من هذه الأصول النقدية الحديثة ، التى تتصل بموضوع اللفظ والمعنى ، وهذه الأصول ليست فى الغالب شيئاً غريباً على قراء النقد العربى القديم ، إلا من حيث هذه المصطلحات التى تواضع عليها النقادالمحدثون فى الأمم الغربية .

يقوم النقد الحديث على أن للأدب عناصر أربعة ، يمكن أن ينحلَّ إليها النص الأدبى . وليس من شك أن هذه العناصر تختلف قيمتها ودرجتها باختلاف النصوص ، مما دعا النقاد أن يضعوا لكل عنصر منها مقاييسه النقدية المعروفة ، فإذا نحن قرأنا للبحترى قوله :

شواجر أرماح ، تقطع بينها شواجرُ أرحامٍ ، ملوم قطوعُها

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

استطعنا أول كل شيء أن نشعر بالحسرة التى سيطرت على نفس البحترى حين أنشأ هذا الشعر ، وهى الحسرة على شقاق يقع بين الأقارب ، قد يعقب الندامة والأسى ، وهذه الحسرة هى التى تسمى العاطفة « Emotion » . وهذا العنصر يعد أهم عنصر أدبى .

وهذا العنصر نفسه إنما أثاره فى نفوسنا هذه الأرماح المشتجرة التى تمزق الأرحام ، ثم هذه الدماء تسيل فى الحروب : ثم الدموع تفيض ندامة . وهذه الوسائل التى ذكرنا تسمى عنصر الخيال « Imagination » وهو القائم فى الأدب

العربى على الفنون البيانية ، وبعض الفنون البديعية كذلك ، ولكن هذه العاطفة لاتثار فى النفس إلا من حقيقة واقعة خارجية تطرأ على الشاعر ، أو داخلية ناشئة عن تفكير مباشر ، وهي هنا : أن قتالا وقع بين حيين متقاربين من شأنه أن يولد العداوة والبغضاء ، فهذا العنصر يسمى الفكرة « Thought » أو الحقيقية وهو الذى يسميه ابن قتيبة « المعنى » حين يعرض لشرح الشعر .

وأخيراً هذه العبارات اللفظية التى تسمى اللفظ عند قدمائنا ، والتى تسمى عند الفرنجة أحياناً « Diction » أى العبارة وقد تسمى الصورة « Form » أو الاسلوب « Style »

هـذه هى العناصر الرئيسية الأربعة التى ينحل إليها الأدب فى رأى النقد الحديث ، وليس يفرق النقد فى قيمتها من حيث تعاونها جميعاً فى التأثير الأدبى ، وإن كان العنصر اللفظى وسيلة لنقل المعنى وتصويره ، إلا أنه لاينقص فى درجته عن سائر إخوته . ومن هنا ترى أن كلمة المعنى عند الجرجانى مثلا تقابل كلا من العاطفة والفكرة والخيال عند المحدثين من النقاد .

(٥)

فإذا اتخذنا هـذا الأصل الحديث مقياسا لنقد رأيَى هذين الإمامين والفصل بينهما فى هـذا الموضوع الخلافى ، كان من المعقول إنصافا لهما وللحق التاريخى والفنى أن نقر ما يلى :

(١) يقف ابن قتيبة فى فهم المعنى عند الحقيقة الساذجة ، أو المفهوم الحرفى للشعر ؛ وهذا يعد فى النقد تصورا معيبا فى فهم الشعر وسَلْبِه ألزم خواصه الأدبية ، ولا سيما إذا كان هـذا القصور يمس ناحية العاطفة ، التى هى العنصر الأول فى الأدب عامة ، وفى الشعر خاصة . وهذا هو مايفرق بين الأدب والعلم ، إذ كانت الحقائق فيه أهم الأركان وأولاها بالاعتبار .

(٢) لم يكن ابن قتيبة دقيقا فيما ذكره فارقا بين الضرب الأول والثانى ، لأن أبيات الهيبة لا تحتوى شيئا من الحقائق الداخلة فى باب الحكمة مثلا ، وإنما هى أوصاف تنتهى إلى عاطفة الهيبة والاحترام ، وكذا الشأن فى وصف الشيب

للفرزدق ، إذ ينتهى إلى إعجاب بهذه الصورة الحسية التصويرية ليس غير ، وهو داخل عنده فى باب المعنى الجيد .

فإذا انتقلنا إلى هذا المثال الثانى الذى كان مثار النزاع بينه وبين الجرجانى وجدناه يجمع إلى جمال اللفظ ، وحسن الخيال ، ورقة العاطفة فكرة — أومعنى — كأبيات الهيبة والشيب التى عدّها مثالا لجودة المعنى ؛ فهل هناك فرق بين مثاليه للضرب الأول والثانى ؟ !

(٣) ومع ذلك فإذا وقفنا مع ابن قتيبة عند هذا البيت :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

الذى يقول فيه : « هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق » وجدنا أن قلة الماء والرونق — التى معناها فى التعبير الحديث ضعف جمال الأسلوب — ناشئة فى الأصل عن هذا المعنى الذى يعتز به ، إذ هذا المعنى حكمة من الحكم التعليمية ، وهذه الحكمة التعليمية تجعل الشعر أقرب إلى النظم ، وتسلبه شيئا من صدق الشعور القوى ، وهذا الشعور له دخل كبير ، بل هو السبب الأول فى جمال الأسلوب . على أن صلة الحقائق والحكم بالشعر لها حد دقيق فى فن النقد لا نحب الإطالة فيه ، وإن كان هذا لا يمنعنا أن نشير هنا إلى أن هذه الحقائق إنما تدخل الشعر لتخدم العاطفة ، وتبعث فيها حياة تعينها على الخلود .

(٤) هذا القصور الذى شهدناه عند ابن قتيبة قد برىء منه الجرجانى ، واستطاع فى درسه هذه الأبيات — أبيات الحج — أن يظفر بما فيها من مناحى الجمال الفنى وأن يستخرج منها أسباب هذا الجمال ، أو بعبارة حديثة ، استطاع الجرجانى فى حدود معارف عصره أن يحلل هذه الأبيات إلى عناصرها الأدبية : من فكرة وعاطفة ، ولفظ وخيال ، وليس من شك أننا نوافقه على ما رأى من غير تحفظ كما يقول المحدثون .

(٥) والنتيجة التى نصل إليها من هذا البحث السريع هى أن كلا من اللفظ والمعنى له قيمته فى جمال الأدب ، وأن اللفظ فى الأدب يقابل ألحان الموسيقى وألوان التصوير ، فكما أن جودة الصورة وجمالها ، وتناسق الدور الموسيقى وتأثيره

إنما تكون باختيار الألوان وتناسبها، وتأليف الألحان وحسن تركيبها، كذلك الشأن فى العنصر اللفظى فى باب الأدب، على أن هناك مسألة دقيقة يجب أن يلتفت إليها النقاد والمنشئون: هى أن جمال الأسلوب وقوته ووضوحه، إن هى إلا صفات للمعنى قبل أن تكون للفظ، وإطلاقها على اللفظ يعدّ من باب المجاز، بل هناك ماهو أبعد من ذلك، فإن الباحثين ينتهون إلى أن هذه الصفات تعود إلى نفس المنشئ كاتبا أو شاعرا. فالوضوح فى الأصل ليس إلا وضوح المعنى فى ذهن الكاتب، والقوة ناشئة عن قوة شعوره، وأما جمال الأسلوب فصورة لذوقه الجميل.

* * *

وقبل أن أترك القلم أحب خالصا مخلصا أن ألفت نظر الذين يدرسون هذه الكتب القديمة إلى أن يحرصوا على ما يوجد بها من ذخائر نفيسة، وأن يجتهدوا لعلهم يرون فيها كثيرا من هذه الأساليب والقوانين العلمية والفنية الحديثة. ولا يغضبهم أن يعثروا بها متفرقة مضطربة. فإن ذلك من طبائع الرقى الاجتماعى والعلمى، وإذا فلست شاذا عن هذا القانون إذا رأيت الجرجانى فى القرن الخامس الهجرى يتحدث عن عناصر الأدب كما يتحدث عنها نقاد القرن العشرين؟

احمد الشايب

اتجاهات الأدب

وأهم حواضره فى العصر العباسى (١)

بقلم محمود البشبيشى
المدرس بدار العلوم

٢

لقد ظلت (بغداد) ضنينة بمكانتها العلمية والأدبية متشبثة بأهدابها ، حتى بعد غلبة الترك والديلم على خلفائها ، ويرجع ذلك إلى عوامل عدة ، منها وجود بعض الوزراء والعظماء الذين استوطنوها ، وكانت لهم مشاركة فى العلم والأدب ، وسابقة فضل فيها ، وحدب على المشتغلين بهما .

ومن أولئك (الوزير المهلبى)

وهو الحسن بن هارون ، ينتهى نسبه إلى المهلب بن أبى صفرة وزر لأحمد بن بويه الديلمى سنة ٣٣٩ هـ . وكان وزيرا عفيفا ، حسن التصرف ، ذائع المكارم ، جم الفضائل ، محبا للعلم والأدب ، قال أبو إسحاق الصابى (من كبار الكتاب فى الدولة العباسية) مشيرا إلى ماعرف به ذلك الوزير من الزهد والنسك وتقدير نعمة الله عليه :

نعم الله كالوحوش فما تأ (م) لف الا الأكابر النساكا
نفرتها آثام قوم وصير (م) ت لها البر والتقى أشراكا

كان الوزير المهلبى قبل الوزارة رهين معيشة ضنك ، جواب آفاق ، على طريقة فقراء الصوفية حدث عنه « أبو على الصوفى » فقال :

كنت معه فى بعض أوقاته أماشيه ، فضجر لضيق حاله وقال :

ألا موت يباع فأشتريه ؟ فهذا العيش مالا خير فيه !

---

(١) راجع المقال الأول (ص٣٩–٤٥) من العدد الأول من السنة الثانية من الصحيفة.

ألا رحم المهيمن نفس حر   تصدق بالوفاة على أخيه

ثم تصرف الدهر بما يرضيه ، فدخلت البصرة واجتزت « بسر من رأى » وإذا أنا بناشطيات وحراقات وزيارب وطيارات ! فى عدة وعدد ، فسألت لمن هذا ؟ فقيل للوزير المهلبى ، ونعتوا لى صاحبى فوصلت إليه حتى رأيته ، فكتبت اليه رقعة ، وتوصلت حتى دخلت ، فسلمت وجلست حتى خلا مجلسه ، فدفعت اليه الرقعة وفيها :

ألا قل للوزير بلا احتشام   مقال مذكر ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضيق عيش :   ألا موت يباع فأشتريه

فنظر إلى وقال نعم ، ثم نهض معى إلى مجلس الأنس ، وجعل يذاكرنى ما مضى ثم أقبل ثلاثة من الغلمان ، على رأس احدهم ثلاث بِدَر ، ومع الآخر تخوت وثياب ، ومع الثالث طيب وبخور ، وأقبلت بغلة رائعة بسرج ثقيل ، فقال يا أبا على : تفضل بقبول هذا ، ولا تتخلف عن حاجة تعرض لك ، فشكرته وانصرفت ، فلما هممت بالخروج أنشدنى على البديهة :

رق الزمان لفاقتى   ورثى لطول تحرقى
وأنالنى ما أرتجى   وأجار مما أتقى
فلأغفرن له الكثير من الذنوب السبَّق
إلا جنايته التى   فعل المشيب بمفرقى

وللوزير المهلبى شعر حسن ، مركّب بعضه . ومن كلامه فى الغزل ولوعة الفراق :

قال لى من أُحبّ والبين قد جدّ   م وفى مهجتى لهيب الحريق
ما الذى فى الطريق تصنع بعدى ؟   قلت أبكى عليك طول الطريق

وقال فى الوصف والتهكم بمملوك تركى قلده (معز الدولة ابن بويه) إمارة جيش لحرب بنى حمدان ورأى فيه المهلبى عدم الكفاية لهذه المهمة :

طفل يرق الماء فى   وجناته ويدق عوده
ويكاد من شبه العذا   رَى فيه أن تبدو نهوده
جعلوه قائد عسكر   ضاع الرعيل ومن يقوده !

ومن رقيق شعره فى الغزل :

تصارمت الأجفان لما صرمتنى فما تلتقى إلا على عبرة تجرى

وكانت وفاته عام ٣٥٢ هـ فمات بموته خير كثير ، ورثاه أبو عبد الله الحسين ابن الحجاج فقال :

يا معشر الشعراء ، دعوة موجَع لا يرتجى فرج السلو لديهِ
عزوا القوافى بالوزير فإنها تبكى ، وما بعد الدموع عليهِ
مات الذى أمسى الثناء رداءه والعفو عفو الله بين يديه
هدم الزمان بموته الحصنَ الذى كنا نفر من الزمان إليه
فليعلمن بنو بويهِ أنه فجعت به أيام آل بويهِ

بمثل هذا الوزير حفظت للعربية بهجتها ، وللآداب بشاشتها ، وإن تقلص عن (بغداد) نفوذ السادة من بنى العباس ، ولقد جرى على سنة المهلبى فى حب العلم والأدب وزير آخر لآل بويه هو بهاء الدولة « سابور بن أزدشير » كان من أكابر الوزراء ذا كفاية ودراية . وكان بابه محط رحال الشعراء . عقد «أبو منصور الثعالبى » فى « يتيمة الدهر » باباً مستقلا لمدائح الشعراء التى قيلت فيه . فمن ذلك قول أبى الفرج الببغاء المتوفى سنة (٣٩٨) :

لمت الزمان على تأخير مُطَّلَبى فقال : ما وجهُ لومى وهو محظورُ
فقلت لو شئت مافات الغنى أملى فقال أخطأت ، بل لو شاء (سابور)
لذ بالوزير أبى نصر ، وسل شططا أسرف فإنك فى الإسراف معذور
وقد تقبلت هذا النصح من زمنى والنصح حتى من الأعداء مشكور

ومن عناية هذا الوزير بأمر العلم أنه أنشأ فى (الكرخ) خزانة كتب حافلة ، جمعت ما كتب بخطوط الأئمة ، من المؤلفات النادرة القيمة ، وكانت وفاته سنة ٣٣٦ هـ

وممن عنوا بنصرة الأدب فى عهد السلاجقة الوزير (نظام الملك الغازى وزير ملك شاه السلجوقى) أنشأ المدرسة النظامية ببغداد وحبس عليها كل سنة خمسة عشر الف دينار ، وكان بها ستة آلاف متعلم يتناولون الطعام ، وأجرى على مدرسيها الأرزاق الكافية ، وحاطها بكل ضروب العناية ، وتخرج فيها كثير من أفاضل العلماء والأدباء .

وبعد فلئن استطاعت (بغداد) أن تتشبث بعظمتها الأدبية فى تلك الآونة التى وهنت فيها حبال الخلافة ، لقد أعانها على ذلك ما انبث فيها من ديار العلم والحكمة ، وأندية أولئك الوزراء والعظماء المشغوفين بالأدب ، وما خلعه الدهر عليها من ثياب المجد والعراقة ، حتى ما برحت تهوى إليها أفئدة الشعراء والأدباء والعلماء ، وإن تناثرت حولها حواضر الأوطان السياسية التى نشأت فى الدولة شرقا وغربا ، بضعف الخلفاء وتحكم الأتراك فيهم منذ أواسط القرن الثالث .

على أن هذا لم يحل دون ارتحال كثير من الأدباء عن (دار السلام) سعيا فى طلب العيش ، واستجابة لرغبات كثير من زعماء تلك الحواضر الناشئة ، الذين أرادوا ألا يقصروا عن شأو أمراء بغداد فى كل مظاهر العظمة ، ومن أسمى تلك المظاهر تزاحم الشعراء والعلماء على أبوابهم .

فكان من آثار هذه الحال أن كثر اعتزاء العلماء إلى أوطانهم ، بعد ما كانوا ينتسبون غالباً إلى قبائلهم ، فأصبح الناس يسمعون بكثير من هؤلاء ، كالطبرى والبخارى والزمخشرى والرازى والنيسابورى والبلخى والبغدادى والدمشقى والمصرى والقيروانى والمغربى ، إلى غير أولئك . وقد كانت ألقاب العلماء أيام ازدهار (بغداد) تشير غالبا إلى قبائلهم أو صناعاتهم ، إذ كانت جمهرتهم مجمّعة فى (بغداد) فكان منهم : المازنى والحميرى والزجاج والفراء وغيرهم .

يحصل هذا (لبغداد) منذ منتصف القرن الثالث ثم يحصل مثله أو مقاربه لمدينة (قرطبة) منافسة (بغداد) بعد نحو قرنين ، فبعد ما كانت مهبط العلماء والأدباء ومقصد النابهين منهم كأبى على القالى زمن الخليفتين : (عبدالرحمن الناصر) وولده (الحكم بن عبد الرحمن) ، وبعد ما كان همّ أمرائها منافسة المشرق وعاصمة المشرق (بغداد) ، عدَت عليها عوادى الزمن فانحلت عرا الدولة الأموية الثانية فى الأندلس بتغلّب ملوك الطوائف عليها عام (٤٢٢ هـ) .

وقد نشأ مما عرا (بغداد وقرطبة) ظهور مدن أخرى حظى بعضها بكثير من المظاهر الأدبية والعلمية ، بعض هذه المدن فى الشرق وبعضها فى الغرب ، وإليك الآن كلمات موجزة عن أهم هذه الحواضر ، ولنبدأ بالحواضر الشرقية :

فمنها (أرَّجان) وهى مدينة من بلاد ركن الدولة بن بويه المتغلّب على بلاد الرى وهَمَذان وأصْفهان . كان بهذه المدينة ذلك الوزير العظيم والكاتب المبدع (أبو الفضل بن العميد) فكان مقصداً لكل أديب كاتبا كان أو شاعرا . أمّه الأدباء والشعراء من أقاصي البلاد فوجدوا فى ظله نعيما وافرا وعيشا رغدا ومكانا عليّا ، فصارت أرّجان فى زمنه موطن العلم والأدب وكعبة العلماء والأدباء ، وحسبك فى بيان فضل ابن العميد أن أصبح رب طريقة مختارة فى الكتابة العربية حتى قيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

وحسبك أن يؤمه زعيم الشعر فى ذلك الوقت أبو الطيب المتنبى ، وهو المغالى بنفسه التيّاه بشعره ، فيلقى عنده من الحفاوة ما أطلق بمدحه لسانه ، وما جعله وهو زعيم الشعر يسبغ على أبى الفضل من الصفات ما يجعله واحد عصره ونسيج وحده .

كان لابن العميد بفضل دماثة خلقه وسعة حلمه وكثرة جوده وحسن محاضرته أثر كبير فى جذب الأدباء إلى ساحته ، وكان إلى جانبه ذلك الكاتب الأديب الطائر الصيت (الصاحب بن عباد) الذى بلغ من ثقته بنفسه وتزاحم الأدباء على مجلسه أن كان لا يستقبل أديبا يحفظ أقل من عشرين ألف بيت من شعر العرب ، حتى قيل إن أبا بكر الخوارزمى قدم عليه فأعلمه الحاجب بذلك فقال الخوارزمى : سل مولاك ، أيريدها من شِعْر الرجال أم من شِعْر النساء ؟ فلما دخل الحاجب على الصاحب وأخبره بذلك قال : هذا يكون أبا بكر الخوارزمى ! وأذن له وأنزله منزلته وبالغ فى الحفاوة به .

إن دولة يكون من أمرائها « عضد الدولة » ويكون من وزرائها (أبو الفضل ابن العميد) وصاحبه (ابن عباد) لجديرة بأن تكون ملاذ الأدب فى إبان محنته ، وأن مدينة يكون فيها (ابن العميد والصاحب) لهى درة فى عقد المدائن ، ولقد عرف الأدباء لهما هذه اليد الطائلة ، فأطالوا فى مدحهما ، وأذاعوا من مآثرهما . هذا ، ولما مات ابن العميد حزن عليه (الصاحب بن عباد) أشد الحزن ومر بداره يوما فلم ير فيها من كانوا يتزاحمون على بابها فجاشت نفسه بالأسى وقال :

أيها الربع لِمْ عَلاك اكتئاب ؟ أين ذاك الحجاب والحُجّاب ؟

أين من كان يفزع الدهر منه ؟ فهو الآن فى التراب تراب ؟

ولما مات (الصاحب بن عباد) رثاه أبو سعيد الرستمى فقال :

أبعد ابن عباد يَهَشُّ الى السُّرَى أخو أمل أو يستماحُ جواد ؟

أبى الله إلاّ أن يموتا بموته فما لهما حتى المعاد معاد

هكذا كان وزراء آل بويه كوزراء بنى العباس من البرامكة وآل وهب فى طليعة الأدباء ، وكانت ديارهم مثابة العلم ومقصد العلماء .

ومن تلك الحواضر (بخارى) و (نيسابور) اللتان نما العلم وازدهر فى جنباتهما على يد الدولة الساسانية ، التى قامت بما وراء النهر (من سنة ٢٦١ إلى سنة ٣٨٩ هـ) وفى هاتين المدينتين أنشئت أقدم المدارس الاسلامية . وقد امتاز من ملوك هذه الدولة (منصور بن نوح) وولده (نوح بن منصور) وكان (نوح) هذا متعصباً للآداب الفارسية حتى اقترح على شاعره (الدقيق) أن ينظم تاريخ الفرس ومآثرهم ، فأخذ فى نظم « الشاهنامة » وكان على ذلك التعصب ميالا للعلم ، واستخدام العلماء ، حتى إنه لما سمع بشهرة (الصاحب بن عباد) وزير آل بويه ، حاول أن يجتذبه إليه فيجعله من خاصة دولته ، ومنّاه الأمانى الواسعة ، ولكن وفاء الصاحب ، أبى عليه أن يفارق أولى نعمته ، فاعتذر بكثرة كتبه وصعوبة انتقاله، لأن هذه الكتب كما قال الصاحب ، تحتاج فى نقلها إلى أربعمائة بعير . وكان الملك (منصور السامانى) لا يقل عن أسلافه حباً للعلم ، واحتفاء بالعلماء ، فألف له أبو بكر الرازى الطبيب كتابه « المنصورى » ـ فى الطب ـ . وإن ملوكا ذلك ديدنهم فى نصرة العلم لا شك تكون ديارهم مثابة العلم والعلماء وموطن الأدباء والفضلاء .

ومنها مدينة (جُرْجَان) قاعدة الدولة الزِّيادية التى ملكت من سنة ٣١٦ إلى سنة ٣٣٤ هـ ببلاد (طَبَرِسْتان)

كان من ملوكها (شمس المعالى قابوس بن وَشْمكير) وقد عرف هذا الملك بالعلم والأدب ، وصفه (الثعالبى) فى كتابه « يتيمة الدهر » فقال : أنا أختم هذا الجزء بذكر خاتم الملوك ، غرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن جمع الله له إلى عزة الملك بسطةَ العلم ، وإلى فضل الحكمة فضلَ الحُكم . يريد بهذا

(شمس المعالى قابوس) ويُروى لهذا الملك شعر رقيق العبارة ، رائق المعنى ، فمنه :

خطرات ذكرك تستثير مودّتى   فأحسّ منها فى الفؤاد دبيبا
لا عُضو لى إلا وفيه صبابة   فكأنّ أعضائى خلقن قلوبا

وقوله :

قل للذى بصروف الدهر عيّرنا   هل حارب الدهرُ إلا من له خطر ؟
أما ترى البحر يعلو فوقه جيف   وتستقر بأقصى قاعه الدرر
فإن تكن عبثت أيدى الزمان بنا   ومسّنا من تمادى بؤسه ضرر
ففى السماء نجوم لا عداد لها   وليس يكسف إلا الشمس والقمر

ومن تلك الحواضر (غزنة) قاعدة الدولة الغزنوية بأفغانستان والهند ، ومن أجلاء ملوكها السلطان محمود الغزنوى فاتح الهند ، الملقب بيمين الدولة ، كان مجلسه آهلا بالعلماء والأدباء والشعراء ، ولم يمنعه من تشجيع الأدب حبه لأحياء الآداب الفارسية ، فهو الذى أمر شاعره (الفردوسى) بإتمام ما بدأه (الدقيق) من نظم « الشاهنامة » فأتمها ، وكان هذا الملك العظيم مولعاً بحشد العلماء فى عاصمة ملكه ، لا يسمع بعالم نابه الذكر إلا استدعاه وقربه إليه . كتب إلى أمير (خوارزم) كتاباً يطلب منه أن يرسل إليه من سمع بوجودهم عنده من كبار العلماء كالبيرونى الرياضى وابن سينا الطبيب ، وقال فى كتابه : أرسلهم إلىّ ليتشرفوا بمجلسى و نستفيد بعلمهم .

هذه أهم الحواضر الأدبية فى جهات المشرق . وسنعرض فى المقال التالى بعون الله إلى ذكر الحواضر الأدبية فى جهات المغرب .

محمود الشبيشى

على هامش الحرب

مَرْثِيَةُ غُصْنِ الزَّيتونِ !

مهداة إلى عصبة الأمم بجنيف

لشاعر الريف

محمود حسن اسماعيل

الطالب بدار العلوم

لا زَهرُهُ يَنْدَى ، ولا هو يَنْفَحُ   ذاوٍ على طرَفِ الصبا مُتَصَوِّحُ
رَيَّانُ أمْيَسُ هَدَّلَتْ أطرافَهُ   هوْجاءُ من نار المطامع تَلْفَحُ
فَرْعٌ من الزَّيتون لم يَخْفُقْ له   فَنَنٌ ، ولم يَسْجَعْ عليه صَيْدَحُ
أنداؤهُ من حكمةٍ أبَدِيَّةٍ   صَمَتَتْ فما تَلْغُو ولا تَتَفَصَّحُ
وغذاؤه من رحْمَةٍ عُلْوِيَّةٍ   يضفو بها طيْفٌ هناك مُجَنَّحُ
تَخِذَ السَّلامَ قصيدةً قُدْسِيَّةً   يَشْدُو بها شادى السَّلام ويَصدحُ
لو رَنَّ هاتفُها بأذْنِ كتيبةٍ   رَبْداءَ فى رهَجِ اللَّظَى تَتَرجَّحُ
سجدَتْ له الأليافُ خَجْلَى رهبةً   وتكَفَّأَتْ فوق الثَّرى تَتطوَّحُ !

* * *

يا سَرْحَةً برُواق «جينيف» ارتَوَتْ   من طاهرٍ بدم الضحايا ينضَحُ
نبعٌ من الأرواح سَلْسَلَ فيضَهُ   وجرى على بطحائها يتفوَّحُ
يَنْسابُ من خَلَلِ الجماجم صاخباً   أمْواجُهُ من كل عِرْقٍ تطفحُ . . .
ماذا دهاكِ فلم يَدَعْ سوْسانةً   من هَوْله فى جانبيْكِ تُفَتَّحُ ؟
صَوْتٌ من الطلْيانِ أرْوَعُ غاشمٌ   مُتَحَفِّزٌ بين الورَى يَتَبجَّحُ
خَدَعَتْهُ صامتَةُ القنابل حينما   ذهبَتْ تُهدِّدُ بالرَّدى وتُلَوِّحُ
مَجْنونَةً بالموْتِ ، جُنَّ حَديدُها   ومُريدُها خطراً يَروعُ ويَفدَحُ

رَعْنَاءُ لو مَسّتْ مطارفَ شاهق لانْدكَّ من عالى الذُّرا يتطرّحُ
سَكْرَى بخمر الموت تهذِى جَهْرةً بملاحنٍ من كِبْرها تتوقّحُ
خرْساءُ لوْ نطقتْ أصمَّ ضجيجُها أُذُنَ الحياة ، فلا تَعى ما تُفْصِحُ
حُبْلَى بنسل النار ، يا وَيْلاهُ ! إنْ وَلَدَتْ فحتْف للبريّة يَكْسَحُ !
كم أفزعَتْ «عِزرِيلَ» حين تبرّجتْ تلهو على جُثَث العباد وتمرَحُ

☆ ☆ ☆

سَلْ أُمّةَ الأحباش . . كيف تفزّعت وغدَتْ على قُضُب القَنا تترنّحُ
لم تُغنِها الأجبالُ تعصِمُ هارباً أو شاكياً تحت المغافِرِ يرزَحُ
خَيْماتُها فى الحرب لوْ أبصَرتَها شُعَلاً على كنف الهواضب تلمَحُ
هى ألسُن للحقّ ذاع بيانُها ضَرَماً عن الوجْد المكتَّم يُفصِحُ ؟
يا رُبّ مُسْوَدّ الجبين بظلّها قَسَماتُهُ عند الوغَى تتوضّحُ
يُوحيه إيمانُ العزائم بَهْرَةً فيظلُّ من هالاتِها يَترَوّحُ
يَلْقَى الطغَاةَ بعَزْمةٍ لو صادفتْ قلبَ الحديد لخرّ بالدّم يَرْشَحُ !

☆ ☆ ☆

يا عاهلَ الرُّومِ العنيد تحيّةٌ من شاعرٍ باللّوْم جاءك يَصْدَحُ
أنغامُهُ فى النِّيل ضيّعَها الأسَى وهى التى بهوى البلاد تُسبِّحُ
عُذْريّةٌ تشدو ، فإن هى أقبلَتْ تأسو يُرَاوغُها الشمَاتُ فيَجرحُ !
صرخَتْ على حُرِّيّةٍ مسلوبَةٍ شُعراؤها فى كلّ فجٍّ نُوَّحُ . . .
ما ضَرّ لو أمهلتَ طائشةَ الوغى قوماً تغادَوْا بالشّكاة وروّحُوا ؟
أوطانهم ! يا رحمتا لمصيرها ! أمَل لسُفّاكِ الطغَاةِ ومَطمَحُ
فزِعوا من الغازات تخنُقُ جوّهم فيضوعُ بالموتِ الأصمّ وينفَحُ !
اللهُ طهّره هواءً طيّباً كالرّوْض ضمّخه العبير الأفيَحُ
وابن التُّراب أرادَه مسمومةً نكباءُ ذاريةٌ تبيد وتقْرَحُ !

الأدب المـــاجن

بقلم النجرى ناصف

مفتش المعارف بملوى

هو هذا الذى تعرضه الكتب المتبذلة ، ويزجيه كثير من المجلات والصحف الأسبوعية ، فى لغته الفَسْلة الواهنة ، وموضوعاته التافهة المرذولة ، لا تقية فيها ولا تصوّن .

وأكثر ما يشيع هذا النوع فى عصور التفكك والانحلال ، وإبان التحول والانتقال من طور إلى طور ؛ لأن الأمة أيام الانحلال والتفكك تكون على حالة من وهن العزيمة ، وقصور الهمة ، وفساد المزاج ـ لا تكاد معها تستطيب غير الحياة اللاهية العقيم ، وما تنطوى عليه من عبث ومجون وإيثار للعافية فى جميع الشئون . وهى إبان التحول والانتقال تثور على التقاليد والعرف ، وتعمل فى غير هوادة لقلب الأوضاع وتغيير المقاييس . وهيهات مع هذه الحدة الغالبة أن تحسن تمييز الخبيث من الطيب ، أو تصبر على إنعام النظر فيما تمضى إليه ؛ فيشتبه عليها الرائج والزَّيف ، ولا تكاد تسلم من العثار والزلل .

ولا ريب أن الواجب الوطنى فى هاتين الحالتين ـ يقتضى كل ذى مقدرة أن يتقدم بنصيبه من العمل لخير أمته ، ودرء الخطر الاجتماعى الذى يتهددها . ولعل واجب الأدباء والمربين فى هذه السبيل أجل الواجبات قدرا ، وأعمقها أثرا ، وأقواها فعلا ؛ لأنهم بفضل مالهم من بلاغة وصحة منطق ، وسطوة برهان ، وسعة خيال ، وسيطرة على التربية ـ يستطيعون أن يقوموا العوج ، ويتداركوا الضعف ، ويثيروا المحجة ، ويبثوا الدعوة .

ونحن اليوم فى مستهل نهضة اجتماعية ؛ أى فى طور تحول وانتقال ، تشوبه بعض مساوئ الماضى . فلا بد من تعاون الجهود على سلامة هذه النهضة ، وتعهدها بأسباب القوة والاتزان ، حتى تستطيع التخلص من قيودها وأثقالها ، وتشب

شبابا صالحا : لاوهن فيه ، ولا شذوذ . فهل تراهم جميعا يضطلعون بهذا الواجب الحتم على النمط الذى يقضى به خير الأمة ، وتتطلبه حالة النهضة الحاضرة ؟ الأمر بين لا لبس فيه ولاخفاء ، فها نحن أولاء نشهد رجال التربية والتعليم على اختلاف واجباتهم ومناصبهم ، لا يألون الجهد فى الإصلاح والتجديد ؛ لتغذية النهضة ، وتنشئة المتعلمين تنشئة أساسها الرغبة فى إعدادهم للمستقبل إعدادا صالحا ، فى الأدب والثقافةوالأخلاق ، ونرى بعض الأدباء يقصرون نتاجهم الأدنى فى الصحف والمؤلفات وما إليها ـ على فنون الأدب الجد ، ويربئون بأقلامهم أن تجول فى غير البحوث الخصبة الثمينة ، وبلغتهم أن تشوبها شائبة من العامية ، أو يصيبها مس من ركاكة أوضعف . فأدبهم فى الجملة أدب غنى كريم ، يشد أزر المدرسة ، ويظاهرها على أداء واجبها ، بما يعرض من متعة وجمال ، وما يبث من ثقافة وتهذيب ورياضة على التفكر وحب الاستزادة والبحث .

بيد أن نتاج هذا الأدب لا يساير النهضة فى نمائها واتساع محيطها ؛ لما يلق أصحابه من عنت فى الطبع والنشر ، إذ ليس لهما بيننا شركات قوية منظمة ، كتلك التى فى الأقطار الراقية . ولولا أن بعض أدبائنا يستطيعون لأسباب خاصة أن يعتمدوا على أنفسهم فى طبع مؤلفاتهم ونشرها ، لفترت الحياة الأدبية ، ولم تجد لها مددا يذكر من غير كتب الأدب القديم التى تبعثها دار الكتب المصرية وبعض المطابع .

وثمة سبب آخر ، له قوته وشدة تأثيره : ذلك هو تناقص الإقبال على الأدب الجد ، وانصراف أكثر القارئين عنه ، حتى أصبح إخراج كتاب فيه عملا غير مأمون ، لا يقدم عليه من أكثر الأدباء إلا مغامر جرىء . ومهما يقل عن رواج بعض المؤلفات وشدة التهافت عليها ، فهو ولا ريب أقل مما يجب ، وأتفه مما يغرى بالإنتاج المطرد . على أن هذه المؤلفات لا تذاع فى مصر وحدها ، بل فيها وفى بعض الأقطار الشرقية كذلك . فهذا الذى يبدو من رواجها ليس سببه كثرة الإقبال فى مصر ، وإنما سببه تعدد الأسواق ومناطق التوزيع .

وما أظن هذا الكساد من قلة المتعلمين ، أو قلة الراغبين منهم فى القراءة ،

فإن أسعد المؤلفات حظا ، وأجلها بحثا وموضوعا . لا يباع منه على الاعلان ونشر الدعوة إلا قليل ، بالاضافة إلى هؤلاء ، مهما تكن قلة عددهم ، أو زهادتهم فى فى القراءة والدرس . على أننا لا نعتقد أن جمهورنا المتعلم زاهد فى القراءة على الإطلاق ، وإن تكن رغبته فيها دون ما يجب على كل حال ، ولكننا نعتقد أنه يختص بالأدب الماجن أكثر أوقات القراءة ، ويؤثره على الأدب الجد بالاهتمام والبذل وحسن الإقبال ، إما استجابة لداعية الشباب أن يطلع ما فى هذا الأدب من أسرار الحياة اللاهية المترفة ، وهى من أهم ما يعنى به ، ويفتن فى عرضه ، وإما مطاوعة من تفكك الماضى السقيم ، تصده عن أعالى الأمور إلى أدانيها فى الأدب وغيره ، قناعة بالتافه اليسير ، تخف مئونته ، ويسهل تناوله ، وتلتق الدعة فيه والاستقرار .

وإذا كان الجمهور المتعلم منصرفا حقا عن القراءة أيا كان المقروء ، فما لهذا الأدب الماجن يزداد على الأيام سطوة وذيوعا ؟ نعم ، لقد بدأ أول أمره هزيلا بائسا ، لا يكاد يتماسك تخاذلا ، ولا يأتلف شعثا وسوء حال : كأن كتابه نفرا من صغار الأدباء ومجانهم ، وكان قراؤه بعض الخليين من أهل الدعابة والتظرف ، ولم يكن يقرؤه من غيرهم أحد إلا لماما ، أو فى أحوال قليلة تضيق النفس فيها ملالة أوحرجا ؛ فتتسلط عليها رغبة ملحة أن تردد النظرة العاجلة بين ألوان من المشاهد ، التماسا للتسلية والتفريج . لكنه اليوم تغمره النعمة ، وتبدو عليه دلائل البذخ فى أدواته وأوراقه ، وفى طبعه وصوره ، وفى كل ما يتصل به . وأصبح يتولى الكتابة فيه بعض المثقفين من أهل النباهة والشأن ، ويواظب على قراءته جمهرة القارئين . وبخاصة الفتيان والفتيات من طلاب المدارس والمستخدمين لأنهم يجدون فيه مادة للتندر ، وزادا يعينهم على اصطناع التماجن والإضحاك . وبلغ من طغيان هذا الأدب ، واستفحال خطره ، أن بعض المجلات الجدية اضطرت أن تغير وجهتها ، وتجرى فى تياره ، بعد أن نزعت جدها وتصونها ، وفاء بحاجة السوق ، ونفاسة على المجلات الماجنة أن تذهب وحدها بوفرة الربح وسعة الانتشار .

إن هذا الأدب يجنى على اللغة والأخلاق معا : يجنى على اللغة بالصد عنها ،

والدعوة إلى العامية من طريق الإيحاء . فهو قد استغوى جمهرة القارئين ، واجتذبهم إلى نتاجه ، فوهنت صلتهم بالأدب الجد ، وغلبت عليهم الوحشة بل النفرة منه ، وهانت عليهم الفصيحة ، حتى كأنهم لايرون حاجة إليها ، ولا يجدون فى أنفسهم رغبة التزود منها ومحاكاة أساليبها الرفيعة كتابة وتخاطبا ، وأصبحت الدعوة إليها . والحرص على اصطناعها ، من دلائل التشدد والتزام ما لا يلزم فى رأى كثير . ومن هؤلاء من يعلم أكثر من غيره أن مخالفة اللهجة الأصلية فى التخاطب باللغات الأجنبية ، أو مجرد الخطأ فى رسم كلماتها ، أو أداء بعض حروفها ، من الهنات المعينة التى يجب علاجها والتنزه عن الوقوع فيها ، اتقاء التهكم والسخرية . ثم إن هذا الأدب يوحى إلى قارئيه أن يقلدوا مذاهبه ، ويأخذوا فى العبارة إخذة ، لطول تمرسهم به ، وإقبالهم عليه . وهى عبارة سخيفة ، تشيع فيها العامية كما تشيع الرقاع فى الثوب الخلق ، بل إنها لاتسلم بعض الأحيان من العامية الساقطة المستهترة ، يصطنعها أراذل السوقة فى مجونهم ومهاترتهم . ذلك بأن أصحاب هذا الأدب همهم فى إضحاك القارئ ، وبعث الارتياح فى نفسه . فإذا أعوزهم ذلك فى عرض الوقائع ، أو ابتداع الأخيلة الطنـزية ، اعتاضوا منه بالنكتة اللفظية يلتمسونها فى التورية ومفارقة الأسلوب ، فإذا أمثال أو عبارات من العامية ، تأخذك على غرة منك ، فيكون لها عندك ما لكل جديد مباغت ، من نشوة ، وانبساط .

والموضوعات التى يتناولها هذا الأدب ، ويفرغ عليها من جهده ـ هى فى الأكثر الغالب تافهة هينة الشأن ، لاتكاد تلمح فيها أثارة من قدوة حسنة أو مثل صالح ؛ لأن أصحابه (عفا الله عنهم) لا يريدون من هذه الناحية أيضا إلا اجتذاب القارئ ، وتملق الغرائز الدنيا بهيج نوازى الشباب والمجانة . فهم لذلك يتخيرون قصص الخلاعة والاستهتار بما تنطوى عليه من مراودة وإغراء ، ويتسقطون أخبار الغرام الأثيم ، وحيل الفساق فى اقتناص الفريسة وستر المخازى ويسترقون أسرار البيوتات وأنباء بعض الطوائف الليلية فى أمورهم الخاصة . ونحو هذا من صور الحياة العابثة .

وما نظن أحدا يشك أن فى مثل هذه الموضوعات خطرا على أخلاق الشباب ،

أو أن فيها هذا الخطر على الأقل إذا بقى الأدب الماجن هذا التسلط و الاستئثار. إنه إذ ذاك أجدر أن يوحى إلى القارئ أن الحياة ملهى مستباح ، ليس فيه حمى ولا له قيود ، وأنه وحده يوشك أن يكون المتخلف المحروم. فما له لا يكون كبقية الناس : ينتهك ماينتهكون ، ويقترف مايقترفون ، ثم يظهر مثلهم العفة والتصون ، ويقول بلسانه عن التدين والفضيلة كما يقولون ! ولا عجب ، فللشباب عواطفه المتوفزة ، ومقاييسه الخاصة .

ومضرة أخرى يجنيها هذا الأدب على قارئيه ، أن إدمانه يشل عقولهم ، ويعودهم القناعة بالتافه القريب من الحقائق والمعلومات ، فيقفون عنده مادة لحياتهم الفكرية ، ولا يطيقون التماس الحقائق القيمة الفنية ، ملالة منها ، واستثقالا لمؤونتها من الجهد والمصابرة والجد. وهؤلاء بعض شبابنا المتعلمين من مدمنى قراءته . تراهم ويا للخيبة والأسف لا يخجلون أن يعرفوا عن بعض الممثلين والممثلات ومن إليهم ، ما لا ينشطون لمعرفة معشاره أو الاستماع لحديثه عن أبطال التاريخ ، وزعماء الشعوب ، وأساطين العلوم والفنون .

وإذا قيل لأصحاب هذا الأدب : رويدكم ، بعض هذا التمادى والإصرار ؛ قالوا : دعوة إلى النفاق والرياء . كأن الصراحة فى رأيهم تتسع وتمتد ، حتى تتناول الإباحة العارمة ، لاتتقيد بقيد ، ولا تقف عند حد . وهؤلاء أو أكثرهم ممن يرون من الخطأ الجسيم والجهالة العمياء أن تخالف تقليدا من التقاليد التى تفرضها الحياة الآلية ، ذات المراسم والنمط الواحد فيما لا طائل تحته ، ولا ضرر من إغفال التقيد بقيوده .

إن على الأدباء والمربين فى هذا البلد واجباً وطنياً ، لا مفر لهم من أدائه فرادى وجماعات ؛ لصيانة اللغة والأخلاق من أفاعيل هذا الأدب ، وسوء تأثيره عليهم أن يجعلوا إنتاجهم من الأدب شائقا جذابا فى موضوعاته ومناهج بحثه ، فى أسلوبه وعباراته ، فى إلقائه وطرق تعليمه ، فى ورقه وطبعه . فى كل شيء فيه ، وكل ناحية من نواحيه . وعليهم أن يدأبوا فى اجتلاء نفائس الأدب القديم ، وتيسير الإفادة من أمهات كتبه : بطبعها الطبع العصرى الأنيق ، وتهذيب ماتدعو

الحاجة إلى تهذيبه ، وشرح مفرداتها الغريبة وأساليبها الرصينة شرحا كافيا ، يدنى البعيد ، ويكشف عن المرمى . ويغنى عن المراجعة ، فليس البحث أو التمحيص من الأمور الهينة أو المحببة إلى كل قارئ . عليهم أن يعملوا هذا وغيره ، مما يجتذب جمهور القارئين ، إلى الأدب الجد ، ويُوزِعهم أن يتروَّوا من مناهله ، ويتأدبوا به .

أما أصحاب الأدب الماجن فإننا نُهيب بوطنيتهم وإخلاصهم لبلادهم أن يتدبروا عاقبة هذا الأدب ، ويسألوا أنفسهم عن مدى تأثيره ، إذا بقى على هذه الحالة ، وظلوا هم بموقفهم حياله من التمكين له ، والافتنان فيه ، ومهما يكن رأى الناس فى هذا الأدب على حالته الحاضرة ، فالذى لا يقبل فيه شك ولا خلاف - أنه إذا أصلحت لغته وموضوعاته ، يصبح أدبا طيباً رشيداً ، لا غبار عليه ، ولا مطعن فيه .

فنحن لذلك إنما نريد بما نكتب عنه أن ندعو إلى تقويمه ، وتغيير وجهته ليس غير : نريد أن تكون لغته قوية متينة خالصة من أوراق العامية ، وموضوعاته شريفة مبرأة من المجون والابتذال . وبحسبه النقد والاجتماعيات وما يماثلها من الموضوعات ، ففيها متسع لجولاته عظيم . ولا ريب أنه يومئذ بفضل دعابته الحلوة وخياله المرح . وتهكمه المرير يستطيع أن يخدم الصالح العام خدمة جديرة بأطيب الحمد والثناء . والله الهادى إلى سواء السبيل .

على الجبرى ناصف

ابن ميَّادة

بقلم حسن علوان

المدرس بالمدرسة الخديوية الثانوية

حكم الأصمعى عليه ـ خطأ الأصفهانى فى قوله : « إن ابن سلام تعرض لذكره ـ نقدأحكام الأقدمين على الشعراء ـ تحقيق نسب ابن ميادة ـ تعصبه لقومه واغتصاب الفرزدق لشعره ـ وراثته للشعر ـ تأثير الدم الصقلى والعربى فيه ـ هجاؤه عقبة بن كعب ابن زهير خال أبيه ـ بعض نواحى خلقه وخطأ المبردفى فهمها .

لست أدرى ماحاد بى عن الكتابة فى شاعر من فحولة الشعر ، وزعيم من زعماء القصيد ، إلى الكتابة فى ابن ميادة ، وقد أرجعه الأصمعى ، إلى ساقة الشعراء ، وردَّه إلى مؤخرتهم ، فقد قال : « ساقة الشعراء ابن ميادة وابن هَرْمة ورُؤْبة وَحكَم الخضُرِىّ ومكين العذُرى ، وقد رأيتهم أجمعين » (١)

هذا حكم الأصمعى على ابن ميادة ، وهو حكم من رآه وخبره ، وناقله القريض وذاكره ، قد رماه فى زمرة الرجازين ، ولفه فى الشعراء المغمورين ، وعززه صاحب الأغانى فقال : « إن ابن سلام جعل ابن ميادة فى الطبقة السابعة ، وقرن به عمر بن لَجَأ ، والعجيف العقيلى ، والعجير السلولى » فلما رجعت إلى طبقات ابن سلام ، لم أجد فيها ذكراً لابن ميادة أو العجيف العقيلى ، لا فى الطبقة السابعة ولا فى سواها من طبقات الشعراء الإسلاميين ، ووجدت عمر بن لجأ ، ذاك الذى هاجى جريراً وأخزاه وأفحمه ضمن شعراء الطبقة الرابعة ، والعجير السلولى فى الطبقة الخامسة ، وقد وجدت شاعراً اسمه القحيف العقيلى فى الطبقة العاشرة ، ولعله هو العجيف العقيلى الذى أراده الأغانى ، أو لعله غيره ، ولكن ابن ميادة قطعا ، لم يتعرض إليه ابن سلام فى طبقات الشعراء ، وأرى أن هذه

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٨٩

إحدى هفوات أبى الفرج ، التى تلقى غبار الريب على روايته ، وتدعونا إلى تمحيص أخباره . والعصمة لله وحده .

وليس من شأنى الآن أن أعرض لما قال الأغانى عن ابن سلام ، أو أتكلم فى حكم الأصمعى على ابن ميادة وأظهر مافيه من حيف أو إنصاف ، فللأقدمين أحكام جائرة على كثير من الشعراء ، ما كانوا يبرمونها بعد نظر مترو ، أو قلب نقى من شوائب الميل ، لأن العصبية العربية ، والدعوة الحزبية ، ومكانة الشاعر فى قومه ، ومكانة قومه بين العرب ، هى التى كانت تسيطر على أحكام الرواة ، وتتحكم فى آراء النقاد . فقد يفرض على الشاعر أن يكون من المتخلفين ، وينزل من سماء المجيدين ، ولا يشفع له فؤاد مطبوع ومعان شريفة ، وأسلوب رائق ، لأنه شيعى لايظاهر الخليفة ، أو لأنه هجين أو مولى من الموالى .

ولكنى سأتكلم فى نواح خاصة بابن ميادة ، جديرة بالبحث والتمحيص ، والعرض والتصحيح . ومن هذه النواحى ، مايجعل ابن ميادة — فى رأيى — خليقاً أن يكون فى جبهة الشعراء ، متبوئاً مكانة معاصريه كالفرزدق وجرير والأخطل ، من شعراء بنى أمية ، أولئك الذين ملأ ذكرهم سمع الزمان ، وعرفهم كل إنسان ، وجروا على كل لسان .

كنت إذا أعوزتنى حاجة ، إلى تصحيح علَم أو ضبطه ، أو تحقيق نسبه ، أرجع إلى مشورة القاموس المحيط ، فآخذ برأيه ، وأرجح قوله ، وأجعله فصل الخطاب ، بين العلماء الذين كتبوا فى هذه الأعلام ، واختلفوا فيها ، كابن النديم وياقوت ، والسمعانى ، وابن خلكان والحافظ الذهبى والسيوطى ، فلما أردت تحقيق نسب الرماح بن أبرد(١) بن ثوبان بن سراقة. . . . بن مرة بن عوف. . . . ابن غطفان ، المعروف بابن ميادة ، جعلت أقلب بطون الكتب ، وأدير الرأى فيما أقرأ ، فوجدت الكلام عن أمه ، قد أخذ اتجاهين اثنين ، فمن قائل إنها أمة فارسية ،

(١) جاء فى الجزء الأول من تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان (ص٢٩٦) أنه الرماح بن يزيد والصواب ابن أبرد .

لأنه قال يفخر على الناس، ويدل عليهم بنسبه فى العرب والعجم، ويزعم أنه خير من ولدت النساء فى قوله:

أنا ابنُ أبى سلمى، وجدّى ظالم وأمى حصان أخلصتها الأعاجمُ
أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرمِ مَنْ نيطت عليه التمائم

ومن قائل إنها جارية أشبانية (أسبانية) من سبى الأندلس، جىء بها من طريق الشام، وابتاعها ثوبان، «زوّجها ابنَه أبرد، فأولدها الرماح، وبهذا يهجوه الحكم الخضْرِىُّ ويتهكم به فيقول:

أأنت ابن أشبانية أدلجت به إلى اللؤم مقلاتٍ لئيم جنينُها

ولم يندّ عن هذين الرأيين إلا القاموس، فقد ورد فيه أن «ميّادة مشددة، أمة سوداء، وهى أم الرماح ابن أبرد بن ثوبان الشاعر، نسب اليها». فلم أكن عند هذا حسن الظن بالقاموس وخامرنى الشك فى صدقه، لأن من يدرس حياة الرّماح، ويستخلص منها طبائعه وشمائله. يجزم أن أمه ليست زنجية ولا تنزع إلى الزنوج بعِرْق، ومن يعرف أن ابن ميادة كان «صلْت الجبين، حسن الطلعة، أحمر سبطا، عظيم الخلقة، طويل اللحية، لبّاسا عطراً» (١) قال عنه عكرمة: «ما دنوت من رجل كان أطيب عرفا منه» يستبعد أن تكون عليه سمة الزنوج أو فيه رائحتهم. وقد كان يودّ الحكم الخضرى، خصمه ومقارعه، لو كان ابن ميّادة يمتّ إلى السواد بنسب، أو ينزع إليه بسبب حتى يكون الهجو أبلغ، والذم أوقع، ولكنه لم يجد ما يعيبه عليه، سوى أن أمه أشبانية أو صقلبية، وقد كان عمود فخر ابن ميادة «نسب أبيه فى العرب، ونسب أمه فى العجم» فمن أين نقل صاحب القاموس أن أمه زنجية سوداء؟! والثابت الذى لا شك فيه، أن ميادة أمة صقلبية أشبانية، لا فارسية ولا زنجيه، وإن كان الرماح نفسه يزعم أنها فارسية، ولكن الشعراء فى معرض الهجو والازراء، كانوا يرمونه بأنها صقلبية، وهم فى ذلك صادقون، لأنه حينما

(١) جـ ٢ ص ٢٦٨ أغانى

أنشد موسى بن سيار المرى ، وهو من عشيرته وبنى عمومته :

أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرم من نيطت عليه التمائم

قال له « لقد أشحطت بدار العجوز ، وأبعدت بها النجعة فهلا غربت ؟ ، يريد أنها صقلبية ، ومحلها بناحية الغرب ، فقال : أى بأبى أنت ، إنه من جاع انتجع ، فدعها تسر فى الناس ، فإنه من يسمع يَخلْ ، أىْ من يسمع أخبار الناس ومعايبهم ، يقع فى نفسه عليهم المكروه ، فلم يستطع ابن ميادة إزاء الحقيقة التى رضخه ابن سيار ، ورده فيها إلى صوابه ، إلا أن يعترف معه بأن أمه صقلبية . ولكنه تمسح فى الفرس ، ليستمجد بهم ، لأنهم كانوا أدخل فى المدنية وأثبت فى العراقة من الصقالبة .

وابن ميادة من مرة غطفان ، لا من مرة قريش ، ومن فتيان نجد ، الموسومين بصدق العاطفة ، وذكاء الفؤاد ، والاعتداد بالنفس ، وهو إلى هذا مجنون بحب قومه ، مفتون بعصبيته ، وإن الدم الصقلبى الذى جرى فى عروقه من أمه ، لم يخرجه من بيئة الصحراء ، ولم ينزع عنه عزة العرب ، ونصرة العصبية ، وأنفة البداوة ، ولكنه لم يكن فى نصرته يميل إلى الجفاء ، ولم يكن فى عزته يبلغ حد الجمود ، بيد أنه كان لعباً دَعِباً ، مرحا طربا ، خفيف الروح طيّب النفس ؛ ولعل الريح الأندلسية ، التى نفحته من أمه قد أخرجته من جلافة العرب وخشونة طباعهم ؛ ولم تخرجه من قوة الشكيمة ، وشدة الكفاح ، والاستماتة فى العصبية ، والفخر بقومه ، والمنافحة عنهم ، حتى أذاع مكارمهم ، وسيّر فى الآفاق ذكرهم ، ونشر على سمع الناس صحيفة مجدهم فقال :

لو أن جميع الناس كانوا بتلعة وجئت بجدى ظالم وابن ظالم
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجماجم

لقد ذكر هذا ، والفرزدق واقف عليه فى جماعة ، وهو متلثم ، فلما سمع هذين البيتين استعظمهما على ابن ميادة ، واغتصبهما منه اغتصابا ، على عادته مع غيره من الشعراء ، وقال : أنا والله أولى بهما منك ؛ وأقبل على روايته فقال اضممهما إليك :

لو ان جميع الناس كانوا بتلعة وجئت بجدى دارم وابن دارم
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجماجم

ولقد عرف فيه بنو مرة شاعراً مدرها ، حديد اللسان مذوداً . سمح القريحة مفحما ، فقَدَرُوه قدره ، وأكبروه الإكبار كله وعدّوه أشعر غطفان ، فى الجاهلية والإسلام ، وقالوا إنه خير لقومه من النابغة ، وكان مقتصدا فى مدائحه حبسها على قيس قومه ، وعلى قريش أرباب الرسالة والخلافة ، فإذا جدّ الجد ، فضل قيسا على قريش ، ولم يبال أن يقول :

إذا حلّ بيتى بين بدْر ومازن ومُرّة نِلتُ الشمس واشتد كاهلى
فضَلْنا قريشا ، غير رهط محمدٍ وغير بنى مروان أهل الفضائل

وأكبر ظنى أنه لولا حرمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولولا سطوة الخلافة فى بنى أمية ، لما استلّ من قريش أحدا ، وفضل قومه عليهم أجمعين .

ومالى أذهب بك بعيدا ، وقد بلغت به الجرأة ، أن يستخف ببنى أسد وتميم وقريش معهما ، ويستهين بغضب هؤلاء وهؤلاء ، اعتزازاً بقوة قيس عشيرته ، واعتماداً على عصبيته ، فيقول :

بنى أسد إن تغضبوا ثم تغضبوا وتغضبْ قريش ، تحم قيسا غضابها
وأحقر محقورٍ تميم أخوكم وإن غضبت يربوعها وربابها
ولو أن قيسا قيس عيلان أقسمت على الشمس لم يطلع عليكم حجابها
ولو حاربتنا الجن لم نرفع القنا عن الجن حتى لا تهرّ كلابها
لنا الملك إلا أن شيئا تعده قريش ، ولو شئنا لذلّت رقابها
وإن غضبت مِنْ ذا قريش ، فقل لها معاذ الإله أن أكون أهابها
وإن غضبت قيس عليك تقاصرت يداك ، وفات الرجلَ منك ركابها

إنى لأحس فى هذه الأبيات ، التى يدوّى فيها الصلف والفخر ، فزعا شديدا ، يملأ قلب ابن ميادة من قريش ، وأنه قد أوجس فى نفسه خيفة منها . وأن شيئين يتجاذبانه ، هما حمية نفسه الثائرة ، وتنكيلٌ يتوقعه من قريش ، فتراه فى بيت واحد يعلو ويهبط ، ويهاب ويثبُت ، ويستقر ويضطرب ، ويوشك قلبه أن يخونه ،

ويفر من بين جوانحه ، لولا أنه حمِس جرىء ، يتجافى عن مطارح الهوان ، ويتصوّن من معرّة الضراعة ؛ اسمع إليه ، وقد ضم ثيابه على أسد ، وثارت برأسه الحمية ، فطار بقيس إلى السماء ، وقصر الملك عليهم دون سواهم ، فلما أطلت عليه قريش من قمة الخلافة ، تراجع متعللا بأن الملك شيء تعده قريش من حقوقها ، فإذا شام فى هـذه الحقيقة مهانة وأنفا مخزّما جمع فؤاده ، وربط جأشه ، وقال : « ولو شئنا لذلت رقابها » . ولست أدرى ماالذى منع ابن ميادة وقومه أن يشاءوا ؟ وكأنَّ داعيا من ذات صـدره ، أهاب به أن يرفق بنفسه فلا يلقيها بين فكّى الأسد فقال :

وإن غضبت من ذا قريش فقل لها معاذ الإله أن أكون أهابها

ولعمرى إن الخوف ليصرخ من « معاذ الإله أن أكون أهابها » وإن الضعف يئن فى نبراتها ، وإن القلق يضطرب فى كل حرف من حروفها . وإنه لتعجبنى تلك الصورة الناطقة ، التى صور بهـا ابن ميادة فى بيته الأخـير ، مقدار الهلع والخوف ، الذى يستولى على قلوب الناس من غضب قومه ، فلا يستقر فارس على سرج ، ولا تثبت رجل فى ركاب ، ولا تقبض يد على عنان ، فخفت عليهم كلمة الهزيمة ، وجرى الموت وراءهم فأدركهم يرعدون ، وكأنه أراد بهذه الصرخة القوية ، أن يستر ما ذهب بكبريائه ، وطأطأ من إشرافه ، حين تعرض إلى قريش .

ومما لا ريب فيه أن ابن ميادة كان عنيفا غاية العنف ، فيه رغبة تستحثه على مهاجاة الشعراء ، وإذكاء نار الخصومة بينهم وبينه ، ليجد مجال القول ذا سعة ، فى إطراء قومه ، والإزراء بغـيرهم ، حتى قالوا عنه إنه كان « عرِّيضا للشر » ولقد يبلغ فى هجائه أن يكون قاسيا لاذعا ، شديد التهكم والإغفال لخصومه ، حتى يهبط بهم إلى مهاوى الصغار ، ويرميهم تحت مواطئ الهوان ، ألا تراه يترفع عن هجاء محارب ، ويتحدث فى أنفة أن العناية بأمثالها حمق لا ينبغى أن يتصف به ، لأن نفسه الكبيرة ، وعشيرته العظيمة ، لا يجوز لها أن تقف من محارب موقف الخصم ، وأن تساجلها مساجلة الند للند فيقول :

أظنّت سفاها من سفاهة رأيها أن اهجوها لـمـا هجتنى محارب

فـلا وأبيهـا إنـنى بعشيرتى ونفسىَ عن ذاك المقام لراغب

وإن العجب ليأخذ منك مأخذا ، إذا كنت تعلم أن أباه أبرد ، كان ضِلة من الضِّلل ورِثّة من الرثث ، جلفا ، قريبا إلى البلاهة والعته ، ثم يكون الرماح ابنه ، فى هذه الصرامة والعزة ، والنفس الحادة الشاعرة ، والخصومة العنيفة الهادمة ، وحسن البزة وبهاء الطلعة ، ولكن عجبك يزول إذا عرفت أن الدم الأجنبي أثر فيه تأثيرا عظيما ، فسوّى خلقه . وألان عِطفه ، وأذكى فؤاده ، وطيب نفسه . وأن البيئة العربية ، والحياة البدوية ، أخلصته من شوائب الضعف والاستكانة ، التى قد يحتمل أن تكون تسربت إلى نفسه من أمّه الأمَة ، وأن الشعر هبط عليه من جدته سلمى أم والده أبرد ، وسلمى بنت كعب بن زهير ، وناهيك بغلام يمتزج فى عروقه الدماء الصقلبية بالدماء الزهيرية ، ثم ينتشى هواء نجد ، ويعيش فى تلاله ووهاده . غير أن الشاعرية التى ورثها من زهير ، لم تشفع لعقبة حفيده لدى ابن ميادة ، حين تعرض لبنى ظالم قومه ، فإنه خاصمه وهاجاه ووقع فيه ، برغم أنه خال أبيه ، فقال :

ولقد حلفت برب مكة صادقا ... لولا قرابة نسوة بالحاجر
لكسوت عقبة كسوة مشهورة ... ترد المناهل من كلام عاثر

فرد عليه عقبة يغض من شأنه ، وينعى خئولته الضائعة عنده فقال :

ألوما أننى أصبحت خالا ... وذكر الخال ينقص أو يزيد
لقد قلدت من سلمى رجالا ... عليهم مسحة وهم العبيد

فقال ابن ميادة يبرأ من خئولته ، ويعدها مصدر العار له :

إن تك خالنا فقُبِحْتَ خالا ... فأنت الخال تنقُص لا تزيد
فيوما فى مُزَينةَ أنت حُرّ ... ويوما أنت محتدك العبيد
أحق الناس أن يلقى هوانا ... ويؤكل ماله العبد الطريد

ولعل القارئ يعرف أن ابن ميادة ، يشير فى بيته الثالث ، إلى أن بنى ظالم قومه ، سلبو عقبة بعيرا له وأكلوه ، فمن أجل ذلك يفخر ويعد خاله عبدا طريدا

لقد أصبح كل شىء هيّناً مقبولا فى نظر ابن ميادة ، إلا أن يهجو أحد قومه ، أو يبغى على عشيرته ، أو يعرض اليهم بالنقد حقا أو باطلا ، فتثور عند ذلك ثائرته ويجيش صدره حقدا عليه ، وتطير منه لواذعه وقوارصه ، فتقع عليه ، تجلله

ذاما، وتكسوه عابا، لا يعرف الهوادة فى ذلك، ولا تأخذه رحمة بكل من يمس بالسوء قومه. مهما تكن أواصر المودة، وشواجر الأرحام قوية بينه وبينه.

وكان فى الرماح أنَسَة وَظَرْفٌ، ودعابة ولطف. وكان مرحا فكها، يحرش أصدقاءه وزائريه على أمه، لينشدوها ما قال الشعراء فى هجائها فيثير بينهم وبينها معارك، و تثور هى لكرامتها، وتطاردهم بعكازتها، فينهض هو ليخلصهم منها، فتسبه وتشتمه، وتقول له « يابن من خبث وشرّ » وتهوى إلى عصا تريد ضربه بها، فيفر منها، ويمعن فى دعابته، ويقول: « ياصدقها ولم تكن صدوقا » (١).

وكان كثيراً ما يضرب بيده على جنبها، ويقول لها:

اعر نزمى ميــــاد للقوافى   واستمعيهن ولا تخافى

ستجدين ابنك ذا قذاف

يريد: إنى سأهجو الناس فيهجونك، فاستعدى لسماع الهجاء مطمئنة، لأنك ستجدين ابنك، يرمى بقذائفه، كل من يتعرض بهجاء له. وهذه الصورة الفكهة المثيرة المرحة، تمثل لنا ناحية جديدة من نفس ابن ميادة لم تكن معروفة فى فتيان العرب، ولا مألوفة لنا فيهم، ولقد أخطأ فهمها المبرد (٢) وعدها عقوقا بأمه، وقسوة منه عليها. ولقد أثر أنه كان شديد الحب لها. فخور بها، أليس هو القائل:

أنا ابن ميــــادة تهوِى نُجُبى   صلت الجبين حسن مُرَكَّبى

ترفعنى أمى ويمينى أبى   فوق السحاب ودُوَيْن الكوكب

حدّث أبو داود الفزارى أنها كانت امرأة صدق. ما رميت بشىء، ولا سبت، (٣)

وإن خير ما وصف به ابن ميادة نفسه فى تيهه وأناقته، وعنفه ولطافته قوله:

أنا ابن ميــــادة لبّاس الحلل   أمَرُّ مِنْ مُرٍّ، وأحلى من عسل

ولعل ما أسلفت يلقى اليك بفكرة شاملة، وصورة جلية عن ابن ميادة وبعض نواحيه النفسية، وسنعرض فى مقالنا التالى إلى غرامه ونسيبه ووصفه ومدائحه ومناقضاته بشىء من البسط والتحليل والتعليق. إن شاء الله.

حسن علوان

---

(١) ج ٢ ص ٢٦٤ أغانى طبع دار الكتب (٢) ج ١ ص ٣٤ الكامل

(٣) ج ٢ ص ٢٦٥ أغانى

فى شُعَاع الفَجْر !

بين شاعرٍ ودِيك

صيحةُ الديك تلك؟ يا ليلُ ماذا   أسنَا عنه طائفُ الأحلام؟
أم تولّى الظلام وانبثق الفجـ   ـرُ وأخفى معالمَ الإظلام؟
فصحا من رقاده يوقظ الكو   نَ ويطوى مضاجعَ النوّامِ
هاتفا : دارت الحياة فهبّوا   وأفيقوا من الكرى والمنَامِ
هتفاتٌ كأنّها نفخةُ الصو   رِ لبعثِ الورَى ونشرِ الأنامِ

صيحةُ الديك؟ إنها صيحةُ الدّهـ   ـرِ وسعىُ الحياة نحو الجهادِ
إنّها كالبشير حـين ينادى   بالأمانى . وكالنذير المعادى
فهى وعـد لشقوَتى بنهارى   وهىَ بشرٌ لنجدتى من سهادى
وهى حكمٌ بسطوةِ القدر النّا   فـذِ قهراً على رقاب العباد
وهى رمزٌ لدورة الفلك السّا   رى علينا يُطِلُّ بالمرصادِ
وهى معنى الحياة تصرُخُ حينا   ثم تُطْوَى بظلمةِ الألحادِ

صيحةُ الديك؟ إيهِ ياديك أرسلْ   خفقات الجناح بالتّصفيق
بين هذا االسكون والكون ساجٍ   فى خشوع وفى هـدوءٍ دقيق
وَجفُونُ الحياةِ ملء حواشيـ   ـهَا نعاسٌ سَرى لنوم عميق
فى هدوءٍ كحلم طفلٍ وديعٍ   حاطه العطفُ فى حنانٍ رفيق
هَدأة كالخلود بين الأمانى   نالها القلبُ من فؤاد شفيق
هدأة تستشِف منها الليّالى   سِرّ عهدٍ نأى بماضٍ سحيق

أيها الديك أنت فى القلب منّى لحبيب وصاته وَهوَ هاجر
أترَى أن أكون ديكاً وأنت الشّاعرُ السّاهدُ الجفونِ السّاهر
هات هذا الجَناحَ والريشَ والبُسْ حُلّتى تزدهى بها وتفاخرْ
هات هذا القوام والجيد واخلَع عُرفَك الشامخَ الرفيعَ المكابر
هات هذا الصِّياحَ أعطِكَ فنّى وقصيدى. وما احتوى قلبُ شاعرِ
أنت تشدو، اذا الظلام تولّى وأنا فى الظلام شدوى خواطرْ
ونشيدى عواطفُ النَّفس والقلب وخفقُ الحشا وذوب المحاجرْ
أين هـذا من النداء يوالى لحنه فى صياحِهِ ويجاهر
ليس من يبعث الأغانى غرورا مثلَ من يستشفُّها فى السرائر
فاليكَ الفراشَ خذهُ وهَبْ لِى وقفة فوق حائطٍ غير خائر
وإليكَ اليراعَ خُذْها وسطِّرْ ما يذيب الحشا ويفرِى المرائرْ
وسواء رضيت بالقسم أم لاَ فسأبقى على العهود الغوابر
إننى أنتَ إن أردتَ وإلاّ فأنا فى السّماءِ أحيا كطائرْ

هـذه نجمة الصّباحِ تراءتْ فى خفوق كمُهْجةِ الولهان
لَثَمَ الشرق ثغرها فتبدَّتْ صفحةُ الأفق مثل ذوب الجُمانِ
صمتَ الديك إذ بدَت وتهادى فى خُطَاهُ كفارس الميدانِ
راح يحدُو الدَّجاج وهى صِغار حيث تأوى مناهلَ الغُدْران
هذه تنفض الكرى بجناح أو تهيجُ الترابَ منها يدان
فى نعيمٍ ونشوةٍ واغتباطٍ ورضاء ونشوة الجـذلان

نعمةُ العيش للخلائق من كانوا عَدِيمِى الشعور والوجدان
إن بؤسَ الحياةِ فكر عميق وشعور يهيج خفقَ الجنان
ليتنى ما عرفت نفسى. فلا قدّرتُ حظّى. ولا شكوتُ زمانى
ليتنى ما خلقتُ قلبا فالهُو فى حياتى بناعمات الأمانى

فايد العمروسى

هـــو

بقلم ع . ا

أعرفه منذ طفولته كان وهو صغير يعيش فى جو من العاطفة والخيال ، يهب من نومه كل يوم قبل الشروق فينطلق فى نشاط وخفة ليلق على النيل أول نظرة إلى الحياة التى أخذت تستيقظ من سباتها وما يبرح يتملى هذا المنظر المشرق البهيج فى نشوة وسحر حتى يغمر الدنيا ضياء الشمس .

وكان يقف أمام النور والزهر مأخوذا خاشعاً كما يقف النساك فى صوامعهم خاشعين .

وكان للجمال والحب أكبر سلطان على نفسه حتى لقد خفق قلبه حبا ولم يعد العاشرة من عمره ، وأخفق فى حبه مرات عدة وامتحن فى جميعها امتحاناً قاسيا ولكن ذلك لم يصرفه عن أن يرى الجمال والحب أنفس ما فى الحياة .

وكان ألوفا كثير الاطمئنان إلى الناس يؤمن بأن خيرهم أكثر وصدقهم أغلب والصراحة فيهم أشمل . وكان هذا الاطمئنان إليهم يصرفه عن التنقيب والبحث عن عيوبهم فيمتزج بهم دون توق أو حذر . لا يأبى أى صداقة يأتى بها الغد ويحسبها فوزاً وربحاً . وكان شديد الايمان بالفضائل . يجد فى هذا الايمان بها راحة ولذة ويوقن أنها أكبر وسيلة للنجاح فى الحياة . فالصدق والصراحة والوفاء والاخلاص والعطف صفات كان شديد الاستمساك بها فى الجليل والحقير من شئون حياته .

وكان يستمد معرفته بالحياة من الكتب قوى الاقتناع بما انبث فيها من نظريات وآراء حتى ليناضل عنها نضالا شديداً كأنها نتاج بحثه وثمار تجربته ، وقد صرفه هذا عن أن يسير بنفسه فى حناياها متعرفا حقائقها التى تخفى وراء كثير من نفاق أبنائها وزورهم .

وعلى أنه ذو مزاج حاد ، ولم يبلغ ما كان يقدر له خياله من أمانىّ - لم يرقط عابسا ولا متشائما ولا قانطا متبرما بحياته .

واحزناه . ما أضعف هذا الانسان ، وما أبلغ هزيمته حين يصطدم بالحوادث! إن حادثة واحدة من الحوادث التى يزخر بها نهر الحياة كانت كافية لأن تجعل منه خلقاً آخر وأن تبدله تبديلا يتناول عناصر روحه ، فقد أصبح عزوفا عن مظاهر الجمال فى الحياة ينظر اليها ببلادة واشمئزاز ، وأصبحت عاطفة الحب عنده لا تعنى إلا الحماقة والضعف ، وانقلب يعد الشعراء الذين تغنوا بها فى أشعارهم حمق ومجرمين بما بذروه فى النفوس من بذورها الخبيثة .

وانتهى إلى النفور من الناس والإمعان فى البعد عنهم والحذر كل الحذر من أقوالهم وأعمالهم وحركاتهم . وآمن مع شوقى بما قال :

ولو صوَّروا من نواحى الطباع توالوا عليك سباع الصور

واستحال إيمانه بالفضائل باعتبارها وسيلة للنجاح ريبة وشكا وأيقن أن كثيرا من الرذائل كالكذب والغش وخبث الطوية والقسوة أبلغ فى الوصول إلى مايعده الناس نجاحا وظفرا وأن على من يتمسك بالخير أن يكون على استعداد لكثير من الخيبة والفشل وأن يروض نفسه على القناعة بالخير لذاته .

ثم انقطعت صلته بالكتب كما يقطع المرء صلته بالصديق يخذله فى أحرج مواقفه .

وكذلك ارتد يؤوساً قانطاً لا يستطيع شىء فى الحياة أن ينزع حجاب نفسه.

حقا إن الإنسان لضعيف خوّار وإن فيه لبلادة مخزية أمام صروف الحياة ، وحقا إن موقف العلم فى هذا لشاذ بل شائن . فقد منح كل عنايته لعلاج الجسم دون علاج الروح فأزاح الحجاب عن كل علة تنتابه وجهد أن يضع لكل داء دواء ووفق فى كل هذا توفيقاً بالغا ، ولكنه ترك مرضى الأرواح يجاهدون آلامهم فى قنوط ويأس كما يترك الجبناء رفاقهم مثخنين بجراحهم فى ساحات القتال ، وإنه لحق أيضاً أن الزمن يضع مراهم لجراحهم فلا تظل تقطر دما ولكن ما أعجز الزمن عن أن يرد بشاشة مفقودة أو بهجة مسلوبه .

ع . ا
مدرس بالمدارس الثانوية

اللص المحسن

كان لص ذات يوم قاصداً فى الليل داره
فرأت عيناه شيخاً تاجراً جر حماره
قد غدا ينهال ضرباً فيه إن يبصر عثاره
والحمار الهم يكبو إذ قضى مشياً نهاره
أشفق اللص عليه يا لماء فى حجاره
وهب التاجر ألفا وانثنى يبدى اعتذاره
ثم قال اذهب إذا شا هدت فى الصبح اصفراره
ثم بغل لفلان فيه كيت من أماره
فاغد ساومه عليه يحتمل عبء التجاره
وادفع الألف فما فى دفعك الألف خساره
نفذ التاجر ما قد قاله حسب الإشاره
ومضى اللص إلى البا ئع فى يوم وزاره
عرف اللص مكان الـ ألف منه بمهاره
وسعى فى الليل لما نشر الليل ستاره
وانثنى ينقب لما أن غفا الناس جداره
سرق الألف وولى تاركا تلك العباره
إننى طوراً مسىء وأخو الإحسان تاره

عن الفرنسية

محمد برهام
طالب بدار العلوم

طرائف اللغـــة

بقلم مهدى أحمد خليل

المفتش بوزارة المعارف سابقا

تحت هذا العنوان سنكتب فصولا فى سنن العرب فى كلامها، ومختلف لهجاتها وفى طرف من فقه لغتها، وشرح بعض الألفاظ والجمل التى استبهم معناها، وذكر ما يرادف العامى والدخيل، ونحو ذلك مما يحتاج إليه طالبو التفقه فيها، والراغبون فى الوقوف على أسرارها.

تأريخ الـكتب

التاريخ (فى اللغة): تعريف الوقت، والتوريخ مثله، يقال أرَّخ الكتابَ ليوم كذا وورَّخه يوم كذا، أى وقَّتَه، ويقال أيضا: أَرَخْتُه أرْخا، فهو مأروخ وآرخته فهو مؤارخ.

وفى الاصطلاح: تعيين وقت الأحداث بإسناده الى وقت حدوث أمر عظيم.
والتاريخ نوعان: شمسىّ، وهو المبنى على دوران الشمس؛ وقمرىّ، وهو المبنى على دوران القمر. والثانى هو الذى يجرى به العمل عند الفقهاء

والتاريخ يحمل على الليالى دون الأيام، لأن أول الشهر ليلة، ولو حُمِل على الأيام سقطت من الشهر ليلة، ومن أجل هذا يراعى التأنيث فيه. وليس فى العربية موضع يغلب فيه المؤنث على المذكر إلا فى التاريخ، وأما غيره فيغلب فيه المذكر على المؤنث، فيقال: الزينبات ومحمد اقتصدوا فى مالهم، والفواطم وحَسَن جادوا بما فى أيديهم للمعوزين، وكذا تقول لرجل معه خمس نسوة: هذا سادس ستة، أى أحد ستة. فتغلب المذكر على المؤنث وتثبت التاء؛ وتقول: صمنا

منذ ثلاث ، فتغلب الليالي على الأيام وتحذف التاء . وإذا ميزت العدد بالليلة ألحقت التاء بصفتها ، تقول كُتِبَ لإحدى عشرة ليلة خلت من الشهر ، ولثلاثَ عشرةَ ليلة خلت أو بَقِيَتْ ، وإذا ميزته بالليالى ألحقت بصفتها نون جمع النسوة فتقول : كُتِبَ لأربعٍ بقين ، ولعشر بقين ، على المختار ، لأن الأولى مراعاة اللفظ .

والمختار أن يقال فى أول ليلة من الشهر : كُتِبَ غُرَّةَ شهر كذا ، ومُسْتَهَلَّه ومُهَلَّه ، أو لأول ليلة منه ، أو لغرته ، أو لمُهَلِّه ، أو لمُسْتَهَلِّه ، ومنعوا أن يؤرخ ما يكتب فيها بليلة خلت لأنها لم تمض .

(غُرَّة كل شىء : أوله . ومُهَلّ : اسم مفعول ، من أُهِلَّ الهلال : ظَهَرَ . ومُسْتَهَل : اسم مفعول من اسْتُهِلَّ الهلالُ ظهر) .

وفى اليوم الأول من الشهر يقال : كُتِبَ فى أول يوم من شهر كذا ؛ أو لأول يوم من شهر كذا ، أو أولَ يوم منه ولِلَيلة خلت منه . وفى الليلة الثانية يقال : كتب لليلة الثانية من شهر كذا . (ويجوز هذا الاستعمال إلى آخر ليلة من الشهر) . وفى ثانى الأيام يقال : لليلتين خلتا . وفى ثالثها : لثلاث ليال خَلَوْنَ ، وهكذا إلى عشر ليال خلون ، بإرجاع النون التى هي ضمير الجمع إلى الجمع . (وذلك أولى من خلت ، لأن مراعاة اللفظ أولى من مراعاة المعنى) . وفى اليوم الحادى عشر إلى الرابع عشر تقول : لإحدى عشرة ليلة خلت ، ولاثنتى عشرة ليلة خلت ، ولأربع عشرة ليلة خلت ، بضمير الفرد المستكنّ . (ويجوز خلون حملا على المعنى ، والأولى مراعاة اللفظ كما تقدم) .

وفى منتصف الشهر يقال : للنصف من شهر كذا ، وهو أولى من أن يقال : لخمس عشرة ليلة ، خلت ومن أن يقال : لخمس عشرة ليلة بقيت . وفى السادس عشر : لأربع عشرة ليلة بقيت ؛ بإفراد الضمير ، وهكذا إلى التاسع عشر . وفى العشرين يقال : لعشر ليال بَقِين . (وهو أولى من بقيت) . وفى الحادى

والعشرين يقال : لإحدى عشرة ليلة بقيت إلى السابع والعشرين . (وذلك أولى من بقين) . وفى الثامن والعشرين : لليلتين بقيتا . (إذا كان الشهر ثلاثين ليلة) . وفى التاسع والعشرين : لليلة بقيت (إذا كان الشهر ثلاثين ليلة) . وفى الليلة الأخيرة يقال : كُتب لآخر ليلة من شهر كذا أو سَلْخه ، ولا يقال : لليلة بقيت . لأن الكاتب لا يزال فيها . وفى آخر يوم من الشهر يقال : كتب آخرَ يوم من شهر كذا ، سَلْخه .

وسَلْخ : مصدر أقيم مقام الزمان ، يقال : سَلَخنا شهر كذا نَسْلَخُه ونَسْلُخُه سَلْخا : صرنا فى آخر أيامه .

واللام فيما تقدم يقال لها لام الوقت ، أو لام التاريخ ، ومعناها الاختصاص ، وهو هنا على ثلاثة أضرب : الأول اختصاص الفعل بالزمان لوقوعه فيه ، نحو : كتبت لغُرَّة شهر كذا . الثانى اختصاصه به لوقوعه فيه ، نحو : كتبت لليلة خلت . لأن خلت تشعر بوقوع الكتابة بعد الليلة . الثالث اختصاصه به لوقوعه قبله ، نحو : كتبت لليلة بقيت ، لأن بقيت تشعر بوقوع الفعل قبل الليلة . ويصح فى جميع ماتقدم أن تقول مضت بدل خلت ، وأن تأتى بلام الاختصاص أو تحذفها . هذا وإن الأولى أن تستعمل خلت لأقل من النصف ، وبقيت لأكثر منه . وحاصل ما تقدم مذكور فى قول ابن مالك فى كافيته وهو :

وراع فى التاريخ ذى الليالى ... لسبقها بليلة الهلال
فقل : خلَونَ وخلت وخلَتا ... من بعد لام خافضٍ ما أثبتا
وفوق عشر فضلوا خلت على ... خلَون واعكس فى الذى قد سفلا
وغُرَّةُ الشهر ومُسْتَهَلُّهُ ... أولُه وهكذا مُهَلَّه
فواحد منها انصبَنْ بعد كَتَب ... أو قل لأولى ليلةٍ منه تُصِبْ
وفى انقضا الأكثرِ قالوا بَقِيَتْ ... ثم بَقِينَ كخلَوْن وخلت
وسَلْخه قبل انسلاخه إذا ... ما آخرا عَنَيْتَ وقِّيتَ الأذى

والأصل في التاريخ الاسلامى أن أبا موسى الأشعرى كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أنه تأتينا من أمير المؤمنين كتبٌ لاندرى أيها نعمل به ؛ فقد قرأنا صَكًّا (١) كتب فيه شعبان ، فلم ندر أيّ الشعبانَيْنِ الماضى أم الآتى . وقيل : رفع لعمر صَكٌ كتب فيه شعبان ، فقال أى شعبان هو ، ثم قال إن الأموال كثرت فينا ، وما قسمناه غير مؤقت فكيف التوصل إلى ضبطه ؟ فقال له ملك الاهواز ، وكان قد أُسِرَ في فتح فارس وأسلم على يد عمر : إن للعجم حسابا يسندونه إلى من غلب من الأكاسرة ، ثم شرحه لهم وبين كيفيته . فقال عمر : ضعوا للناس تاريخاً يتعاملون به ويضبط أوقاتهم ، فذكر له تاريخ اليهود فما ارتضاه ، ثم تاريخ الفرس فما ارتضاه ، فقال : نؤرخ من لدن هجرة النبى صلى الله عليه وسلم لأنه لم يُخْتَلَفْ فيها ، بخلاف مَبْعَثِهِ وولادته ، وأما وقت وفاته ، وإن تعيّنَ ، فلا يحسن جعله أصلا ، ووقت الهجرة وقت استقامة الاسلام ، وتوالى الفتوح ، وغلبة المسلمين وكانوا يُعَيِّنُون قبل ذلك كل سنة باسم ماوقع فيها ، كسنة الإذن بالرحيل من مكة الى المدينة ، وسنة الأمر بالقتال . وكانوا على عهده صلى الله عليه وسلم يؤرخون بسنة المَقْدَم وبأول شهر منها ، وهو ربيع الأول على الأصح .

وقيل لم يكن فى صدر الاسلام تاريخ إلى أن ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وافتتح بلاد العجم ودوّن (٢) الدواوين وجبى الخراج وأعطى الأعطية ، فقيل له ألا تؤرخ ؟ فقال : وما التاريخ قيل له : شىء كانت تعمله الأعاجم يكتبون فى شهر كذا من سنة كذا ، فقال عمر : هذا حسن . فأرِّخوا ، فقال قوم : نبدأ بالتاريخ من مَبْعث الرسول ، وقال قوم : من وفاته ، وقال قوم : من الهجرة . ثم أجمعوا على الابتداء بالتاريخ من الهجرة ، ثم قالوا : بأى الشهور نبدأ ؟ فقال بعضهم : نبدأ من

(١) الصك : الكتاب الذى يكتب فى المعاملات والاقارير . (مصباح)

(٢) التدوين : جمع الصحف والكتب ، ومنها الديوان ، وهو مجمع الصحف والكتب . وكان يطلق فى الأول على كتاب يجمع فيه أسامى الجيش وأهل العطية من بيت المال .

رمضان . وقال بعضهم : من المحرم لأنه وقت منصرف الناس من حجهم . وكانت الهجرة فى شهر ربيع الأول . وكان مَقْدَم الرسول المدينة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت منه . فقدم التاريخ على الهجرة شهرين واثنتى عشرة ليلة ، وجعل من المحرم . وكانت العرب تؤرخ بالحوادث المشهورة كواقعة الفيل (١) ، وحرب الفِجَار (٢) ، وبناء الكعبة .

وقد ولد الرسول صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وبين عام الفيل والفجار عشرون سنة (فى أواخر القرن السادس للميلاد) ، وبين حرب الفِجار وبناء الكعبة خمس عشرة سنة ، وبين بناء الكعبة ومبعث الرسول صلى الله عليه وسلم خمس سنين . والله أعلم .

(١) كان أبرهة الاشرم من ملوك اليمن ميالا إلى الديانة النصرانية ، وقد أراد أن يحول الحج من مكة إلى اليمن فامتنع العرب فجرد جيشاً لتخريب الحرم كان فى مقدمته فيل عظيم ، ولما قاربوا مكة أرسل الله عليهم طيراً أبابيل (جماعات) ترميهم بحجارة من سجيل (طين محروق) فجعلهم كعصف (ورق زرع يابس) مأكول .

(٢) كانت بين قريش ومن معها من كنانة ، وكان معهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعمره عشرون سنة ، وقيس عيلان فى الجاهلية ، وقد هزمت فى نهايتها قيس ، وإنما سميت بالفجار لأنها كانت فى الأشهر الحرم فيها القتال ، فلما قاتلوا فيها قالوا فجرنا ، ولم يكن فى أيام العرب أشهر منها .

فى سبيل اللغة القومية

بقلم محمد مهدى علام

المفتش بوزارة المعارف ، وعضو المكتب الفنى

هذه ترجمة لفقرة كتبها مؤلف أمريكى من علماء الفقه الدستورى ، فى فصل عقده ـ قبل الحرب العالمية ـ عن العاهلية النمساوية . ولعل فى هـذه الكلمة ردا بليغا على المستهترين من المصريين الذين يرون فى الاحتفاظ بلغتهم القومية خروجا على أساليب المدنية الحديثة ، وردا على أولئك الذين رحبوا بجهود المجمع اللغوى الملكى لأنهم ظنوا أنهم وجدوا فيها مرتعا خصبا للدعابة والتهكم ولو انتقصوا فى ذلك لغتهم ، وجرحوا بذلك كرامتهم القومية .

يقول الأستاذ لُورَنْس لَوِل فى كتابه : « الحكومات والأحزاب فى القارة الأوربية » (١) عند الكلام فى العاهلية النمساوية وتألفها من شعوب وأجناس مختلفة بلغ بها الأمر عند اجتماع ممثليها فى دار النيابة « الريشذرات » أنه رؤى من الضرورى استخدام ثمان لغات مختلفة لحلف اليمين الدستورية ، مع ملاحظة أن هذا العدد لم يشمل إلا جزءا صغيرا من اللغات واللهجات التى كان يتكلم بها سكان تلك العاهلية .

نزاع اللغات :

« إن أظهر صورة تشكلت بها مشكلة الأجناس فى النمسا والمجر هى النزاع القائم على استخدام اللغات المختلفة فى دوائر الحكومة وفى المدارس . وقد بلغ هذا النزاع فى بعض الأحيان مبلغا لا يخلو من السخف . فمن ذلك أن المجريين عند ما نالوا استقلالهم الذاتى فى سنة ١٨٦٧ أصروا على استعمال اللغة المجرية

(1) Lawrence Lowell, Governments Parties in Continentis Europe, vol ii, P 998 - 999.

دون غيرها فى مجلسهم النيابى . واصروا كذلك على ألا يتكلم بغير اللغة المجرية وفدهم المرسل إلى فينا للمفاوضة فى المسائل الخاصة بالحكومة الثنائية (أى حكومة النمسا والمجر) . ولقد كان إصرارهم هذا مثلا من أمثلة البطولة ، لأنه أعجز البارون بُويستْ ، مستشار العاهلية النمساوية أن يخاطب الوفد من غير أن يستعين بمترجم ؛ ولأنه كان فى ذلك الوفد نفسه أعضاء كانوا أعلم باللغة الألمانية منهم بلغتهم المجرية . ولقد حدث مرة أن اضطر أحد أقطاب السياسة المجريين إلى التنحى عن عضويته فى اللجنة المالية ، قائلا إنه وإن كان يعرف اللغة المجرية معرفة تكفى لإلقاء خطبة معدة ، فإن علمه بها لم يكن يكفى للإجابة عن الأسئلة غير المنتظرة التى قد تعرض فى أثناء المناقشة . كذلك أجبر موظفو السكك الحديدية على استعمال اللغة المجرية . ومما يروى أن أحد نظار المحطات ومهندسا شوهدا مرة وهما يحاولان محاولة عنيفة أن يتفاهما باللغة المجرية ، فلما أعيتهما الحيلة اضطر بأخِرَة إلى خرق القانون ، فاندفعا يتكلمان بالألمانية التى كان كلاهما على علم تام بها . ولو نظر إلى النمسا أولئك الذين يندبون دائما زوال الروح الوجدانى ، واندفاع الناس اليوم وراء الأغراض المادية دون غيرها ، لرأوا فيها مثالا ناطقا بعكس ما يزعمون . فإن من الواضح أن السلوقيين مثلا تتحسن حالهم كثيرا من الناحيتين الفكرية والمادية ، لو أنهم كلهم تكلموا اللغة الألمانية ، فإن أطفالهم يجدون مجالا أوسع لترقية حياتهم ورفع مستوى تعليمهم ، وتنمية ثروتهم ، وزيادة نفوذهم ، إذا هم تخلوا عن لهجتهم الوطنية واستخدموا جميعا لغة تفهمها الدوائر التجارية والطبقات المثقفة فى النمسا فليس إلا لاعتبارات دنيوية بحتة أن يُقضى عليهم بأن ينتهجوا سبيلا يشبه السبيل التى تسير فيها الأجزاء التى تتكلم بلهجة لاتينية من ولاية جِريسُونْ السويسرية ، حيث يجب على كل طفل أن يتعلم اللغة الألمانية فى المدرسة . ولكن جميع هذه القوميات النمساوية تشعر — وتشعر حقا — أن حياتها شعوبا متمايزة رهينة بمحافظتها على لغاتها القومية ، وهم على استعداد لأن يضحوا من أجل هذا الغرض بما قد يتاح لهم من الفرص لزيادة رخائهم المادى . » .

ولقد أعلن التاريخ حكمه بعد الحرب العظمى مصدقا لما جاء فى هذه الفقرة ؛ فإن هذه الشعوب قد أبقت على مشخصاتها ومميزاتها .

واحتفظت بروحها الوطنى بما أبقت من لغاتها . وتنفست الحرب عن تلك الدول التى قامت على أنقاض العاهلية القديمة :

المجر ، وتشكوسلوفاكيا ، ويوجوسلافيا ، وبولندة ، وأصبحت النمسا نفسها بالقياس إليها دويلة تحتاج إلى من ينصرها ويدفع عن استقلالها . « ولو شاء ربك ، لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ؛ ولذلك خلقهم » .

مهدى علام

الجمـــال والأنوثة

بقلم سيد قطب

المدرس بمدرسة دمياط الابتدائية

الأنوثة عنصر هام أصيل فى المرأة؛ ولكن «الأنثى» مع ذلك، لا تساوى «المرأة» ولا تعنيها بالضبط؛ لأن معناها يضيق عن معنى «المرأة» بقدر ماتضيق «الغريزة» عن شمول «الإنسانية» ورغباتها الفسيحة.

و«الأنثى» قد توجد حيث لاتوجد «المرأة»، وليس ذلك فى عالم الحيوان، بل فى عالم الإنسان كذلك؛ فكم من امرأة ليس لها من المرأة إلا الأنوثة، وقد عدمت نصيبها من الصفات الأخرى، التى تميزها من أناثَى الحيوان.

على أن الحيوان لا يستوى فى هذا البـاب أيضاً، والأنثى فى كثير منه، هى — فى الغالب — أكثر وأشمل من عنصر الأنوثة وحده؛ ومطالب الحياة فيها، لا تقف عند حد الغريزة ومطالبها، بل تتعداها إلى رموز وآمال فى «الطلاقة» البعيدة عن «قيد» الغريزة.

* * *

وذكر الطلاقة والتقيد، يتعجلنا الحديث عنهما قبل سواهما مما نحن فيه.

الغريزة قيد من قيود الحياة للأحياء، تضمن به عدم تفلتهم من قضاء لباناتها منهم، والمحافظة على ذاتها فيهم! ولا ريب أن للحياة فى كل حى لبانة وغرضاً؛ فهى حريصة على أن تبقى سليمة فيه؛ وهى تتقاضاه أن يذود عنها فى نفسه، وأن يحميها فى شخصه؛ وأن يقوم بكل التمهيدات والاحتياطات التى تضمن لها البقاء والدوام.

وهى تزوده بالغريزة سلاحاً فى هذه المهمة، وعناناً تشده به إليها إن هم بالفرار، أو التفريط فيما وكلت إليه.

وهي تثقل في هذه القيود ، كلما أحست فقر الحي من الأسلحة الأخرى ؛ وتتسامح فيها إذا رأت لديه عدة غيرها ، وقوة يستعيض بها عنها ، من فكر قوى ، أو إلهام سنيّ .

لذلك تثقل قيود الغريزة في أنواع الحيوان الدنيا ؛ وتخف كلما صعدت في درج الرقى ، حتى تصل للإنسان ، فتكون أخف وطأة ؛ لأنها تجد في قوى التفكير والإلهام فيه ، ضمانا في الكفاح ، فتعفيه من كثير من أسلحتها الساذجة وقيودها .

وليس أفراد الإنسان سواء بطبيعة الحال في هذا الشأن ، لأنهم ليسوا سواء في استعدادهم الفكرى ، ولا في نفوذهم الروحى .

وكذلك تفرق الحياة بين نوعى الجنس الواحد ، على حسب نصيبه من أداء أغراضها ، وضرورته لها ؛ وما من شك أن الأنثى ألزم للحياة من الذكر ؛ ونصيبها من حمل أعبائها أكبر ؛ ولذلك فإن الغريزة فيها أشد وأقوى من الرجل ، لأنها أفضل الأسلحة في نظر الحياة ؛ فهي لا تسمح للمرأة مثلا بالتفلت من الغريزة ، بمقدار ما تسمح للرجل ؛ ومن هنا كان الرجل أبعد نظراً ، وكانت المرأة أحذق عملا ؛ ومن هنا كذلك مال الرجل إلى التجريد والتعميم ، ومالت المرأة إلى المحسوس والواقع ، فهو عادة يبحث عن القاعدة وهي عادة تلتفت للمثال . ذلك أن الغريزة عملية واقعية ، والعقل نظرى خيالى بالنسبة لها .

٭٭٭

ونترك هذا المبحث — الذى يتسع لكلام كثير — إلى مبحث آخر يتصل بموضوعنا الأصيل ، ذلك هو « الأنوثة والجمال » .

فالأنوثة قوة — ولا شك — كما أن الجمال قوة . ولكنا نعتقد أنهما قوتان مختلفتان في طبيعتهما ؛ فالأولى قوة من قوى « الضرورة » المقيدة ؛ أما الثانية فهي قوة من قوى « الحرية » المطلقة ؛ والأولى ملتصقة « بالواقع » الساذج . والثانية متطلعة إلى « المستقبل » المرموق .

وأحب أن أؤكد هذا المعنى ؛ لأن الكثيرين يخطئون في إدراكه ، فيحسبون الأنوثة والجمال في المرأة قوتين ترميان إلى غرض واحد ، وترمزان لمعنى واحد .

ويرجع هذا الخلط إلى تلبس الواحدة منهما بالأخرى فى المرأة غالباً ، وصعوبة التفرقة بينهما فى معظم الأنظار ؛ كما يرجع كذلك إلى طغيان النظرة الغريزية عند اختلاف النوع ، على النظرة الفلسفية ، فقد تصطنع الغريزة جمالا غير موجود ، وتعير النوع الآخر زينة ليست له ، لتنال بذلك لبانة خاصة ؛ والدليل على هذا الاصطناع والإعارة ، أن ذلك الجمال الموهوم ، مايلبث عند هدأة الغريزة أن يزول ، ويطلع الإنسان على الحقيقة التى حجبتها عنه غمرة الغريزة وضرامها .

أما الجمال فقوة هادئة حقيقية ، وكثيراً ما تبدو مجردة عن الغريزة ، وأدلة ذلك يجدها الإنسان بسهولة فى جمال الطبيعة الصامتة ، وفى عالمى الطير والحيوان ، كما يستشعرها الرجل فى الرجل ، والمرأة فى المرأة . وفى هذه الأحوال جميعها ، لا أثر للغريزه ولا اصطناعها .

ويستطيع الرجل كذلك أن يحسن الجمال المجرد فى المرأة نفسها ، ولكن هذا يحتاج إلى قدر كبير من العقلية الفلسفية ، التى تستطيع التحليل والتجريد ، إلى مدى بعيد .

وما من شك فى أن المتعة الفنية بالجمال فى المرأة ، أرقى وأعمق من المتعة الغريزية بالأنوثة فيها . والحياة التى خلقت الغريزة قوة تحافظ بها على الواقع المقيد ، خلقت الجمال قوة تدنيها من المستقبل الطليق .

سيد قطب

شعراء مجهولون

الشاعر الفارس

أبو محجن الثقفى

بقلم محمد محمد راشد

من خريجى دار العلوم

منزلته : فارس لم ينصفه التاريخ ، وقد كان جديراً أن يذكره بجانب خالد ابن الوليد ، وسعد بن أبى وقاص ، وغيرهما من أبطال العرب ، وسنرى فى حديثنا عنه أنه حقيق عليه الظهور ، جدير بالذكر والثناء . وهو إن انتقصه المؤرخون حقه فقد أعطاه الأدباء نصيباً غير منقوص من عنايتهم ، فذكره ابن سلام فى طبقات الشعراء ، وكذلك ابن قتيبة . وله ديوان مخطوط بدار الكتب المصرية شرحه أبو هلال العسكرى ، وكتب له الأستاذ المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ترجمة منقولة عن الشرح المذكور ، وترجم له صاحب الأغانى فى الجزء الحادى والعشرين من أغانيه .

نسبه ونشأته : يكاد يتفق الرواة فى نسبه ، فهو عبد الله عمرو بن حبيب ، من ثقيف ، وفد مع وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع من الهجرة ، وأسلم مع من قدم وأدرك عصر أبى بكر وعمر ، وعده صاحب الأغانى وغيره من المخضرمين . وعند موقعة القادسية يخفى ذكره بين ثنايا التاريخ .

نشأ أبو محجن فى الطائف فى الجنوب الشرقى من مكة ، وقد اشتهرت بجودة مزارعها وطيب هوائها وخصوبة أرضها ، وكثر بها العنب والزبيب ، وكانت مصيفا للمترفين ومسكنا لثقيف التى أنجبت شعراء مجيدين ، وقادة محنكين ، منهم أمية بن أبى الصلت ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، وغيرهما .

غنى وثراء ، ونعمة وسراء ، وشرف أثيل ، ومجد أصيل ، وعنب وزبيب ـ بين

كل ذلك تربى أبو محجن فظهر ظهور فتيان العرب ، لاهيا ، لاعبا ، شاربا للخمر ، مدمنا إلى حد بعيد ، وبلغ عمر قوله :

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فإننى أخاف إذا مامت أن لا أذوقها

وقوله :

إن كانت الخمر قد عزت وقد منعت وحال من دونها الإسلام والحرج
فقد أباكرها ريّا ، وأشربها صرفا ، وأطرب أحيانا فأمتزج

فحدّه عمر حد الشرب فلم يزدجر ، وشرب فحده ، حتى حد سبع مرات أو ثمانيا ؛ ولما يئس عمر رضى الله عنه من إصلاحه ، وضاق به ذرعا ، قرر أن ينفيه فى جزيرة (حضوضى) وكانت منفى أمثاله من الخلعاء المستهترين وبعث معه حرسيا هو ابن جهراء (كان أبو بكر يستعين به على مثل أبى محجن) وأوصاه ألا يأخذ سجينه سيفا معه . ولكن أبا محجن يعمد إلى حيلة عجيبة إذ يحمل غرارتين ملئتا دقيقا ، وجعل نصل سيفه فى غرارة وجفنه فى أخرى ، ودفنهما فى الدقيق ، حتى إذا لقيا من سفرهما نصبا جلسا للغداء ، فقام الثقفى يوهم أنه يخرج دقيقا فأخرج سيفه ووثب على الحرسى فخرج يعدو على بعيره راجعا إلى عمر . وقال فى ذلك أبو محجن :

الحمد لله نجانى وخلصنى من ابن جهراء والبوصى[1] قد حبسا
من يركب البحر والبوصى معترضاً إلى حضوضى فبئس المركب التمسا

ويظهر أن نفسه قد ملت اللهو والعبث وأراد أن يلتحق بالمجاهدين فى سبيل الله الذين يقتلون ويقتلون ، فتوجه إلى القادسية حيث المسلمون والفرس فى حرب وكفاح .

ويذكر الرواة سببا لنفيه غير هذا فيقولون إنه كان يشبب بالشموس أخت الحجاج الثقفى ، وحاول النظر إليها فخانته الحيل ، فآجر نفسه من عامل يبنى بجانب منزلها وأطل عليها من كوة فى البستان وقال :

ولقد نظرت إلى الشموس ودونها حرج من الرحمن غير قليل

---

(١) السفينة

فاستعدى زوجها عليه عمر فنفاه. وكل من السببين كاف لغضب عمر عليه ونفيه. ويقول بعض الناس إن عمر رضى الله عنه بعث إلى سعد بن أبى وقاص أن يحبس أبا محجن ويقيده، وليس ذلك ببعيد. وعندنا أن سيرة أبى محجن، وحبه للخمر، وحدّه فيها مرات، وقوله فيها الشعر الكثير كقوله:

وإنى لذو صبر وقد مات إخوتى ... ولست عن الصهباء يوماً بصابر

وقوله

ألا فاسقنى يا صاح خمراً فإننى ... بما أنزل الرحمن فى الخمر عالم

وجد لى بها صرفا لأزداد مأثما ... ففى شربها صرفا تتم المآثم

كل هذا كاف فى حبسه. ومهما يكن من شىء فقد حبس أبو محجن وقيد، وبقى مقرنا فى الأصفاد، مكبلا فى الأغلال، حتى كان يوم أرماث (يوم من أيام الفارسية). وكانت بسعد جراحة حرمته القيادة وألزمته القصر فولى على الخيل خالد بن عرفطة واشتبك المسلمون والفرس وحمى الوطيس وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، عظم ذلك على الفارس المقيد فتوسل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه ونذر إن سلمه الله أن يرجع إليها مقيدا فرفضت فقال:

كفى حزنا أن تطرد الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً علىّ وثاقيا

إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت ... مصاريع من دونى تصم المناديا

أرينى سلاحاً لا أبالك إننى ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

فإن مت كانت حاجة قد قضيتها ... وخلفت سعدا وحده والأمانيا

وقد شف جسمى أننى كل شارق ... أعالج كبلا مصمتا قد برانيا

فلله درى يوم أترك موثقا ... وتذهل عنى أسرتى ورجاليا

حبيسا عن الحرب العوان وقد بدت ... وإعمال غيرى يوم ذاك العواليا

ولله عهد لا أخيس بعهده ... لئن فرجت ألا أزور الحوانيا (١)

وهو شعر فارس أضرّ به القيد وآلمه الأسر، تذهب نفسه حسرات على ما يرى يطلب فكاكا لينصر قومه ويعز جنده ويهزم عدوه. فلما سمعت سلمى الشعر

(١) الحوانى: جمع حانية، وهى الحانوت.

المؤثر رقت له وأعطته البلقاء فرس سعد بعد إباء منها ، فامتطاها ونزل الميدان ؛ وهنا يقول ابن الأثير : « . . . حتى كان بحيال الميمنة كبر ثم حمل على ميسرة الفرس ثم رجع خلف المسلمين وحمل على ميمنتهم وكان يقصف الناس قصفا منكرا وتعجب الناس منه وهم لا يعرفون ، فقال قوم هو الخضر ، وقال آخرون لولا أن الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا إنه ملك ، وقيل غير ذلك . وكان سعد يقول « لولا محبس أبى محجن لقلت الطعن طعن أبى محجن والصبر صبر البلقاء » حتى إذا انتصف الليل تحاجز العسكران وتوالى النصر للمسلمين وكتب لهم الفوز وانتهت القادسية بالفتح المبين ، ورجع أبو محجن مختالا فخورا قائلا فى ذلك :

لقد علمت ثقيف غير فخر ... بأنا نحن أجودها سيوفا

وليلة قادس لم يشعروا بى ... ولم أشعر بمخرجى الزحوفا

فإن أحبس فقد عرفوا بلائى ... وإن أترك أذيقهم الحتوفا

رجع وقد أوفى بما عاهد سلمى عليه فوضع رجليه فى القيد ، ولما أصبح سألته سلمى فيم حبسك ؟ قال كنت صاحب شراب وأنا امرؤ يدب الشعر على لسانى . فأخبرت سعدا خبر أبى محجن وصالحت زوجها وكانت عليه غاضبة ، فأطلقه سعد وقال له : لست ضاربك أبدا . فقال أبو محجن : وأنا والله لست شاربها أبدا ، وإنما كنت أشربها لما كنتم تطهروننى بالحد وقال :

ألم ترنى ودعت ما كنت أشرب ... من الخمر إذ رأسى ـ لك الخير ـ أشيب

فلما دَرَوْا عنى الحدود تركتها ... وأضمرت فيها الخير والخير يطلب

وكنت أروّى هامتى من عقارها ... إذ الحد مأخوذ وإذ أنا أضرب

وقال لى الندمان لما تركتها ... أهذا الجد منك أم أنت تلعب

وقالوا عجيب تركك اليوم قهوة ... كأنى مجنون وجلدى أجرب

سأتركها لله ثم أذمها ... وأهجرها فى بيتها حيث تشرب

وحبيب الينا هذا الشعر الطريف الذى تخف الأذن لسماعه ويتحرك اللسان ليعجل به ، وأغلب ظنى أنه قال هذا الشعر وهو فى حال بين الإقدام والاحجام والأمل واليأس ، والرغبة والرهبة ، لأنه ما ودع الخمر وما قلاها إلا حينما اشتعل

رأسه شيبا ، ثم هو يدعى أنه كان يرتوى منها ما دام يطهر بالحد ، وليس هـذا بمانعنا من اللائمة عليه ثم ماله يقول « وأضمرت فيها الخير » لقد دل على أشياء فى نفسه أو أنه فى صراع عنيف بين عقله وشهوته وأنه متردد خائف لا يقوى على تركها البتة . ولـكن كل مافى طوقه أن يقول « سأتركها لله ثم أذمها » وهذا الشعر طريف حقا ، وبخاصة قوله « وقال لى الندمان » فهو يمثل حالة بين الندامى عنـد ما يعلمون أن نديما منهم قد نأى عنهم وهجر شرابهم ورجع إلى ربه ؛ حينئذ يتساءلون عن النبأ العظيم . أهـذا لجد أم لهزل ؟ ويملؤهم العجب كأنه مجنون أو أجرب . وهـذا تشبيه جميل رائع ، وتمثيل صادق لما بين المتنادمين ومن على شاكلتهم إذا ترك أحدهم عادة مألوفة .

ويظهر أنه ترك الخمر حقا وتاب توبة نصوحا ؛ كما شهد بذلك على رضى الله عنه فيما يأتى . وقال فى ذم الخمر :

يقول أناس : اشرب الخمر إنهـا ... إذا القوم نالوها أصابوا الغنائما
فقلت لهم مهلا كذبتم ألم تروا ... أخاها سفيها بعـــد أن كان حالما
وأضحى وأمسى مستخفا مهيّما ... وحسبك عارا أن ترى المرء هائما

وقال :

أتوب إلى الله الرحيم فإنه ... غفور لذنب المرء ما لم يعاود
ولست إلى الصهباء ماعشت عائدا ... ولا تابعـا قول السفيه المعاند
وكنت وقد أعطيت ربى مواثقا : ... أعود لها والله ذو العرش شاهدى
سأتركـها مذمومة لا أذوقها ... وإن رغمت فيها أنوف حواسدى

شعره : له شعر فى الغزل لـكنه لايشرف به فقد كان يشبب بابنة حبر يهودى وقال فيها :

تقول ابنة الحبر اليهودى ما أرى ... أبا محجن إلا وللقلب ذاكر
فإن ابنة الحبر اليهودى تيمت ... فؤادى فهل لى من سمية زاجر

وشبب بالشموس السابقة الذكر ؛ وأكثر شعره فى الخمر وقد ذكرنا أغلبه وتحدثنا عنه وبقيت له قصيدة كانت تعجب عمر رضى الله عنه ، وأعجبت عليـا

ومعاوية فيروى صاحب الأغانى أن ابن أبى محجن دخل على عبد الملك (أو معاوية) فقال أليس أبوك الذى يقول « إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة » فقال له لو شئت لذكرت ما هو أحسن من هذا فقال وماذا ؟ قال :

لا تسألى الناس عن مالى وكثرته وسائلى القوم عن دينى وعن خلقى
قــد يعلم الناس أنا من سراتهم إذا سما بصر الرعديدةِ الفَرِق
أعطى السنان غداة الروع نحلته وعاملُ الرمح أرديه من القَلَقِ
عف الإياسة عما لست نائله وإن ظلمت شـديدُ الحقد والحنق
وأكشف المأزِق المكروب غمّته وأكتم السر فيـه ضربة العنق
قد يُقْتر المرء يوما وهو ذو حسب وقد يثوب سوام العاجز الحمق
قد يكثَر المال يوما بعـد قلته ويكتسى العود بعد الجدب بالورق
وقـد أجود وما مالى بذى فَنَعٍ وقـد أكر وراء المحجَر البَرِقِ
واهجر القول ذا حُوب ومنقصة وأترك القول يدنينى من الرهق

فقال معاوية . إن كنا أسأنا لك القول فإنا لنحسن لك الصفد ، وأكثر له العطاء . وقد سأل عمر عليا : من أشعر الناس ؟ قال الذى أحسن الوصف . وأحكم الرصف ، وقال الحق . قال: ومن هو ؟ قال: أبو محجن فى قوله لا تسألى الناس . قال عمر أيدتنى يا أبا الحسن أيدك الله ثم قال على صدق فى كل ما قال لولا آفة كانت فى دينه من حبه الخمر وقد تركها أنفا والأنف من الكرم والكرم من الايمان لقوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد ذكرنا له هـذا الشعر القوى الرصين المحكم . وإن كان القدماء يعجبون بمثل قول القطامى : « إنا محيوك فاسلم أيها الطلل » أو بمثل : إنا محيوك ياسلمى فحيينا . فانا لنعجب بمطلع قصيدة أبى محجن : « لا تسألى الناس عن مالى وكثرته » ولقد افتتح الشاعر قصيدته بما يقوى به دينه وقد طال اتهامه فيه ثم انتقل إلى فخر بشجاعته واعتزاز بقوته إذا شخص بصر الجبان خوفا وهلعا . وقوله « أعطى السنان » معنى جميل ، فهو يقدم لسيفه نحلا من القتلى يوم الفزع ويروى رمحه دما . وأجمل منه أن يطعن الطعنة الواسعة عن صنعة فتتسع وتفهق دما ، فمن هولها لا يحس لها

نبض ولسعتها لا يسبر لها غور . ثم وصف نفسه بالعفة فى موضعها والثورة على ظالمه والنقمة منه وأنه رجل يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويكتم السر ثم أتى بحكم بالغة فى وصف الدهر الذى يقل ويكثر ويغنى ويفقر ، وأنه يقول مالا إثم فيه ولا غرم .

وشاعرنا مقل جيد ويظهر أنه قال قصيدته هذه التى حفظها الرواة عند ماذهبت عنه الغواية وصحا قلبه وأقصر باطله ، وعرى عنه أفراس الصبا ورواحله ، فجاءت الحكمة بين ثناياها ، ودلت على نضج شعره ، ورسوخ الملكة عنده . وقد يظن كثير من الناس أننا قصرنا فى ذكر أشعاره ولكنا قلنا إنه مقل وما بقى له من شعره لا يستحق الذكر .

أخلاقه : كان شريفا كريما جوادا ذا مروءة وشجاعة نادرة ورأى سديد وذكاء وعفة وأنفة وخلق كريم ، وحسبنا منه أن يكون بطل القادسية المغوار وفارسها المشهود له بالنصر المبين وهو معدود من أولى النجدة والبأس الشديد والممهد لسعد السبيل والفاتح له الطريق والشاعر المفلق والفارس المجهول ؟

محمد محمد راشد

الفجر فى الريف

بقلم على شرف الدين

المدرس بمدرسة بنى سويف الابتدائية

وليلة قضيتها ساهراً والنجمَ ، أقضى الليل فى عدّه
حتى أشاع الديك نعى الدجى وسُلَّ سيف الصبح من غمده
فالكون معقود اللهَا صامت أيأس مَن ناداه مِن ردّه
كأنه فى صمته راهب فى الله ، مايلهيه عن عبده
أو ثاكل أودى لها واحد رأت ذهولَ الحزن فى فقده
أوخدن كاس مولع بالطلا أسرف حتى غاب عن رشده
والأفق وهنان الكرى حالم حلم الغرير الطفل فى مهده
مرونق الصفحة صافى السنا كرونق السيف بإفرنده
أطلق فيه الفجر خلجانه فِضّيّة كالنيل فى رِفده
منمنم يختال فى زخرف ما حازه رضوان فى خَلده
ودّ سنيُّ الروض لو ضمه وصوح الريان من ورده
حتى إذا هب نسيم الصبا فنبه الغريد فى عوده
ألقى عليه الصبح ثوب الضنى وذوّب العشق على خده
دنيا جمال نام عنها الورى والمرء كم يغفل عن سعده
لو يعرف النائم مقدارها ما آثر النوم على سهده
محبوكة الزخرف جل الذى أبدع هذا الصنع من عنده

٭٭٭

كم عند فجر الريف من خالد يعيا بيان الشعر عن نقده
كأنه فى العين دنيا المنى جاءت لمفجوع على جَدّه
تبدو به القرية فى هالة ترنو لجر الشرق فى وقده

غريقة فى السحر يتلو الرُّقى غرِّيدُها الصادح فى عوده
نامت بحضن النيل ماروَّعت من جزره يوماً ولا مدِّه
تنفس الصبح على عطفها تنفس المولود فى مهده
ونظم الريحان من حولها فرائد الطَلِّ على جيده
ونسمة فى المرج وهنانة روت عن الروض شذا ندِّه
كأنها من لطفها خاطر بالنفس خافٍ دقَّ عن حده
أحنى من الأم على واحد لا شىء غير الله من بعده
وهاتفات فى ذرا ناضر والغصن كم يحلو بغريده
ما أرسلت أترابها مثلها لا فى غضَى نجد ولا رنده
تتلو على الآذان ما وقعت بنان (إسحاق) على عوده
أيقظن بالمعمود ذكرى الهوى فزِدْنه وجداً على وجده

٭٭٭

وقائم فى مسجد سُحرة وسيف هذا الصبح فى غمده
مذهَّب النغمة سحريّها يرفّ نور الله فى فوده
كقائد يغزو جيوش الدجى ملائك الرحمة من جنده
أهاب بالريف فأصغى له من شيبه تترى ومن مُرْده
من كل نهب للضنى بائس حزت صروف الدهر فى كبده
ردّوه عن غرس رعى سقيه كما يُردّ النحل عن شهده
ترنّح العزّ على سعيه ومالت النُّعمى على كدّه
أودى به النسيان من قومه فعاد كالميت فى لحده

٭٭٭

وكاعب تمشى إلى منهل مشى القطا هوْنا إلى وِرْده
عذراء وشّى الطهر أذيالها ولفّها الإحصان فى بُرَده

إذا دهاهـــا جرْس خلخالها   أبصرت ظبي القاع في صدّه
ظبي رأى النسيان في كوخه   والقصر مفتون على قرده
ما وسوس الحلْي على صدره   لكن غناه الطهر عن عقده
يكاد ماء النهـــر يجري له   ولا ينال المشي من جهده
إذا دنا والشط في ثورة   صفا ونام الموج من ودّه
ريفية في جفنهـــا ناعس   كم سال نعمان على حدّه
يجري اللظى والماء في وجنة   قد ألفت شيئا على ضـــدّه
وكم بهذا الريف من لؤلؤ   ما فكر الغواص في صيده
مهد الظباء الكُحْلِ نجديّة   من كل ريم مدّ من جيده
أشكو إلى الله هوى شادن   أُمسك أحشائي على بُعده
قد يُخلق النأي جديد الهوى   وحبنا باقٍ على عهـــده

رثاء طفلة

أحقا على الزهر يسطو القَدرْ ويقطفـــه فى ربيع العُمُرْ
ويبغى على وردة كالدهـا ن ويسلبها من أصيص الزهَرْ
أما كان عدلا بقـاء الأزاهـير حتى يفوح شذاها العطر
ويعبق طيبـا فيُحيي النفو س ويرضى القلوب ويسبى النَّظَرْ

☼☼☼

فيادمية قد كساها الجمال بأثوابه الفـائقات الغرَرْ
ويا زهرة نال منهـا الخريف بهوج الرياح فـلم تستقر
سـلى الله ربك يُرخى على أبيك من الصـبر خير الدُثرُ
وقصّى على الحـور بالله ما فتحت له من مهاوى الفِكَر
وما فعـل الحزن فى نفسه وفى رأسه من بياض الشعَرْ
وما صار فى قلبـه من ندو بٍ وما سال من دمعه وانتثر
فيـا طالما حـذِرت نفسه عليك ولم يُغنِه ما حذِر
لقد كنت نور الدجى فى الحيـاة وكنتِ سنَـا ليلها المعتكر
أحاطك بالعطف جهد اليمين وأولاك من حبه ما قدر
فصبراً أباها على ما رزئت لحسن المثوبة أجرُ الصبُرْ
وفيمَن مضوا سلوة للحزين وحسبك أن مات خير البشرْ
سقى الله قبراً حوى حسنها بغيث غزير الحيـا منهمرْ
وأسكنها من فسيح الجنان مقاعد صـدق بأعلى السُرُرْ
وأوزعك الصبر من فَضلـه ونحّى طريقك عن كل شر
فصبرُ الكرام على ما قضى إلٰه الورى ، خيرُ ما يدخرْ

عبد الخالق المسيرى
المدرس بمدرسة المعلمين الأولية بطنطا

الجـــوارى

نشأتهن ـ أثرهن فى الغناء العربى

بقلم عبد اللطيف المغربى

المدرس بمعهد التربية للبنات

لعلنا حين نعالج هذه الناحية المجهولة . ونسلك هذا الوادى الأفيح — نكون قد وفقنا الى أن نطالع قراء هذه الصحيفة بأزاهير ممتعة من الغناء والأدب . ونشرنا أمامهم صفحة عبقة ذات عبير ندى من الأخبار والملح التى طال احتجابها فى بطون الصحف . وأطلقنا إليهم صادحا من دوحة الفن العربى يهزهم بنغماته المشجية ويقيد الأسماع بلحونه المطربة . وافتلينا لهم صورة باسمة تتراءى على قسماتها ألوان بهيجة تشع منها أنوار هذه العصور الماضية ، المحببة الى النفوس بما حوت من مجد وعظمة . ولمسنا منهم شفاف القلوب بمـا ننشره من روائع هذا الميراث العربى الفاخر الذى اقتعد قمـة الخلود . وتهادته الأزمان تحفة ثمينة حلت من الذكريات العذبة أسمى منزلة .

فما شىء يسر النفس ويسبح بها فى عالم الأحلام والأمانى كنظرة عجلى تتخطى بها رقاب الأيام حتى تشرف على تراث الآباء والأجداد ، فتغمرها أحلام سارة ، وتشيع فى جوانبها هزة من الطرب والارتياح ؛ وعلى إثر هذه المقدمة اليسيرة نشرع فى بيان ما نقول :

نشأة الجوارى

كان ممـا أفاء الفتح الاسلامى على العرب كثرة الجوارى فقـد نفذن إلى الساحة العربية واقتناهن العرب . وأقحموهن فى حياتهم فـكن من عوامل بنائها

الاجتماعى . ونهضتها الحديثة وسايرت النساء العربيات فى تكوين الأسر فى الأوساط المختلفة . حتى لقد أصبح كثير من خلفاء بنى أمية والجمهرة الساحقة من خلفاء بنى العباس — من أولاد هؤلاء الجوارى — ولما راجت سوقهن وكثر إقبال الناس عليهن ، وكانت الحياة العربية حياة لغة وأدب وفكاهة وسمر ، عنى النخاسون وموالى الجوارى بإعدادهن لهذه الحياة على خير الوجوه وأكملها . فعلموهن الرواية والشعر والإجازة والمطارحة والغناء . وكلما نبغت الجارية فى هذه الضروب غالى صاحبها بها فى الثمن واشتط فى التقدير — وسار الأمر على نظام التدرج والارتقاء فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية حتى أظل الناس عصر بنى العباس فطما السيل وعجت الحياة العربية بهن عجيجا . وإذا علمت أن السيدة زبيدة كان يُسمع لجواريها وهن يقرأن القرآن فى قصرها مثل دوىّ النحل ، وأن بعض خلفاء بنى العباس كان يحوى قصره بضعة آلاف من الجوارى — استطعت أن ترى من كثب كثرة هؤلاء الجوارى . هذا الى ما كان للسواد الأعظم من الأهلين من الجوارى . حتى لقد كان للجوارى النواهض منهن فى عصور الإسلام المختلفة جوار مملوكات يصرفهن فى خدمتهن ويساعدنهن فى الغناء .

ولا نريد فى كلمتنا الموجزة هذه أن نعرض للناحية اللاهية من حياة الجوارى فذلك ما لا يستسيغه القلم . ولا يرتاح اليه الخلق . ونأخذ فى بيان « أثرهن فى الغناء » .

تعتبر نشأة الغناء العربى حجازية لما امتاز الحجاز به فى القرن الأول من الرخاء واليسر والفراغ من مهام الخلافة التى ألقت زمامها الى بنى أمية ، فقادوها الى الشام ، واستقروا بها فى دمشق تفاديا للأخطار ، وتباعدا عن سماع زئير القروم العربية الذين يناهضونهم بطلب الخلافة — ولما جبل عليه أهل الحجاز بفطرتهم من الرقة والظرف — ولكثرة المال الذى كان يرسله بنو أمية لسادة الحجاز وأعيانه ، يبتغون به رضاهم ، وقعودهم عن الخلافة ، وشغلهم بزهرة الحياة الدنيا ولهوها — فلهذا كله أبلغ الأثر فى إقبال الناس على شراء الجوارى وعقد مجالس الغناء الذى نشأ بمكة والمدينة وليدا ، وشب على أيدى الجوارى ينشئنه ويحسنّ القيام

عليه ويغذينه بما يبتكرن من ألوان جديدة . وكان منهن فى الحجاز زعيمات رفعن لواء الفن فى صدر الاسلام وانفردن بالزعامة : كجميلة مولاة بنى سليم التى كان منزلها بالحجاز أكبر مباءة فنية تنتظم رواد الفن وأعلامه . ولبيان منزلتها الفنية نسوق اليك الحديث الآتى : وفد من مغنى مكة جماعة من زعماء مغنيها وهم ابن سريج والغريض وسعيد بن مسجح ومسلم بن محرز — فالتقوا بمعبد وابن عائشة من زعماء مغنى المدينة ، فدار الحديث بينهم حول الغناء وما ألفوا فيه من الأصوات وفى آخر الأمر احتكم هـذا الجمع الى جميلة فسمعت أصواتهم جميعا . وأنزلت كل واحد فى المنزلة اللائقة به — فلم يعارضها منهم أحـد . ونزل هؤلاء الأعلام فى الفن على حكمها والرضا به — وفى هذا ما يقنعك بما كان لهذه الزعيمة من إجلال ورفعة فى نفوسهم — ومن شهيرات الجوارى المغنيات فى هذا العصر عزة الميلاء بالمدينة ، وتعد من المجددات فى الغناء العربى ، فقد تلقت ألوانا من الغناء الفارسى وألقت عليها ألحانا عربية عجيبة ، فكانت أول من فتن أهل المدينة وحرض رجالهم ونساءهم عليه — وكانت خير من ورث غناء القيان القدامى أمثال سيرين وخولة والرباب وسلمى ورائقة . وكان منزلها منتدى عاما يحضره الناس كأنما على رءوسهم الطير — ونكتفى فى الدلالة على فضلها فى عالم الغناء بقول علم من أعلامه وهو ابن سريج فقد قال حين سئل من أحسن الناس غناء « مولاة الأنصار المفضلة على كل من غنى وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء » .

والذى نريد أن نقوله ان مثـل هذا النبوغ لا يكون وليـد مصادفة ولا أثر سذاجة . وإنما هو ثمرة تربية منظمة للفن فى الحجاز لوجود الوسائل الصالحة له . وإذا كان الفن يتطلب دائما نصيرا له يستظل بظله . ويأوى الى ركنه — فقد ظفر فى الحجاز فى صدر الاسلام بأنصار يعد خيرهم فضلا وأصدقهم اخلاصا له السيد الأمثل الظريف السخى الكريم عبد الله بن جعفر الذى سار كرمه مسار الغيث ينتظره الناس ليفرجوا كروبهم ويقضوا به لباناتهم . ولعلك تشعر بهزة إعجاب وارتياح إلى هذا الرجل حين تسمع قول التاريخ الخالد فيه :

« كان أهل المدينة يَدَّانُونَ إلى أن يأتى عطاء عبد الله بن جعفر » ولقد كان يحسن الاستماع ويرغب فيه ويزور زعيماته تشجيعا لهن ونصور لك صورة من زياراته: دخل يوماً على جميلة المغنية فى بيتها ورجال الأدب والفن فى حضرتها يستمعون اليها وإلى جواريها فأجلسته فى صدر المجلس وجلس حوله أصحابه ؛ ثم أشارت إلى من حولها من عامة الناس فتفرقوا ؛ ثم أقبلت عليه وقالت : « ياسيدى وسيد آبائى وموالى كيف نشطت إلى أن تنقل قدمك إلى أمَتك ! قال ياجميلة قد علمت ما آليت على نفسك ألا تغنى أحدا إلا فى منزلك وأحببت الاستماع ؛ قالت : جعلت فداك فأنا أصير اليك وأكفرّ ؛ قال لا أكلفك ذلك » ثم انظر إلى تعففه فى السماع ونبوه عن لغو القول ، وهو فى أصحابه القدوة الحسنة ، والمثل الصالح فى الخلق والأدب كيف يطلب اليها فى رفق وهوادة ولباقة وكياسة أن تغنى شعرا عفيفا فيقول : « وبلغنى أنك تغنين بيتين لامرىء القيس تجيدين الغناء فيهما ، وكان الله أنقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت ، فغنت بهما وهما :

ولما رأت أن الشريعة همها وأن البياض من فرائصها دامى
تيممت العين التى عند ضارج يضىء عليها الظل عرمضها طامى

فقال له بعض الحاضرين : كيف أنقذ الله بهما جماعة من المسلمين ؟ قال : أقبل قوم من اليمن يريدون النبى صلى الله عليه وسلم فضلوا الطريق ومكثوا ثلاثا لايقدرون على الماء حتى أشرفوا على الهلاك . فأقبل راكب على بعير له وأنشد بعضُ القوم البيتين فقال الراكب من يقول هذين البيتين ؟ قال امرؤ القيس ؛ قال والله ما كذب ، هذا ضارج عندكم . فحبوا على الركب فاذاماء عذب عليه العرمض والظل يفىء عليه فشربوا منه ؛ فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه ؛ فقال : ذلك رجل مذكور فى الدنيا منسى فى الآخرة خامل فيها ، يجىء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار .

ولقد كتبت جميلة فى موقف آخر إلى السيد الجليل عبد الله بن جعفر كتابا تستزيره فيه ، وأعدت له حفلة غناء بهيجة جمعت أسباب البهجة والكمال ليشرف

لفن به وينمو فى كنفه . فكان هـذا الـكتاب درة ثمينه فى عالم الأدب ، ولولا خوف الاطالة لسقنا هذا الـكتاب مسرة للقارئين .

ومن الغريب أن يكون الحجاز فى صدر الاسلام وعصر بنى أمية مباءة الغناء العربى وحصنه — وأن دمشق حاضرة الخلافة لا تظفر بمثل هـذا النبوغ ولا بمثل هذه الـكثرة من المغنين المجيدين ، على ما فيها من أسباب القوة والعظمة ودواعى السرور والمتعة فى قصور خلفاء بنى أمية . ولهـذا كانوا يستقدمون الـكثير من مغنى الحجاز ويشترون النابهات من جواريه المغنيات ليتصلوا بالفن الحجازى الرقيق الملائم لفطرتهم العربية الخالصة وليمزجوا أصوله بأصول الغناء الدمشقى على بعد ما بين الغنائين من فروق فى النوق والأصول .

وجاء العصر العباسى فكان حادثا خطيرا أصاب فن الغناء فى الحجاز فى الصميم فذوى عوده ، وفتر صادحه ، وانتقلت نهضة الفن إلى العراق حيث بغداد عروس الدنيا ومطلع اليمن وملتقى الآمال ومنبع الثراء — ولأن العباسيين كانوا قد لبوا داعى الغضب والنقمة على العرب فولوا وجوههم شطر الفرس وقبضوا أكف العطاء عن الحجاز وأهله لميله إلى العلويين — وداخل الفرس العرب مداخلة عظيمة وامتزجوا بهم امتزاجا عظيما كان له كبير الأثر فى العلم والفن . فنهض الغناء نهضة عظيمة ونهضت أصوله وظهر فيه أعلام من بيت الخلافة العباسيه ونبغاء من الفرس . ومجددون أنكروا على القدامى مذاهبهم فى الفن ، كما أنـكر الشعراء المجددون على القدماء مذاهبهم فى الشعر القديم فى عالم الأدب .

ونبغت الجوارى فى العصر العباسى فى الغناء نبوغا عظيما وابتدعن فيه وألفن كبَذْل التى كانت تغنى ثلاثين ألف صوت ، ولها كتاب فى الأغانى يشتمل على اثنى عشر ألف صوت وعريب التى تعد من أقدر المغنيات فى هـذا العصر على الغناء ولها فيه تأليف - ومن الحق الذى لامراء فيه أن نقول إن الغناء فى هذا العصر قد وصل على أيدى الجوارى إلى أبعد غاية من التقدم والرقى ترجى له . ومجالس الغناء فى عصر الرشيد والواثق وأمثالهما من خلفاء بنى العباس تعـد من مفاخر

الدنيا وعجائب الفن التى لم تظفر بمثلها مدنية من المدنيات التى سايرت عصور العرب . والمطلع على وصف مجالس الغناء فى عصر كعصر الرشيد يدهش لتلك المقدرة الإنسانية الفائقة فى الفن ويخيل اليه أنه فى عالم ملىء بالأحلام التى تملأ النفس غبطة وانشراحا لاحد لها .

رحمة الله على تلك العصور وما حوت من نبل وعظمة ومجد وعلم وفن — ووداعا لتلك الشخصيات العظيمة التى زهت بها الأيام وأضاءت بها الليالى وحسنت بها الدنيا . وإنا لنطوى آسفين هـذا الحديث وسنطلع على القراء فى العدد الآتى إن شاء الله تعالى من هذا المطلع بحديث غيره فى الأدب وما للجوارى فيه من جولات وثمار ؟

عبد اللطيف المغربى

مصيف منارة البرلس

بقلم عبد الرءوف جمعة
المدرس بالمدرسة السعيدية

جاء بنا إلى هذا المصيف طيب هوائه وقلة نفقاته واحتشام قاصديه ؛ فهواؤه أجف هواء من رأس البر والاسكندرية ، وقاصدوه لا يخرجون عن اللائق ، ولا يتركون ما يجمل ويحسن ، فكأنهم لم يبرحوا ديارهم فى بلدانهم وقراهم ، ومواد المعيشة رخيصة ميسورة تعرض على الناس فى مساكنهم وما لا يوجد فى المصيف يأتى به الموكل بخدمة العشة من بلطيم ، أو المستبضع (الأبونيه) من المحلة وغيرها من المدن. ويبعد المصيف عن بلطيم - وإليها تنتهى سكة حديد الدلتا - بنحو خمسة آلاف متر ، تقطع بالمطايا أو السيارات ، ومن الناس من يأتون من بلدانهم إلى المصيف فى سيارات ، والمصيف فى سيف أفيح بين البحر وتلال من الرمل وفى رأس البر لا يطل على البحر إلا القليل من العشش مع غلاء أجرها ، والبحر عنده خير منه فى رأس البر زرقة وصفاء وهدوءا ، وأجرة العشة تحتوى على طنف وبهو وحجرة ومرافقها أربعة جنيهات أو أربعة ونصف مدة الصيف كله وكل حجرة تزيد بعد هذا فأجرها جنيه ونصف ومساحة الحجرة أربعة أمتار فى مثلها وتتسع لثلاثة أسرة وقد يتخذ الطنف مجلساً ومطعما ويتخذ البهو كما تتخذ الحجر للنوم ، ومنارة البراس خلف المصيف مشرفة عليه بينه وبينها نحو مائة متر ؛ ويقوم بأمرها موظفون لا يقيم الواحد منهم إلا تسعة أشهر وينقل إلى منارة أخرى ، وعددهم ووظائفهم تتناسب مع أهمية المنارة فى الملاحة لا مع أعمالهم فهى قليلة سهلة ، وذلك لأن القائمين بها وبغيرها من المنارات قبل الحرب كانوا من الانجليز ، وبقيت على ما كانت عليه حتى تولاها بعد الحرب المصريون .

ليس بهذا المصيف بعوض ، وبه ذباب إلا أنه قليل ضعيف لا يعض كما يعض ذباب رأس البر فيؤلم عضه ولو كان دونه الجوارب !

يروح ويغدو الى المصيف بمطالب المعيشة أهل القرى القريبة منه يحملون غلة أرضهم من بطيخ وعنب وتين ودجاج وبيض وإوز وبط وخضر ، وذلك كله طيب وأرخص منه فى المدن وقرى الريف الأخرى ، وفاكهة البرلس حلوة مقبولة ، ويفد بها رجالهم ونساؤهم وغلمانهم وجواريهم ، وكلهم حسن العرض دائب السعى صبار كسوب ، إلا امرأة واحدة وجدتها ضعيفة الحيلة ، عطفنى عليها أنها أيتم تعول أيتاما ، فسألت عنها فقيل لى أنها غريبة ليست من أهل البرلس فتسعى سعيهم وتحتال حيلتهم ، وهم ذوو دراية بتنقاد الدراهم ومعرفة زائفها ، ويتهمون الجديد منها فلا يأخذونه إلا مضطرين بعد فحص ونقد ، وأغلبهم لا يترفع وإن كان فى نعمة أن يسألك كسرة خبز قفار ويغلب على الظن أن هذا عرض لهم من الاغتراب والابتعاد عن ديارهم فى طلب الرزق واستبدال غلاتهم بالذرة والأرز غير المقشور فى إبانهما وأيام حصادهما فربما لا يجدون خبزاً يباع أو يجدون ويضنون بالمال فيسألون ويصير ذلك لهم عادة .

ومن قرى البرلس ما وصل اليه ماء النيل وهو قليل لا يفى بالحاجة . وعلى وزارة الأشغال أن تعنى بالبرلس وتوفر لأهله وزراعاتهم الماء ، فهم فى حاجة إلى عناية وعطف ، وإن كانت البلاد التى لم يصل إليها ماء النيل وبقى أهلها يزرعون فى الرمال ما يكتفى بما تختزنه من ماء الأمطار ـ قد ظل أهلها أوفر عافية وأنضر وجها وأنصع أسناناً وأحد بصراً ، ولا يزالون على فطرهم الساذجة وطباعهم الموروثة الطيبة .

ومن قرى البرلس من ينطقون القاف رجالا ونساء وجوارى وغلمانا نطقا بيناً واضحاً ، ولست أدرى من أين جاءت إليهم القاف وكيف احتفظوا بها ، ويجاورهم قرى لاتبعد عنهم أكثر من ألفى متر أو ثلاثة آلاف متر وعمدتهم واحد ولاينطقون القاف فى كلامهم ، ومن العجيب أن من البلاد التى تنطق القاف من هم أكثر من غيرهم ممن لاينطقونها ضربا فى الأرض ومشياً فى مناكبها واختلاطا بغيرهم من الناس ، ومع هذا بقوا ينطقون القاف .

ويخيل إلى أن نساءهم أكثر ذكاء وفطنة من رجالهم وأن خيرهم مرجو مبذول لمن يشتد فى معاملتهم ويقسو وميئوس منه ممنوع ممن يلين معهم ويعطف شأن الضعيف المهين، وفى أرباض البرلس وهاد وربا تملك القلوب وتسر الناظرين بما فيها من نخيل وأعناب وبما ينبت فيها من نرجس يزهر حتى فى شهور القيظ فيطيب عرفا ويحسن منظراً وفيها نوع من العنب أبيض فى حمرة واستطالة وغزارة عصير قد يفضل الفيومى بخفته واستساغته.

أنسيت أن أذكر ما يطعمه المصطافون من الماء وهو من آبار قريبة العمق وإن يكن غير عذب فإنه صاف نق، وعصير الليمون يجعله سائغاً مقبولا كأنه ماء النيل عليه هذا العصير.

هذه كلمة أبعث بها إلى المجلة من هذا المصيف وقد وصل إلى به العدد الأول من سنتها الثانية فكان لى فيه متعة للنفس وراحة للخاطر فأردت أن أقارضها بَذْرَةَ بدرهم.

أطلت بما ربما لا يُعْنَى به الكاتب. تعريفاً للناس بهذا المصيف؛ فهو على ما فيه من حسن ومزايا غير معروف لجمهور الناس ولا سيما المحافظون منهم والمتمسكون بالعادات الشرقية الحسنة والحجاب، والمتبرمون بما عليه المصايف الآن من استهانة بالفضيلة وامتهان للمروءة والكرامة.

عبد الرؤف جمعه

اختلاف تقـــدير الأدباء للشعر
باختلاف أهوائهم وأذواقهم

بقلم محمد احمد برانق

المدرس بمدرسة الناصرية

الرسم والموسيقى وصور المعانى الجميلة كلها وسائل لتغذية العواطف، وإحياء الشعور: وميزانها القسطاس المستقيم الذى توزن به هو الذوق السليم؛ فكل من الشكل المتناسق الجميل، والنغمة العذبة، والمعنى الرائع البديع، يبعث فى النفس الحية شعوراً بالجمال، وإن اختلف ذلك الشعور باختلاف الجنس، وتباين البيئة

ففى الرسم والنحت طريقة إدراك الجمال النظر، ينظر الشخص الشكل المتناسق، أو التمثال الجميل، فيأخذ الإعجاب من نفسه مأخذا يتناسب مع درجة الجمال أولا، ومع مقدار حظ المعجب من الذوق السليم والطبع الرقيق ثانياً.

والنغم طريق إدراك جماله السمع، فما هو إلا أن يعزف الإنسان على آلة موسيقية، أو يغنى، أو يسمع غيره يعزف أو يغنى، حتى يطرب لذلك العزف أو هذا الغناء، أو لهما معا، إذا صادف هوى فى نفسه، وينقبض إذا نفر منه ذوقه.

أما المعانى فهى وإن كانت مختلفة فى الحسن متفاوتة فى مراتب الجمال، فإنها تزيد شيئا آخر، هو الثوب تكساه من اللفظ، فإن الكاتب أو الشاعر يحوك لها من اللغة التى ينطقها ثيابا من الألفاظ. ثم يلبسها تلك الثياب، ويخرجها للناس، فيكون للفظ شأن أى شأن فى تجميل صورها، فالمعنى الجميل الرائع إذا أخذه الكاتب الأديب، أو الشاعر البليغ، وألبسه من الألفاظ ثوبا أنيقا رقيقاً هفهافا، تنظره العين، فينطقه اللسان، فتسمعه الأذن، فيصل إلى النفس، ويؤثر فيها تأثير الحميا فى العقول، وذلك الحد الأعلى الذى ليس وراءه لكاتب أو شاعر غاية.

وقد يأخذ هذا المعنى الجميل الرائع شاد فى الأدب، أو دعي، أو فاسد الذوق

فيستكره له الألفاظ استكراها ، ويحوك له ثوبا سخيفا غير متسق ولا متناسق ، ثم يخرجه للناس فلا يرون منه إلا صورة بشعة تتقزز منها النفس الطيبة ، وينفر منها الذوق السليم ؛ ويكون مثله مثل القروية الحسناء تلبس ثوب الكتان الفضفاض، تغدو فيه وتروح بشعر أشعث ، ووجه أغبر ، وقدمين حافيتين ملوثتين بالوحل ، فتلك قد وهبها الله جمالا استتر وراء تلك القبائح ، وذلك كالذى قيل من أن كلا من ابن كريمة والحسن بن هانىء وصف ممدوحه بالجمال ، وادعى أن قفاه بلغ من الحسن غاية فاقت حسن الوجوه ، فكيف بوجهه ؛ فقال ابن كريمة :

قفـــاه وجه والذى وجهه   مثل قفـــاه يبلغ الشمسا

وقال الحسن بن هانىء :

بأبى أنت من غزال غرير   بز حسن الوجوه حسن قفاكا

فالأول متكلف ، بعيد المأتى لتعقد مخارج ألفاظه مجتمعة ، والثانى قريب المأتى ، حسن النسج ، حلو اللفظ ، والمعنى فى البيتين واحد .

ثم تلك خمسة أبيات فى معنى واحد لخمسة من فحول المتقدمين ، أما المعنى فهو أن كلا منهم يريد أن يصف الممدوح بالجود والكرم ، حتى إنه كان يعطى سائله قبل أن يسأله ، وهذه هى الخمسة الأبيات .

قال أبو العتاهية :

وإنا إذا ما تركنا السؤا   ل منه فلم نبغه يبتدينـــا

وقال مسلم بن الوليد :

أخ لى يعطينى إذا ما سألته   ولو لم أعرض بالسؤال ابتدانيا

وقال أبو تمام :

ورأيتنى فسألت نفسك سيبها   لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى

وقال منصور النمرى .

رأيت المصطفى هارون يعطى   عطاء ليس ينتظر السؤالا

وقال سلم بن عمرو الخاسر القرشى :

أعطاك قبل سؤاله   فكفاك مكروه السؤال

اقرأ هذه الأبيات مرة واحدة ، وانظر فيها نظرة عجلى ، ثم ارجع إلى نفسك وتبصر ؛ أيها أعلق بذهنك وأدخل على نفسك ؛ لايتردد أحد فى أنه البيت الأخير ، بيت سلم الخاسر ، لأنه أعذب الخمسة الأبيات لفظاً ، وأحلاها ديباجة ، وأحسنها سبكا ، وأجودها حبكا ، وأكثرها وضوحاً ، وأقلها كلما ؛ لذلك كان أسرعها إلى القلب ، وأشدها علوقا بالذهن .

وقد يكون المعنى رديئا مرذولا فيتناوله الشاعر ، ويتخير له من جيد الألفاظ ستاراً يتوارى وراءه قبح المعنى ، فيعمى على الشادين والأدعياء ، ولكن ذلك لايخفى على الفطن اللبيب الخبير بفنون الأدب ، وضروب الشعر .

وأسوأ السيئات فى الأدب أن يقبح المعنى ، ويسمج الخيال ، و يشنع اللفظ .

وهناك معان عامة يستطيع أن يشترك فيها الأدباء على اختلاف نحلهم ، وتباين مللهم ، إلا أنهم يتفاوتون فى تصويرها بتفاوت مادة التشبيهات التى يستمدونها من البيئات التى يعيشون فيها ، لأن الانسان يولد طفلا ، وقوة الخيال عنده كامنة ، تظهر هذه القوة وتنمو كلما تقدمت به السن ، ولكن المادة التى تخصبها وتزيدها نماء ، لا يمكن أن تستمد إلا من صور الحياة المختلفة التى يتقلب فى أحضانها ؛ فالذى يقع عليه نظر العربى البدوى الذى ينتجع الكلأ ، ويرتاد مساقط الغيث ، ويسكن الخيام ، غير العربى الحضرى الذى يبتنى البيوت ، ويفلح الأرض ، ويتقلب فى أحضان النعيم ؛ والعربى السيد فى قومه ، الذى يملك زمام أمورهم ، ويتصرف فى شئونهم ، يستمد من عزه وسؤدده وشرف نفسه ونسبه ؛ والذى ينشأ فى أسرة مغمورة ، ألح عليها العسر ، وطال بها الفقر ، يغلب عليه أن تتدانى نفسه ، ويبذل ماء وجهه مادحا مستجديا محاولا أن يستدر أكف الموسرين ، ويتملقهم عسى أن يحرك عاطفة الرحمة فى قلوبهم ، فيبذلوا له ماهو فى حاجة اليه .

ومن هذه المعانى العامة أن الذى يهيم بحبيبه لا يفتأ يذكره فى كل لحظة من لحظاته ، فى نجواه وعلانيته ، فى نطقه وصمته ، وقد يبرح به الحب حتى تراه مشدوها مولها ، تذهب به الأفكار كل مذهب ، فيصبح وقد براه الشوق ، وأهزله طول التفكير ، فالنحول والهزال نتيجة التفكير فى الحبيب ، وهذا المعنى صالح لكل

زمان ومكان ، ولكنهم يختلفون باختلاف البيئة والزمان فى تصوير هذا الهزال فبعضهم يرى أن مابقى من جسمه لو عاق بعود خلال لحمله العود ولم يتأود ، وبعضهم يرى أنه « لولا تقلب طرفه دفنوه » ، وقد يبالغون فيجعلونه « صدى أينما تذهب به الريح يذهب »

و بعضهم يقول :

لم يبق من جثمانه إلا حشاشة مبتئس
قد رق حتى مايرى بل ذاب حتى مايحس

من ذلك ترى أن المعنى العام حق شائع ، ليس لأديب دون غيره ، والفضل لمن له القدرة على حسن تصويره ، فيلحقه بجميل تصويره بالمعنى الطريف .

وكل ماذكرنا هو طريقة الحكم الطبيعى ، والتقدير المبنى على قوانين الصناعة ، ولكن ثمة طائفة من الذين يبحثون فى الأدب ، وآثار البلغاء والشعراء ، تختلف وجهة نظرهم اختلافا كبيراً ، لا من طريق حسن تصوير المعنى ، ولارقة اللفظ ، ولكن من طريق تباين الميول النفسية ، والعصبية القومية أو المذهبية ومن اختلاف التربية ، فالذى يميل إلى معاقرة الخمر ، ومغازلة الحسان ، وكثرة الدعابة يتغنى دائماً بشعر عمر بن أبى ربيعة ، والحسين بن الضحاك ، وأبى نواس ، ومن لف لفهم ، والذى يركن إلى الحكمة والفلسفة ، والمقدمات المنطقية التى تستنبط منها النتائج يغوص وراء المعانى التى يحتويها شعر أبى الطيب المتنبى وأبى العلاء المعرى ومن نحا نحوهما ، ومن ينشأ تنشئة حربية يميل كل الميل إلى المعانى التى تستفز النفس ، وتلهب الشعور ، وتوقد الحمية ، وتنسى المحارب نفسه فيبذلها رخيصة فى سبيل قهر أعدائه والانتصار على خصومه .

ومن سوء حظ الأدب والأدباء أن العصبية والهوى لازما الأدب ونقده منذ كان وإلى الآن ؛ ألا ترى أن المتقدمين كانوا يختلفون بسبب تباين الميول والأهواء فى أمدح بيت ، وأهجى بيت ، وأغزل بيت ، وغير ذلك . بل كان الأئمة أنفسهم يختلفون فى تقدير الشاعر الواحد ، فبعضهم يتخذ له مقعدا فى السماء ، والبعض الآخر يغمره فى الماء . وقد حكى ابن عبد ربه فى كتاب العقد الفريد أن

الأصمعى كان يصف شعر عمر بن أبى ربيعة بأنه الفستق المقشر لا يشبع منه (وقد نسب ذلك صاحب الأغانى لحماد الراوية) فى الوقت الذى كان فيه جرير يستبرده ويقول : شعر حجازى لو اتحذ فى تنور لوجد البرد فيه ؛ فما أعظم الفرق بين هذين الرأيين فى شاعر واحد لإمامين من أئمة الأدب

وكثيراً ما ترى الشاعر الواحد يمدح فلانا اليوم ، ولأمر ما يوسعه هجواً وذما غداً ، فكم مدح بشار بن برد واصل بن عطاء ، وأعجب ببلاغته فقال فيه أيام كانا على اتفاق فى الرأى واتحاد فى المذهب :

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا   وحبروا خطبا ناهيك من خطب
فقـــام مرتجلا تغلى بداهته   كمرجل القين لما حف باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد   قبل التصفح والإغراق فى الطلب

فلما اختلفا وتباينا قلب بشار لواصل ظهر المجن . وأخذ يعيب عليه لثغته ، ولقبه بالغزّال ، وقال فيه :

ما لى أشايع غزّالا له عنق   كنقنق الدو إن ولى وإن مثلا

وكذلك الشأن فيما جرى بين أبى الطيب المتنبى وكافور الإخشيدى ، فإن من يتتبع شعر أبى الطيب يجده كان يكيل المدح لكافور كيلا ، ويكنيه أبا المسك لسواده ، ويعترف به حاكما عادلا ، وسياسيا محنكا ، وهو الذى يقول فيه :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه   وإن لم أشأ ، تُملِى علىّ فأكتب

فلما لم ينل منه ما كان يريده ثمنا لذلك المدح الطويل فى ذلك الشعر السائر ، بعد أن عرض حاجته فى مثل قوله :

فارم بى ما أردت منى ، فانى   أسد القلب ، آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك ، وإن كا   ن لسانى يرى من الشعراء

ـ تجهم له ، ولبس فروة الأسد ، وأخذ ينهش فى عرضه ، ويسمه بميسم العار ، ويكنيه أبا البيضاء ويقول فيه :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه   إن العبيد لأنجاس مناكيد

ويقول :

ولا ترُجَّ الخير عند امرىء مرت يد النخاس فى رأسه

٭٭٭

وقد تتدخل العصبية فى الحكم على الشاعر فى مجموعه : معانيه وألفاظه وأخيلته ، فيخالف الحاكم جمهرة الباحثين ، لأن الشاعر حجازى والحاكم حجازى مثلا ، أو لأن الشاعر قحطانى والحاكم عدنانى مثلا ، انظر إلى كثير وجميل ، فإن أهل العلم بالشعر والأدب والرواية على أن كثيراً وإن كان قد تتلمذ لجميل وأخذ عنه ، واستقى من معانيه ، أشعرُ منه . وقد ذكره ابن سلام فى كتابه طبقات الشعراء فى الطبقة الثانية من الشعراء الاسلاميين ، وجعله فى صف البعيث والقطامى ، فى حين أنه جعل جميلا فى الطبقة السادسة الإسلامية مع الأحوص وعبد الله بن قيس الرقيات ونصيب ، ولما كان كثير حجازيا فإن أهل الحجاز يقدمونه حتى على جرير والفرزدق والأخطل ، وكانت ربيعة تتعصب للأخطل وتُفْرط فى مدحه ، وتقدمه على الفرزدق وجرير ، لأنه ربعى ، مع أن الجمهور على أنه أقل شأناً منهما : قال أبو الفرج الأصفهانى : (فأما قدماء أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما وبين الأخطل ، لأنه لم يلحق شأوهما فى الشعر ، ولا له مثل مالهما من فنونه ، ولا تصرف كتصرفهما فى سائره) وقد لا تؤثر هذه العصبية فى حسن الصداقة بين شاعر وشاعر ، إذا تكاملت أخلاقهما ، فقد روى الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين أن الكميت بن زيد الأسدى ، والطرماح بن حكيم الطائى ، لم ير الناس أعجب حالا منهما فقد (كان الكميت عدنانيا عصبياً ، وكان الطرماح قحطانياً عصبياً ، وكان الكميت شيعياً من الغالية ، وكان الطرماح خارجيا من الصفرية ، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شىء مما تدعو هذه الخصال إليه) .

وإنما المألوف فى عامة الطبائع البشرية التى لم تصل إلى درجة التهذيب الكامل أن يكون للهوى والحب والصداقة أثر فى الحكم ، فكثيرا ما يمتدح

الشاعر أو الباحث فى الشعر و الرواية فلانا الشاعر وإن أساء لأنه صديقه ، ولأنه يعتقد أن شروط الصداقة ، وأصول المحافظة عليها ، ترتفع فوق كل اعتبار ، وتمنعه من إظهار سيئات الصديق وإن كانت ظاهرة واضحة ، وليس ذلك فقط ، بل هو يحاول أن يلبس تلك السيئات ثوبا يخفيها على الجمهور ، ويظهرها للناس حسنات ولكنه ثوب نمام يشف عما تحته ؛ ومن الناس من تغلب عليهم التقية ومجاملة الشعراء ، فيكون من صفاتهم أنهم لا يحقرون شاعرا بين إخوانه ، ولا يأخذون أحدا بالنقد ؛ قال زهير بن أبى سلمى :

وذى خطل فى القول يحسب أنه مصيب ، فما يُلمم به فهو قائله
عبأت له حلما ، وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله

وذلك إما لأنهم يعتقدون أنهم فى القمة ، فرفعهم من شأن غيرهم لا يضيرهم لأنهم لا ينالون مرتبتهم ، وإما أن يفعلوا ذلك حذرا من أن يقول أحد المغمورين بيتا فيهم ، فيسير هذا البيت بين الناس ، ومن هؤلاء الأفذاذ الذين كانوا يصانعون غيرهم ممن هم أقل منهم شأنا البحترى الذى كان لا يذكر بحضرته شاعر محسن أو غير محسن إلا قرظه ومدحه وذكر أحسن ما فيه ، ومنهم دعبل الخزاعى ، فانه كان يعرض للملوك و الأمراء ويهجوهم ؛ ولكنه لا يتعرض لشعرائهم إلا ضرورة ، وقد ذكر الآمدى فى كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى عن دعبل قال : (وقد حذر — يعنى دعبل — فى أول كتابه الذى ألفه فى الشعراء ، من التعرض لشاعر ولو كان من أدون الناس صنعة فى الشعر ، وقال : رب بيت جرى على لسان مفحم قيل فيه : رب رمية من غير رام ، فسارت به الركبان)

وعكس ذلك حاصل ، فقد يعتد الأديب الناقد بشعر طبقة من الشعراء دون غيرها ، أو يكره الشاعر أو الباحث فى الشعر فلانا الشاعر لأمر ما ، أو يستثقل روحه فى مجموعه ، أو يحسده على نبوغه ، فيجعله ذلك يطعن عليه فى كل قول يقوله وإن أحسن وأجاد ، فان ابن الأعرابى كان يسمع الشعر فيستحسنه ويستجيده ويأمر بكتبه ، وإذا علم بعد ذلك أن قائله أبو تمام ، حكم بتخريفه ، وأمر بشطبه ، وإن إسحاق بن ابراهيم الموصلى أنشد الأصمعى يوما :

هل إلى نظرة إليك سبيل   فيروّى الصدى ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندى   وكثير ممن تحب القليل

فقال الأصمعى : لمن ينشدنى ؟ قال ! لبعض الأعراب . فقال ! والله هذا هو الديباج الخسروانى ، فقال إسحاق : إنهما لليلتهما ، فرد عليه الأصمعى لا جرم والله إن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما ؛ فانظر إلى الأصمعى وهو من هو فى فنون الشعر رواية ودراية يستجيد البيتين أولا ، لأنه لا يعرف قائلهما ، ويراهما ديباجا خسروانيا ، ثم يرتد فى الوقت نفسه ، وينقض حكمه ، ويقول : إن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما عند ما عرف قائلهما ؛ ومهما انتحل المنتصرون له الأعذار فإن هذا ما كان ليصح أن يتورط فيه عالم كبير مثله .

ولم أذهبُ بك بعيدا ، وأرجعك إلى الوراء قرونا ؛ فعندنا الآن أمثلة واضحة تؤيد هذا الرأى ؛ لعلك قرأت الروايات التمثيلية المسرحية التى أظهرها فى ثوب الشعر أمير الشعر فى عصرنا الحاضر غير منازع ، وفتح بها فى عالم الأدب العربى فتحا جديدا ، ولعلك تذكر منها رواية قمبيز ، فإنها بمجرد ظهورها ، تناولها أحد الحاقدين عليه ، الحاسدين له ، وأخذ يتنقصها فى كل ناحية من نواحيها ، فى موضوعها وموضعها ووقائعها ومعانيها وديباجتها ، وليس ذلك فحسب ، بل ينظم أبياتا من عنده فى المعنى الذى قاله المرحوم شوقى ويقول : لو قال كذا لكان أجاد قولا ، ولو وضع هذه الأبيات مكان تلك لكان أحسن صنعا ؛ وفى كل هذه الرواية الطويلة لم يذكر لشوقى أية حسنة من حسنات الشاعر المجيد المكثر الذى وضعه غير المغرضين فى مصر وفى غير مصر فوق القمة .

وغير قليل من الباحثين ، وسواء فى ذلك السابقون واللاحقون ، يتورطون عند ما يبحثون فى هذه المعانى ، وفيما يمكن أن يقال عنه : تاريخ نشأتها ، فيحكمون بأن فلانا هو الذى اخترع هذا المعنى ، وهو أول من قاله ، ثم جاء من بعده فلان فسرقه منه .

لم لا يكون الذى سموه مخترعا ، ونسبوا له فضل الاختراع ، سارقا من غيره من الذين تقدموه أو عاصروه ، ولكنهم لم يصل علمهم إلى المسروق منه ، لأن

معناه قد باد فيما باد من كلام المتقدمين ولم يقف عليه غيره ، أو لأنه قاله رجل مغمور من السوقة ، وسمعه هذا الفحل فأخذه منه ، ونسبه لنفسه ، فشاع مع كلامه ، ونسبه الناس له لا لغيره . والذى حكم عليه بأنه سارق ، لم لا يكون هو قد اخترع المعنى اختراعا ، وابتدعه ابتداعا من غير أن يعلم أن غيره قد سبقه إليه ، وأن معاصرا له يعيش فى بلد غير بلده ، اهتدى الى هذا المعنى كما اهتدى هو إليه ؛ فمن ذا الذى يستطيع أن يرجح أن ديك الجن عبد السلام بن رغبان أخذ قوله فى وصف الخمر:

تظل بايدينا نقعقع روحهـــا   وتأخذ من أقدامنا الراح ثارها

من قول أبى تمام الطائى :

إذا اليـــد نالتها بوتر توفرت   على ضغنها ثم استقادت من الرجل

أو أن أبا تمام أخـذه من ديك الجن ، لا يستطيع أحد ذلك لأنهما كانا فى عصر واحد ، فلا يمكن أن نقطع بأن أحدهما أخذ من الآخر ، كما لا يمكن أن نقطع بأن كلا منهما قد اخترع المعنى اختراعا ، فاتفق فيـه خاطراهما ، أو أن أحدهما سرق من مجهول سابق والآخر مبتدع . وكذلك الشأن فى مريم بنت طارق وجرير ، فقد قال جرير يرثى الوليد بن عبد الملك :

أمسى بنوه وقد جلت مصيبتهم   مثل النجوم هوى من بينها القمر

وقالت مريم ترثى أخاها فى أبيات أنشدها ابن الأنبارى فى أماليه :

كنا كأنجم ليـــل بينها قمر   يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

فإنه يمكن مناقشة هذا المعنى فى هذين البيتين مناقشة سابقة .

ولقد حدثنى أحد أشياخى الشعراء — رحمه الله — يوماً أنه قال بيتاً من الشعر ، وصدر به إحدى قصائده ، واشتمل هذا البيت على معنى أعجب هو به إعجابا كثيراً ، حتى كان يتغنى به فى خلواته ومضى على قرضه هذا البيت الذى ظن أنه لم يسبق إلى معناه بضع سنين ، ثم وقع على قصيدة لشاعر قديم لا يحضرنى اسمه ، فاذا به يصدر قصيدة له ببيت معناه هو بعينه معنى بيته ، ولفظه يكاد يكون

لفظه ، فبهت ؛ فهذان شاعران بين زمنيهما قرون طويلة ، ومع ذلك اتفق خاطراهما ليس فى ذلك المعنى فحسب ، بل وفى كثير من الديباجة واللفظ .

ولقائل أن يقول : إن الشاعر لا يكون شاعرا إلا إذا قرأ كثيرا من شعر المتقدمين ، وحفظ ما استطاعت حافظته أن تقنصه من دررهم ، ثم هو مع الزمن ينسى ما حفظ ، ولا يبقى منه فى ذهنه إلا صور عامة هى المعين الذى يستطيع أن يستمد منه حسب قدرة قريحته على إمداده . لذلك قد يجىء فى تضاعيف كلامه معان وتراكيب هى لغيره من غير أن يفطن إلى ذلك ، ويظن أنه ليس مسبوقا إليها ، وقد تورط فى ذلك المرحوم محمود سامى البارودى باشا ، فكثيرا ما ضمن قصائده أبياتا أو أنصاف أبيات هى لغيره ، من غير أن يفطن إلى هذا التضمين لكثرة محفوظه .

***

وقد تقع على المعنى الواحد لشاعرين ، أحدهما مخترع سابق ، والثانى سارق لاحق ، وضعه كل منهما فى بيت من الشعر ، ولكن بيت السارق اللاحق يكون أكثر شيوعا بين الناس من بيت المخترع السابق ، لأنه أشرح وأوضح ؛ انظر إلى قول أبى تمام الطائى ، والكميت بن ثعلبة ، فى أن السيف هو الذى يعول عليه ، لا أقوال الكهان ، وتنبؤات المتنبئين ، قال أبو تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

وقال الكميت :

ولا تكثروا فيها اللجاج فإنه ... محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

والكميت أسبق زمناً من أبى تمام ، فهو أسبق إلى اختراع المعنى ، ومع ذلك فإن بيت أبى تمام شاع حتى على ألسنة كثير من العامة ، لأنه كما قلنا أشرح وأوضح بخلاف بيت الكميت فإنه لم يعرفه إلا الخاصة .

وقد يسير البيت لكونه أحلى لفظا ، وأحسن ديباجة ، قال عمرو بن العلاء لمحمد بن سلام : أى البيتين عندك أجود ؟ ، قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

أم قول الأخطل :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم النـاس أحلاما إذا قدروا

فقال : بيت جرير أحلى وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرزن .

مما تقدم نعلم أنه لا يصح أن نجزم بأن هذا المعنى مسروق ، وأن المخترع له فلان ، بل نحكم بالغلبة والترجيح ، فنقول : يغلب ، أو نرجح أن هذا المعنى الذى قاله فلان ، مأخوذ من قول فلان ، والقطع لا يأتى إلا إذا اعترف الشاعر نفسه بأنه أخذ من غيره ، كما حدث بين أبى تمام وابن أبى دواد ، فإنه لما سمع قول أبى تمام :

وما سافرت فى الآفاق إلا ومن جدواك راحلتى وزادى

مقيم الظن عندك والأمانى وإن قلقت ركابى فى البلاد

سأله عن هذا المعنى حين أنشده القصيدة فقال : أهو مما اخترعته فأجاب : أخذته من قول ابن هانىء :

وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

فاعترف أبو تمام نفسه أنه أخذ المعنى من ابن هانىء .

ومع ذلك فإن وصف الشاعر بأنه سرق فيه شيء كثير من التساهل فى إطلاق هذا اللفظ ، لأن الشاعر المكثار أيا كان مقامه بين الشعراء ، ومهما كان قادرا على اختراع المعانى ، فإنه لا يستطيع أن يأتى بإحدى مطولاته وأكثر معانيها — فضلا عن كل المعانى — مخترع ، ولكن الباحث يكتفى ببضعة معان جديدة يأتى بها الشاعر المفلق فى قصيدته الطويلة التى قد تتضمن عشرات المعانى ، وكلما كثرت المعانى المخترعة وجادت كانت القصيدة أعلى مقاما ، إذ لا يمكن أن تجد شاعرا وكل معانيه مخترعة ، بل بعضها مخترع ، وبعضها مأخوذ من غيره .

ويزيد مكان القصيدة سموا ، صحة اللفظ ، وإشباع القول ، وجودة التشبيه ، وإصابة الحقيقة . ؟

محمد أحمد برانق

الحيـــاة العابسة

مَا بِنَفْسِي أراهُ يَغْتَالُ نَفْسِي بَيْنَ يوْمِي و بَيْنَ طيّاتِ أمْسِي
عَصَفَتْ بِي عَوَاصِفُ الدّهرِ حتّى أذبَلَتْ عُودِيَ الرّطيبَ وَغَرْسِي
كُلَّمَا شِمْتُ لِلسُّعُودَةِ نَجْمًا غَالَهُ الدّهرُ فَاغتَدَى نَجمَ نَحْس

٭٭٭

لَسْتُ أَلْقَى مَدَى الْحَيَاةِ رَحِيمًا غَيْرَ قَلْبٍ مُعَلَّلٍ بِالتَّأسِّي
لَسْتُ أَلْقَى مَدَى الزّمَانِ صَدِيقًا ذَا وَفَاءٍ يَرَى نَعِيمِي وَبُؤْسِي
أَوْ حَبِيبًا يرُدُّ عَنّي هُمُومِي حِينَ أُضحي بِذِكْرِيَاتِي وَأَمْسِي
أَوْ وَلِيدًا أعُدُّهُ لِلعَوَادِي إنْ دَهَتْنِي غَدًا مِجَنِّي وَتُرْسِي
... ...

٭٭٭

خَابَ ظَنّي ومَا لقيتُ بِنَفْسِي غيرَ صَوْتِ الفُؤَادِ يندبُ أمْسِي
خَابَ حَدْسِي، وَمَا أُلاقيهِ صَعْبٌ مِنْ عَوَادِي الزّمانِ، يَاوَيْحَ حَدْسِي
لستُ أَلْقَى مَدَى الْحَيَاةِ فُؤَاداً ذا وجيبٍ بهِ شعُورِي وَحِسِّي
لَسْتُ أَلْقَى عَلَى الزّمَانِ مُعِينًا يَقْشَعُ الهَمَّ عَنْ فُؤَادِي وَرَأْسِي
غيرَ أمٍّ ، ولا إخَالُكَ تَدْرِي أنّمَا الأمُّ قَدْ تَوَارَتْ بِرَمْسِ
فِي قَدِيمٍ مِنَ الزّمَانِ بعيدٍ مغمضَ الجفْنِ مُنْذُ عشرٍ وَخَمْسِ
حِينَ كُنْتُ الصّغيرَ ألْهُو وقَلْبِي في يدِ الهمّ لا أرَى ما يُؤَسِّي

٭٭٭

هَا لَقِيتُ الحياةَ وَحدِي غريباً أدفِنُ الْهَمَّ بَيْنَ طيّاتِ نَفْسِي

أرْكَبُ اللَّيلَ فِي سفِينِ المآسى فيه أجرى وتارةً فيه أُرْسِى
ثُمَّ آوِى إلَى سُكُونٍ رَهِيبٍ مُوحشٍ الليل مظلم ليسَ يُنْسِى

* * *

وَيْحَ قَلْبِى، وُقِيتَ مَاهَاجَ قَلْبى فبناتُ الزَّمانِ قدْ زِدْنَ يَأْسِى
صَدَمَاتُ الزَّمان صَوَّحْنَ زَهْرِى وَبَنَاتُ الدَّهورِ حَطَّمْنَ فَأْسِى
وَالْعَوَادِى حَطَطْنَ فَوْقَ مِهَادِى هائجاتٍ فَطَارَ مِنْهُنَّ أُنْسِى
وَعَرُوسُ القريضِ فى الليل تُوحى ذكرياتٍ رَأَتْ سُعُودِى وَنَحْسِى

* * *

عَزَمَاتِى وإنْ عَرَاهَا رُكُودٌ مِنْ عَوَادِى الزَّمانِ سَهْمِى وَقَوْسِى
وَفُؤَادِى وإنْ شَجَاهُ ادِّكارٌ كانَ أوْفَى إلَىَّ مِنْ أىِّ إنْسِ

محمود عبده الحمامصي

خَاتَمُ الْخِطْبَــةِ ...

لمحمد يوسف المحجوب

المدرس بمدرسة محمد على الملكية الأميرية للبنات

رَمْزَ الْوَفَاءِ وَآيَةَ الْبِشْرِ أَلَّفْتَ شَمْلَيْنَا وَقَلْبَيْنَــا
أَتَخَالُنَا صُغْنَاكَ مِنْ تِبْرِ ؟ إِنَّا سَكَبْنَا فِيــكَ رُوحَيْنَا

* * *

إِنَّا صَهَرْنَا فِيــكَ أَضْلُعَنَا وَهْيَ الْمَلِيئَةُ بالهَوى العُذْرِى
فاكْلَأْ وَفَاءَنَا لِتجمعَنَــا يوماً بِرَوْضٍ بَاسِمِ الزَّهْرِ

* * *

وَاسطَعْ بِأفقِنَا فَإِنَّ بِنَا شوقاً لِحُسْنٍ مِنْــكَ يَأْتَلِقُ
النورُ أَنْتَ لِحَائِرٍ غَبِنَــا حِينًا، وَشَرَّدَ لُبَّهُ الغَسَقُ

* * *

أَنْتَ الرَّجَاءُ فَأَشْرِقِ اليَوْمَا بِجَوَانِحِى يُشْرِقْ بِهَا الْأَمَلُ
وَأَضِئْ يَدِى كَىْ تُنْبِئَ القومَا أَنى بدينِ اللهِ أكتمِلُ

* * *

يا خاتَمَ الإِخْلَاصِ تلكَ يَدِى بِكَ تَزْدَهِى سِرًّا وإِعلَانَا
أَوْدَعْتُ عندكَ ـ رَاضيا ـ رَشَدِى أَتُرَاكَ تَرْضَى وُدِّىَ الْآنَا ؟

* * *

أُنسيتُ أيامِى الَّتى سَــلَفَتْ وطوَيتُها عَنْ أعيُنِى طيًّا
ورَضيتُ دنيا بالمُنَى أَزِفَتْ عَلِى بِوَارِفِ ظِلِّهَا أحيَا

* * *

يا «خاتم» الإخلاصِ طَمْئِنْهَا   أنى سِوَاهَا ـ الدهرَ ـ لنْ أهوَى
هَذِي يميني لن تَرَى منهـا   عَبَثًا ولا نَكْثًا ولا لَهْوَا

* * *

هذِي عيوني لن يُؤَرِّقَهَا   ماضٍ ولن يَهْتَاجَهَا وَجْدُ
هـذي ضلُوعِي لن أُفَرِّقَهَا   بين الغواني حائرًا بَعْدُ

* * *

يا «خاتم» الإخلاص لن أُلْفَى   بِسوَى هوَاكَ الدهرَ مُفْتَتَنَا
هـذا ودادي عاطرًا عفًّا   قَدَّمْتُه فَاهنأْ به ثَمَنَا

* * *

لمـا حَلَلْتَ بِرَاحَتِي تِبْرًا   ضاءتْ بنورك وازدهتْ مَجْدًا
فاقبَلْ ثَنَاءً صُغْتُهُ دُرَرًا   إنَّا أُناسٌ نحفظُ العَهْدَا

محمد يوسف المحجوب

سفينة الحيـــاة

بين اليأس والرجاء والحقيقة والخيال

بقلم عبد الستار سلام

المدرس بمدرسة الاميرة فوزية الثانوية للبنات

هذى الحيـــاة وأمرها عجب بحر خِضم مائج صخب
يغشى السفين بنا العباب يخوض فى لجج تقاذفه فيضطرب
والريح تنشره فينتهب الخطى وإذا طوته يكاد ينقلب
والرعد يقصف والغيوم كثيفة والليّل داج والردى شغب
ضل الطريق فلا نجاة لراكب أين النجاة ؟ وكيف تطلب ؟
ياصاحبىّ متى نحط رحالنا ؟ أعيا الركاب السير والتعب
ومتى المقام ؟ وقد مضت حقب وأتت علينـــا إثرها حقب
أين المنـــازل لا أبا لكما أين الأحبَّـــة أية ذهبوا ؟
أكذا الحياة تمر فى سفر لا يستقر لنا بها طنب ؟

كل له أمل يؤمل نيـــله وطلابه لمنـــاله سبب
فيروح يلقى دلوه ورشاءه متفائلا ويظل يرتقب
يبـــدو له حينا فيبسم ثغره وإذا نأى ينتابه الغضب
ولكم يراه وقد تقلص ظله ثم استحال وكاد يحتجب
فيعود يدأب فى تطلبـــه لا ينتهى لطلابه دأب
فإذا تيسر بعـــد مجهدة فوراءه من بعده عقب
هى شعبة الآمال أومض برقها وبريقها إن شمته كذب
نحيا بها ولو انها خـــدع وتهزنا ولو انها نصُب
نمسى و نصبح وهى رائدنا ومسيرها ومسيرنا خَبَبُ

نبنى القصور على أشعتها | فوق السّماك تحفها الشهب
ونبيت نسبح فى مسابحها | فى عالمٍ حصباؤه ذهب
والماس يلمع فى جوانبه | والدر حول رحابه نهَب
وتجيئنا الأقدار خاضعة | وتراع منا السمر والقضب
ياليت شعرى أين غايتها ؟ | لا الشمس غايتها ولا السحبُ

قل للنؤوم لقد صحوت من الكرى | والصحو جدٌ والكرى لعب
لاتجر فى إثر الخيال ولا ترم | مالا يرام فدونه العطب
وزن الأمور بنور عقلك إنه | يجلو الصواب فتنجلى الريب
واجنح إلى مايستطاع فإنه | بالسعى يرجى ثم يكتسب
لاتدخر وسعاً لأمر ممكن | مهما جهدت وشفّك النصب
إن الحيـاة جميعها تعب | وبلاؤها فوق البلا صبَب
حرب ضروس بين ساحتها | يحلو الكفاح ويحمد الغلَبُ
والناس تشعل نارها وأوارها | متهالكين وهم لها حطب
أغرتهم الأطماع فانطلقوا لها | يتطاحنون وبينهم نَسَبُ
كل يحاول أن يكون له | دون الرفاق الغنم والسَلَبُ

حب النفوس طبيعة لكنه | مرض وبىء جيشه لَجِب
يلد العداوة والتباغض والأسَى | والشر ينشأ منه والوَصب
لو أنصفوا رأوا الحياة حلوبة | بالرفق تمرى ثم تحتلب
وتنعموا بثمارها وقطوفها | وثمارها وقطوفها شعب
لكنها الأطماع تعبث بالنهى | وثيابها طول المدى قشب

لو سيقت الدنيا العريضة لامرىء | طلب المزيد فأمره عجب
أو أسعدته بشعبة من خيرها | فالخير منقوص ومقتضب
يرجو الغنى ويقول دنياك الغنى | فى ظله كم يعتلى الحَسَب
فإذا أفاد كنوزه وضروبه | سرعان ما يتضاءل الأَرَب

ويرى السعادة فى سواه من المنى وتشوقه الألقاب والرتب
والعلم يطلبه فإن هوناله وأصابه لاينتهى الطَلَب
فهناك جاه يرتجيه ولا يرى أن الحياة العلم والأدب
ويقول حسبى من حياتى صحتى إن السقيم حياته كرب
فاذا النضار يهزه ويروعه وإذا الحياة المال والنشب

عاش الأوائل قبلنا فى حيرة من أمرها وبغصة ذهبوا
بحثوا فهل أجدت بحوثهم وكم ؟ من مبهمات حولها حجب
لم يهتك العلم الحجاب عن الردى ونفوسنا من هوله تجب
سر الردى فى صخرة ماقجرت لو فجرت لا اصطكت الركب
والعمر نجهله ولا ندرى متى من نومه ليث الردى يثب
والطفل تنتاب السقام ضلوعه فى قسوة فيبيت ينتحب
لم يقترف جرما ولكن حكمة ضاقت بفك رموزها الكتب
ومنعم فى جهله بشقائه وأخو الحجا بنعيمه تَعِب
ومنافق مد اليسار جناحه بفنائه وضميره خرب
وفتى أريب يرتجى لِمُلِمّة رث الثياب وخدُه ترب
ومشمر عن ساعديه لقاعد يشقى الكرام وتسعد الخُشب

شذ القياس فلا قياس أما ترى شوكا ومنه يجتنى العنب
لاتعترض ليس اعتراضك مجديا جف اليراع . وكان مايجب
الله مولى العالمين هو الذى يهب النهى والحظ من يهب
قد قسم الأرزاق وفق مراده فالعتب نقص والرضا قرب
أينازع الخلاق أضعف خلقه غيض الحياء وقُوّض الأدب
العبد عبد والمملك مالك عز الفرار وأعوز الهرب
لاتصغين إلى خطيب مارق بئس الخطيب وبئست الخطب
واقنع بتصريف القضاء تعش كما عاش الكرام ذوو النهى النجب

عبد الستار سلام

نَشِيدُ الْمُرْشِدَاتِ

لمحمد يوسف المحجوب

المدرس بمدرسة محمد على الملكية الأميرية للبنات بالقاهرة

« مَنْ سِـــوَانَا فِي رُبَى مِصْرَ الْفَتَاهْ يَنْهَضُ ؟ »
« مَنْ سِـــوَانَا بَاعِثًا فِيهَـــا الحياهْ تَنْبِضُ ؟ »

* * *

مَنْ لِمِصْرَ الْيَوْمَ فِي سَـــاحِ الْفَخَارْ مِثْلَنَـــا ؟
أنتِ يَا تَاجَ الْمَعَـــالِي وَالْمَنَـــارْ أُمُّنَـــا

* * *

من سوانا ... ...

* * *

قَدْ نَهَضْنَا فِيـــكِ يَحْـــدُونَا الرَّجَاءْ وَالأَمَـــلْ
فَجَنَيْنَا مِنْـــكِ مَوْفُورَ الْهَنَـــاءْ بِالْعَمَـــلْ

* * *

من سوانا ... ...

* * *

قَدْ غَـــدَوْنَا فِي فَمِ الدَّهْرِ الْعَتِيـــدْ خَـــالِدَاتْ
يَوْمَ أَنْ قُمْنَا بِوَادِينَا السَّعِيـــدْ مُرْشِدَاتْ

* * *

من سوانا ... ...

* * *

مُرْشِدَاتٍ تَتَحَلَّى بِالْكَمَالْ وَالشَّرَفْ
وَتُجَافِي ـ الدَّهْرَ ـ مَذْمُومَ الْخِصَالْ وَالسَّرَفْ

* * *

من سوانا ... ...

* * *

مُشْفِقَاتٌ، إِنْ رَأَيْنَا الْمُسْتَضَامْ نُنْصِفُ
أَوْ لَمَحْنَا بَائِسًا بَيْنَ الْأَنَامْ نُسْعِفُ

* * *

من سوانا ... ...

* * *

راحِمَاتٍ، رَاعِيَاتٍ لِلْجَمِيلْ وَالْإِخَاءْ
قَدْ أَلِفْنَا الْعَيْشَ فِي ظِلٍّ ظَلِيلْ مِنْ صَفَاءْ

* * *

من سوانا ... ...

* * *

مُرْشِدَاتُ النِّيلِ نَحْنُ الْمُشْرِقَاتْ أَنْجُمَا
قَدْ نَمَانَا لِلْعُلَا وَالْمَكْرُمَاتْ مَنْ نَمَا

* * *

من سوانا ... ...

* * *

دِينُنَا الْإِخْلَاصُ لِلّٰهِ الْقَدِيرْ وَالْوَطَنْ
وَالْمَلِيكِ الْوَاهِبِ الْخَيْرَ الْكَثِيرْ ذِي الْمِنَنْ

* * *

« مَنْ سِوَانَا فِي رُبَى مِصْرَ الْفَتَاهْ يَنْهَضُ ؟ »
« مَنْ سِوَانَا بَاعِثًا فِيهَا الْحَيَاهْ تَنْبِضُ ؟ »

محمد يوسف المحجوب

المدارس وآثارها القومية والاجتماعية

بقلم عبد الحميد حسن
المفتش بالمعارف

من الأصول الثابتة التى لابد منها فى تكوين الأمم أن يتجانس أفرادها فى العادات ، وفى المظاهر القومية ، وأن تكون وحدة الاجتماع بينهم شاملة ، وأن يكون لهم من التقاليد ووجهات النظر والتفكير العام ، ما يجمع شتاتهم ، ويؤلف بينهم ، ويثبت دعائم حياتهم ، فيصبح للأمة من كل هذا طابع خاص ، يميزها عن غيرها ، ويبدو جليا فى مجتمعاتها وألعابها وملاهيها وأعيادها وحياتها المنزلية وفهمها للجمال والتنسيق وغير ذلك . وهذا هو الذى يحدد شخصيتها ؛ فالأمة كالفرد لها شخصية تنشأ عن مجموع مالها من صفات وتقاليد وميول وغيرها من المقومات وإنا لنرى هذه الشخصية فى الأمم الراقية متجلية فى مرافق حياتها ونظمها ومختلف شؤونها .

هذه الشخصية وليدة عوامل شتى تتحكم فى جميع الأفراد تحكما قهريا فتؤثر فيهم جميعا بدرجات متفاوتة ، ولكنها تترك فيهم مظاهر متقاربة .

ومن بين هذه العوامل عامل ننظمه بأيدينا ، ونتخذه وسيلة لصقل أبناء الأمة وتوجيههم وجهة قد يكون فيها الخير وتكون وسيلة للتقريب بينهم فى الصفات العامة وقد تكون سببا من أسباب التجافى والتباعد وإيجاد الفروق . ذلك العامل هو المدرسة .

ظلت المدارس أحقابا وليس لها غايات اجتماعية ولا مقاصد قومية ولم يكن الغرض الأساسى منها يعدو الدرس والتحصيل وقراءة الكتب وحل المعضلات العلمية أو الابتكار الفنى فى شكل من أشكاله . ولكن الحال الآن على غير هذا من سمو الغاية وشمول الغرض . فالمدرسة اليوم لها إلى جانب الغايات التعليمية

والتثقيفية غايات أخرى أنبل وأقوى فهى من أمتن دعائم الاصلاح الاجتماعى والخلقى والقومى وهى مجتمع صغير يمد المجتمع العام بعناصر الحيـاة الصالحة ويعاون المصلحين على بث صفات الخير وتنشئة الأفراد على المثال الذى يريدون، وهى لهذا من خير العوامل فى البيئة ومن أقوى المؤثرات فى التقريب بين أبناء الأمة فى المشاعر والطباع والعادات والتفكير ونظم المعاملة وسائرشؤون الحياة. ورب قائل يقول كيف تؤثر المدرسـة فى البيئة مع أن المعروف أن المدارس والمناهج ونظم التعليم إنما تستمد من البيئة وتتأثر بها وتتمشى مع مظاهرها وأن المدرسة إن هى إلا صورة للمجتمع وما فيه.

ولسنا نجادل فى هـذا فالتفاعل بين المدرسة والمجتمع مشترك، والمدرسة وإن كانت أثراً من آثار البيئة من أقوى العوامل فى نشر ما فى البيئة من خصائص وما للأمة من مقومات ووسيلة لتوحيد الآثار التى توحى بها البيئة (ولما يضع أساسه المصلحون) ولتغذية جميع الأفراد بكل هذا، فهى منبت لقويم العادات وأمثل نظم الحياة وهى المزرعة للمظاهر المكونة للأمة وهى كالشجرة تستمد الغذاء والحياة من البيئة التى تغرس فيها ثم تغمرها بوارف ظلها وتفيض عليها من يانع ثمرها ودانى قطوفها .

ولهـذا كانت آمال المصلحين فى مدارس اليوم عظيمة فهى التى يرجو منها المجتمع أن تهيء الأفراد لخدمته وتعدهم لفهمه وللحياة الصالحة فاذا أحسنت المدرسة هذا الاعداد أخرجت أفراد تنشأ من مجموعهم أمة متماسكة لها شخصيتها القويمة وطابعها المتجانس. أما إذا تفرقت وسائل الاعداد وضاقت الغاية ولم يكن فى المدرسـة الغذاء القومى والاجتماعى المشترك فإنها لا تـكون عونا للمجتمع ولا تنتج إلا طبقات متفرقة لا تجانس بينها فى القومية ولا فى حياتها الاجتماعية ولهذا أثره فى قيادة الأمة وتفاهم أفرادها وسهولة المعاملة بينهم. ولعلنا نلمح شيئا من هذا فى بيئتنا المصرية فالفروق كبيرة بين الطبقات وبين طوائف المتعلمين.

وللمدرسة أثر آخر فى قيادة الأمة ذلك أنها عون للحكومة وللمصلحين على طبع الشعب على النظام الذى يريدون وعلى تعميم الارشاد الذى يودون نشره،

وعلى تثبيت ما يقصدون إلى غرسه فى الأفراد من عادات صحية وخلقية واتجاهات فى التفكير ونظم الحياة والمعاملات المادية والاجتماعية وغير ذلك مما يملأ قلوب من يريدون خير الشعوب ورقيها .

يقول أحد الساسة : « إن القابض على زمام المدارس ومقاليد التربية يستطيع أن يكون الشعب كما يريد وأن يغير اتجاهه وحياته فى فترة من الزمن » . ولا أعتقد أنه قصد بذلك التعليم فحسب أو القراءة وحدها ، فالقراءة ليست كل شىء فى تكوين الشعوب ، والأثر القوى فى ذلك إنما يرجع إلى الاعداد الخلقى الصحيح والارشاد الحيوى الشامل وتثبيت دعائم الحياة الاجتماعية وغرس المظاهر الوطنية والقومية إلى غير ذلك مما يخلق الأمم خلقا جديدا ويوجهها الوجهة الصالحة .

إن القراءة إنما هى وسيلة اصطلاحية للتفاهم وعون للاستزادة من الثقافة ونشرها ، ولكنها ليست بالشىء الكبير فى إعداد الأفراد للحياة وطبعهم بالطابع الذى يتطلبه بقاء الأمة ورخاؤها ، وإن الأثر الذى تحدثه المدرسة فى الأمة لا ينبع من مجرد القراءة والكتابة ولا من التكوين العقلى وحده أو من التقدم العلمى فحسب ، فقد ظلت المدارس فى جميع العصور الغابرة تعلم القراءة والكتابة وتكيل الحقائق العلمية ، غير أن هذا لم يصل بنا إلى ما ينشد المصلحون ولم يمنع من الشكوى من قصور الشعب وضعف المجتمع من وجوه شتى .

ولست أريد بهذا أن أغض من قدر التعليم اللفظى والاستزادة من المعارف ولكننى أريد أن أقرر حقيقة أصبحت اليوم ثابتة وهى أن مدارسنا إذا اقتصرت على القراءة والكتابة وعلى التعليم وحده لم تستطع أن تؤدى رسالتها للمجتمع ولم تقم بالواجب للشعب المصرى .

ان المجتمع المصرى ولا سيما فى الريف يعوزه كثير من التقويم ، وجمهور الأمة تغمره الخرافات وبغيض العادات ، ومظاهرنا القومية والاجتماعية تحتاج إلى قدر كبير من الاصلاح . والمدارس هى مقعد الآمال فى كل هذا ، فهى العامل الذى نستطيع أن نسيطر عليه والبيئة التى نغرس فيها أصول نهوضنا فتثمر الثمر الذى نرجو منه الخير للبلاد .

ولكن الوصول إلى هذه الغاية إنما يتحقق إذا جعلنا المحور الذى تدور حوله المدرسة هو قيادة التلاميذ إلى حياة منظمة مفيدة لهم وللمجتمع أما القراءة والكتابة والتعليم الكتابى فانه يجىء تبعاً لذلك ومكملا له . وهذا هو ما أريد أن أعرض له بإيجاز :

٭٭٭

إنى أترك جانبا عواصمنا ومدننا الكبيرة التى تزخر بوسائل النقل المختلفة وتكتظ بالحوانيت والمقاهى والملاهى وتتمتع بمظاهر النعيم التى نقشتها المدنية الحديثة . أترك كل هذا وأتجه إلى المدن المتواضعة وإلى الريف وما فيه من حياة فطرية وعادات ونظام وخلق .

أترك هذه العواصم جانباً فهى مصطبغة بالمدنية الحديثة صبغة ظاهرة إلى حد ما ، وأتجه إلى الريف وشبهه ففيه جمهور الأمة وعليه معقد الآمال فى النهوض الحقيقى للبلاد . فإذا ارتقت الحياة فى الريف ففى ذلك الرقى الشامل . أما الزخارف التى نراها فى مدننا الكبيرة فليست دليلا على رقينا الحقيقى وليست إلا صورة سطحية للمدنية الأوربية التى اصطبغت بها مظاهر حياتنا لاصميمها . أما الريف والأحياء الوطنية فلا تزال وراء المدنية والفرق بين حياتها وحياة المدن شاسع .

أترك كل هذه جانبا وأتجه إلى الريف وأهله فهم فى حاجة إلى النهوض فى حياتهم وتفكيرهم ونظام منازلهم وصحتهم وملابسهم ومسراتهم ومعاملاتهم وجميع مرافق حياتهم .

ثم أتجه إلى المدارس فأستمد منها الاصلاح ، فالمدرسة فى بلادنا يجب أن تكون المركز الذى يسطع منه ضوء الحياة وهى التى تفيض بالإرشاد على تلاميذها وعلى القرية وأهلها وعلى البيئة ومن فيها . والمدرسة فى الريف يجب أن تكون ميداناً لإرشاد الجمهور إلى أقوم سبل الحياة وأن تكون مهدا لتنمية الصفات القويمة وموطناً للحياة التى نرجو أن يسير على نهجها سكان القرية لتصلح حالهم ويسايروا العالم فى رقيه ، فى حدود لاتخرجهم عن الحياة الريفية الطبيعية ولا تنغمس بهم فى تيار الزخارف المنتشرة فى المدن .

ولعلنا إذا وصلنا إلى هذا الاصلاح نكون قد أكسبنا الريف من نضارة الحياة الطبيعية الصافية السليمة المنظمة مايحببه إلى قلوب المتعلمين والاثرياء الذين يفرون منه نفوراً من نظامه وركود حياته .

٭٭٭

ولعلك تسأل أيها القارىء : وأى نوع من المدارس أو النظم التعليمية يحقق هذا ؟ وجوابى هو أن المدرسة التى أريدها ليست على نمط مدارسنا الحالية التى تعلم فيها العلوم وتدرس المواد وتعد التلاميذ للامتحان ، بل هى نوع متواضع يعد للحياة المتواضعة النافعة أو هى حقل للعمل وللحياة . وسأشرح نظامها وأذكر إلى جانب ذلك بعض المقترحات ووجوه الإصلاح التى أرى فيها قسطا من الخير .

وسأحصر ملاحظاتى فى أشياء ثلاثة وهى :

(١) مدارس الحقول

(٢) الإرشاد المدرسى والسمر القومى

(٣) المكتبات والمتاحف والمعارض

٭٭٭

(١) مدارس الحقول

ان المدارس الالزامية والأولية الحالية إنما ترمى إلى محو الأمية مع تزويد المتعلم بقدر ملائم من الثقافة المحلية . ولست أريد أكثر من هذا فى المدرسة التى أقترحها ولكننى لا أريد أن يكون هذا القدر التعليمى هو الأساس فى المدرسة . وإنما أريد أن تكون المدرسة فى صميمها مزرعة وأن يكون الغرض الأساسى منها هو الحياة المنظمة التى يحتذيها سكان الريف ويذيعها البنون والبنات بعد انتهائهم من المدرسة وعودتهم إلى أسرهم وإلى حياتهم فى القرية .

تكون المدرسة فى أساسها مزرعة والعمل فيها يكون عمل الريف فى الحقول ، أما القراءة والكتابة فتجىء تبعا .

وهذه المدارس تكون داخلية بعضها للبنات ، وبعضها للبنين ، وتبنى فيها المساكن

على نظام متواضع وتؤثث بالأسرة والمقاعد المتخذة من جريد النخل وتجهز بوسائل النظافة على الطرق الصحية فى أيسر مظاهرها .

وفى مدارس البنات يكون الأساس أن تعيش البنت عيشة نظيفة منظمة قليلة النفقة وأن تعمل ما تعمله الريفية فى الحقل وفى المنزل. فتتعهد الدواجن وتحلب المواشى وتعمل الجبن والزبد وأنواع المربيات والمخللات ، وتستخرج أنواع العطر ، وتقوم بما يلائم من الصناعات الزراعية .

وإلى جانب هذا تتعلم الخياطة وتفصيل الملابس الريفية ، وعمل الأثاث من جريد النخل ، وتنظف ملابسها وحجرتها ، وتسير فى حياتها على القواعد الصحية .

ولعل أحدث أصول التربية ترى فى هذا قدرا من الثقافة نافعاً وكافياً ، وقسطاً لا بأس به من التعليم والانتفاع بمشاهد الطبيعة ، إلى جانب الاعداد العملى للحياة الريفية . هذا إلى العادات النافعة التى تنطبع فى نفس الفتاة ، حتى إذا أتمت البنت هذه المرحلة وعادت إلى أسرتها كانت عونا على بث ما غرس فى نفسها من العادات ونظم المعيشة فى قومها وعشيرتها .

ومما يزيد أثر هذه المدارس الريفية ، أن تنظم فيها محاضرات سهلة إرشادية فى الصحة والتهذيب ، ومحاربة الخرافات وأشباهها من العادات السيئة محاربة عملية . ويدعى إلى هذه المحاضرات نساء من القرى من أمهات التلميذات وقريباتهن .

وعند ذلك تسنح الفرصة لمشاهدة نظام المعيشة فى المزرعة ، وما تتبعه البنات من عيشة صحية وحياة منظمة .

وتنشأ للبنين مدارس على هذا النمط مع التعديل بما يلائم حياة الريفى وعمله .

وليكن فى هذه المدارس طائفة من الأناشيد الريفية المختلفة الخاصة والعامة فى وصف حياة الريفى وما يحيط به من مناظر ، وفى الاعتداد ببيئته ، والاعتزاز بقوميته والفخر بما تنتج أرضه وما تدر جهوده على البلاد من خير .

وإن مدرسة واحدة من هذا النوع سيكون لها أثر حيوى عظيم . وهذا فى اعتقادى أجدى وأقل نفقة وأعظم من القرى النموذجية التى أنشأتها أو تعتزم

إنشاءها بعض السلطات ، فإن هذه المدارس ستوقظ في النفوس الرغبة فى إنشاء المساكن والقرى على الطراز الصحى وستكون وسيلة لإرشاد الريف وأهله إلى أقوم السبل للحياة الصالحة .

وإذا كانت وزارة المعارف قد شرعت فى تحويل بعض المدارس التحضيرية للمعلمين إلى مدارس صناعية وزراعية فإن تحويل بعض المدارس الإلزامية والأولية إلى هذا النوع من المدارس الريفية أو الحقول العاملة سيكون عظيم النفع من الوجهتين الاجتماعية والقومية .

أما نفقات هذه المدارس فليست جسيمة فإنها ستكون مصادر إنتاج وثروة تعوض بعض ما ينفق عليها أو جله وقد يكون الربح المالى منها مشجعاً .

هذا إلى أن الأغنياء والجمعيات الخيرية التى تنفق جانبا من خيراتها فى التعليم سترى أن هذا النوع من المدارس أنفع للبلاد وأجدى على جمهور الأمة فتخصه بنصيب وافر من معونتها .

(٢) الإرشاد المدرسى والسمر القومى

كانت بعض المقاهى البلدية منذ عهد ليس بالبعيد عامرة بالسمر الأدبى الشائق الذى يجتذب قلوب الجماهير من عامة الشعب ، فكنت ترى فيها « الشاعر » بربابته يلقى أخبار أبى زيد الهلالى والزناتى خليفة وغيرهما ، وتسمع « المحدِّث » يتلو قصة سيف بن ذى يزن أو قصة عنترة أو نحو ذلك ، والجمهور حوله صامت يملأ قلبه الشغف ، وتهز نفسه حوادث البطولة ومظاهر المروءة ، وتطربه الخلال الكريمة ويبعث القصص الشائق فيه نبيل العواطف .

ولقد كان لهذا النوع من السمر أثره الحميد فى التهذيب وفى الثقافة ، فكثيرا ما كنت تسمع من العامة بعض الأشعار والأمثال التى استرعت نفوسهم تجرى على ألسنتهم مقرونة بالاعجاب والسرور .

وكان المرحوم الأستاذ « براون » المستشرق الانجليزى عظيم الاعجاب بهده

المنتديات القومية الوطنية وبهذا « الشاعر » الذى كان يلقى هذا القصص فى قهوة وطنية عند بيت القاضى بالقاهرة ، وكثيراً ما كان يغشاها عند زيارته لمصر ، وقد نقل عنه بعض الأسطوانات وكان كثير الاعتزاز بها يطرب بها زائريه فى كمبردج على الحاكى ، ولقد كان أسفه عظيما حينما زار مصر ورأى آثار هذا السمر القومى آخذة فى الاضمحلال .

هـذا السمر القومى نستطيع إحياءه فى الريف فى الأوقات الملائمة ، ويكون منبعه المدرسة الريفية يجتمع الجمهور الريفى فى ساحتها لسماع القصص النافعة القديمة والحديثة التى يسطرها المصلحون والعارفون بطبائع الشعب ومواطن دائه الخلقى والاجتماعى وبأنواع الدواء .

يسطرون ذلك فيجعلونه فى ظاهره سلوةولهواً ، وفى باطنهالاصلاحوالتوجيه القومى والاجتماعى والأمثلة الصالحة للحياة الرشيدة وللخلق الفاضل .

وإذا ألف الجمهور السعى لسماع هذا السمر تنتهز فرص اجتماعه فيلقى عليه فى خلال ذلك الارشاد النافع فى شؤون الحياة الصحية والوطنية وغير ذلك .

وإذا كانت وزارة المعارف قد بدأت تعنى بالاذاعة فى المدارس وتنظم موضوعاتها ، فما أشد حاجة الريف وأهله إلى شىء من هـذا يذاع على مسامعه ولـكن لا على أمواج الأثير ، بل على ألسنة المرشدين والمصلحين ، واعتقادى أننا سنجنى من هـذا السمر خيراً عظيما للشعب فى حيـاته وعاداته وخلقه ونهوضه وثقافته .

(٣) المكتبة والمتحف والمعرض :

وليكن إلى جانب إحدى المدارس الريفية مكتبة ومتحف ومعرض .

أما المـكتبة فلمنفعةالتلاميذ وفائدة الجمهور يؤمها من يريدالقراءة أو الاستعارة بشروط تنظم لذلك .

وأما المتحف فانه يضم بعض النماذج التاريخية المحلية وبعض الصور التعليمية والقومية كصور العظماء والمناظر الطريفة فى البيئة أو غيرها ، ونموذجاً بارزاً

للقرية وما يجاورها ، إلى غير ذلك مما يزيد الثقافة ، ويصور للسكان قريتهم فيعظم شأنها فى نظرهم ويزداد اهتمامهم بها وحنينهم إليها وشغفهم بخيرها ونهضتها .

وأما المعرض فإنه يحوى طائفة من منتجات البيئة ونماذج من المصنوعات الوطنية فى جهات القطر وما اشتهرت به بلادنا المختلفة .

ولهذه الأشياء الثلاثة آثار شاملة تشجع على الاهتمام بانشائها . وإن النابهين وذوى الرأى والأثرياء ممن أنبتتهم القرية وأظلتهم بسمائها وغذتهم بخيرها سيجدون من الوفاء والفخار أن يكون لهم فى كل هذه الأعمال الجليلة آثار محمودة فتتحرك لها هممهم وتنشط أريحيتهم .

✡ ✡ ✡

هذه ملاحظات جالت بالخاطر أعرضها للنظر والتمحيص ، ولعلها تثير الاهتمام بأنواع جديدة من المدارس العاملة النافعة . ؟

عبد الحميد حسن

تربية الشخصية فى مرحلة البلوغ [1]

بقلم محمد خلف الله
عضو بعثة دار العلوم بانجلترة

٢

واما المشكلة الثالثة من مشكلات البلوغ فهى معضلة الجنس ، وقد يظن بعض الناس أن الكلام فيها سابق لأوانه ، وأن مصر لم تواجه فى هذا الباب ما واجهته الأمم الأخرى من المشكلات ، وأن لنا من تقاليدنا الإسلامية ما يكفل لنا السلامة من هذه الناحية . والحق أن المعضلة قائمة عندنا فى مصر لا يغطيها إلا التحرج عن الكلام فيها ، والتربية التى نتبعها فى هذا الموضوع لا تتفق معروح الدين وأسراره ، وطلاب المدارس عندنا عرضة لأخطار جنسية كثيرة يعرفها كل من اتصل بالتعليم فى المدارس المصرية للبنين أو البنات .

لهذا كان لزاماً علينا أن ندرس غريزة الجنس ومظاهرها النفسانية فى مرحلة البلوغ لنعرف السبيل إلى توجيهها أو ضبطها وتخليص الشباب من أمراضها .

أما كون غريزة الجنس من أهم العوامل فى حياة الطفل وفى نموه النفسانى والجثمانى ، وكون تجاهل داعيها كتجاهل داعى أى غريزة أساسية فى الحياة يؤدى إلى عواقب سيئة فذلك متفق عليه من كبار علماء النفس الآن ، وقد أثبتت بحوثهم أن الطفل قبيل مرحلة البلوغ وإبّانها يتعطش للتواصل أيًّا كان ، ويشعر برغبة شديدة فى الاتصال بشخص آخر سواء أكان من جنسه أم من الجنس الآخر : وأن السنوات الأربع أو الخمس التى تعقب ظهور أعراض البلوغ

(١) راجع المقال الأول فى العدد الأول من السنة الثانية من صحيفة دار العلوم ص ٢٠٨ — ٢١٥

هى أنسب مراحل الحياة لتنمية شعور الجنسية الغَيْرِيَّة (١) وأنه إذا سد الطريق على هذا النمو فى تلك المرحلة فقد يندر أن يجد فرصة أخرى لسيره الطبعى .

هذه نقطة يجب أن يتنبه لها المُرَبُّونَ فى مصر وعلى الأخص المشرفون على سير التدريس ، فى المدارس الابتدائية والثانوية ، إذ أن حياة المدُن عندنا وما جرينا عليه من العادات يجعلا الأولاد والبنات عرضة لخطر الجنسية المِثْلِيَّة (٢) .

وقد يَؤُول أمر بعضهم إلى انعكاس الطبع وإلى العادات السرية وما يصحبها من الأمراض وأحلام اليقظة واضطراب البال وإهمال العمل .

هذا إلى أن نظام الإبعاد بين الجنسين فى شكله الحاضر فى بعض بيئاتنا قد يجر إلى نتائج نفسانية سيئة يجدر بالمربين أن يتلافوها . ومن بينها تلك الصور الخيالية التى يخلقها الوهم فى عقل كل من الجنسين عن الجنس الآخر والتى تجعل الأفراد عرضة للأمراض الوجدانية والعقلية وتجعل من الصعب عليهم فيما بعد إعداد أنفسهم للحياة الجنسية المشروعة .

هذا الموضوع من الموضوعات الاجتماعية الشائكة ، والخلاف بين العلماء فى نواحيه التعليمية والنفسانية والاجتماعية كثير - وأنا أميل إلى الظن أن أوروبا وأمريكا قد جاوزتا الغاية فى إباحيتهما على حين وقفنا نحن موقف الحائر المتردد يحاول المحدثون منا أن يقذفوا بأنفسهم فى الهاوية ، ويحاول المحافظون أن يتجاهلوا خواص الطبيعة الإنسانية ومطالبها ، وبين هؤلاء وأولئك يتلمس المصلح المسلم

(١) و (٢) : الجنسية الغيرية والجنسية المثلية ، أو غيرية الجنس ومثلية الجنس : اصطلاحان قصدت بأولهما الظاهرة الطبعية من اتجاه الشعور الجنسى عند الذكر إلى الأنثى ، وعند الأنثى الى الذكر . وقصدت بثانيهما الظاهرة الشاذة عند بعض معكوسى الطباع من اتجاه الشعور الجنسى عند الذكر إلى مذكر وعند الانثى إلى أنثى مثلها . وعلى هذا فالشخص نفسه يوصف بأنه غيرى الجنس أو مثليه تبعاً لانتمائه إلى الطبعى أو الشاذ من الناس . هذا والاصطلاحان فى نظرى غير منسجمين وربما وفقت أو وفق غيرى إلى العثور على خير منهما .

طريقاً للخلاص يجمع فى حدود الشرع والتقاليد بين نتائج العلم الحديث وقواعد الاجتماع والعمران .

لست أجدنى هنا فى حاجة إلى تحذير بنى قومنا من التقليد الأعمى لأوربا فيما جرت عليه من رقص وخلاعة واختلاط غير مشروع ، فذلك شر أرجو ألا نضطر يوما ما لمحاربته فى مصر - ويكفى أن يعلم المصريون أن علماء الاجتماع فى أوربا بدءوا يتلمسون طريقاً للعدول عن هذه الإباحية والرجوع إلى الحياة الطبيعية الرزينة الراجحة .

ولكن هذا لا يمنعنا أن نتتفع بتجارب القوم فى هذا الميدان فنعطى أطفالنا قسطا صالحاً من المعلومات عن الجسم ووظائفه العضوية . ونجيب عن أسئلتهم المحرجة فى صراحة وحكمة ، ونتدرج فى تزويدهم بالمعلومات الجنسية حسب سنهم وإدراكهم ، ونعلمهم ضبط النفس على قواعد الصحة والشرف لا على أساس التخويف من الشر والخطيئة فحسب ، إذ أن التربية المبنية على أساس التحذير وحده تربية ناقصة تفكك الشخصية وتجعل الشخص فى حرب دائمة مع نفسه . ويؤسفنى أن أقرر هنا أن معظم شباننا فى البلاد الغربية يقعون فريسة لهذا المرض وأنه لا تطأ أقدامهم تلك البلاد حتى يفلت عنان أنفسهم من أيديهم وحتى ينطلق المحبوس من شهواتهم وتعلو أهواؤهم على عقولهم ويصبحوا وهم أحرى بأن يُسَمَّوْا مرضى أخلاقيين لا فسقة مذنبين . وهم فى تلك الحال على صنفين : صنف تعصف به عاصفة الشهوة ثم يعود إليه رشده فيقرع سن الندم ، ثم يعاود الخطيئة ثانية وثالثة وهكذا تستمر الحرب بينه وبين نفسه سجالا ، وصنف لاقوام لشخصيته ولا عماد لذاته وهذا تعبث به الأهواء عبث النكباء بالعود فيلقى سلاح المقاومة ويصبح أسير الشهوات .

ومنذ أشهر قمت ببحث نفسى (سيكولوجى) صغير على الأحوال الأخلاقية بين إخواننا المصريين فى انجلتره ، وكان من بين الأسئلة التى طلبت منهم الإجابة عنها أن أعطيتهم قائمة بعشر رذائل (من بينها السرقة وشرب الخمر وشهادة الزور والكذب والزنا . . . . .) ورجوت كل واحد منهم أن يرتبها حسب درجة كل

منها من الإثم والشناعة . فاتفقت كلمة معظمهم أن الزنا أقل هذه الخطايا إثما وشناعة محتجين بأن الشخص يرتكب هذا المنكر مقهورا على أمره مغلوبا على إرادته .

هذا ولنعد الآن إلى ما كنا بصدده فنقول : إن مما يساعد على تربية الابن تربية جنسية صالحة أن يكون الجو الذى ينشأ فيه جوا كله قصد فى المعاملة وتوسط بين اللين والشدة ، ومودة ورحمة بين الوالدين . فالطفل الذى ينشأ فى بيئة كلها نزاع وخصام تصبح حياته الوجدانية مزعزعة مضطربة . كذلك يحسن بالأسر أن تتزاور ليتهيأ للناشئين والناشئات فرص بريئة يتعارفون فيها ويأنس كل بالآخر تحت رعاية الوالدين وإشرافهما الحكيم .

وتستطيع المدارس الثانوية للبنين والبنات أن تسد من هذه الناحية نقصا كبيرا بأن تكثر من حفلات السمر البرىء وما يتبعها من موسيقى ومناظرات وألعاب جمعية . فمثل هذه الحفلات تخدم غرضين : الأول التعارف وتبادل الود بين أفراد الجنسين ، والثانى توجيه الشعور الجنسى وجهة سامية يجد فيها الفرد لذة نزيهة فى لحن موسيقى أو قطعة شعرية أو أنشودة وطنية أو لهو برىء أو ألعاب جمعية فكهة على نحو ما يقوم به أحداث القرى الصغيرة عندنا فى مصر . ويدخل فى هذا الباب الألعاب البدنية المحتشمة التى يشترك فى تنظيمها على نغمات الموسيقى مجموع مختلط من الأطفال مما يسمونه فى انجلترا رقص العامة أو الرقص البلدى .

هذا إلى أن الألعاب والحياة فى الهواء الطلق ، خصوصا فى جو كجو مصر الساحر ، والعناية بالفنون الجميلة ، والانشغال بالبحوث الذهنية ، وتعويد الولد والبنت التمتع باللذات البريئة ومن بينها المطالعة والأشغال اليدوية والتصوير والرسم وبناء النماذج والسباحة والتنس ، وجمع المجموعات العلمية والتاريخية ، كل هذا يُوَجِّه النشاط الفنى وجهة حميدة ، ويهيىء له مُتَعاً دائمة فى الحياة . فإذا حرم الفتيَانُ هذا اندفعوا بالطبع إلى غشيان الأندية والمجالس وأماكن الكسل والخمول ففسد تيار أفكارهم وانصرفوا إلى العبث والمجون .

هذا القدر الذى أسلفته يمثل فى نظرى الوسط المقبول الذى يصح أن نتبعه دون خوف أو حذر . ويحسن هنا أن نفرق بين وجهة النظر هذه وبين المذهب (السيكولوجى) الذى يغالى فى موضوع التربية الجنسية ويريد إدخالها فى كل مرحلة من مراحل العمر ويبالغ فى خطر الجهالة بها مبالغة فاحشة ، إذ أننا إذا نظرنا إلى ماضينا وماضى من عرفنا من الناس وجدنا أن هذه الصعوبات والمخاوف كلها مبالغ فيها . وربما عدنا إلى نقد هذا المذهب فى بحث آخر - وحسبنا أن نربى الطفل تربية صحية صالحة ، ونشرح له من صغره أن جنسه لن يتغير وأن أولاد اليوم وبناته هم رجال المستقبل ونساؤه ، وأنه سوف لا يُربى الولد تربية البنات ، ولا البنت تربية البنين - وفى هذا تلاف لما يقع فيه كثير من الآباء من خلق المشاكل فى حياة الطفل إذ يظهرون أمامه الكراهة لجنسه أو يلبسونه ملابس الجنس الآخر - ومن هذا ما يحدث أحيانا من أن بنتا تشبه مخايلها ملامح الأولاد فيخاطبها أصدقاء الأسرة وجيرانها خطاب الولد ويكون هذا مبدأ لصعوبات كثيرة فى حياتها .

ويجب توقى المناقشات الخاصة بالجنسين أمام الأطفال وخصوصا ما تضمن منها التعريض بأن البنات دون الأولاد فى المنزلة إذ أن فى تعويد الأولاد الاعتقاد بأن البنات أضعف منهم شأنا تنشئة لهم على أن يعتبروهن موضوعات للرغبة والشهوة فحسب ، وعلى أن ينظروا إلى العلاقات الجنسية نظرة عمياء مشوهة ، وهذا النقص تئن منه الأمم المتمدينة الآن رغم محاولتها المساواة بين الرجال والنساء فى ميادين كثيرة .

أما التربية الجنسية العضوية فليس من اللازم أن يعطاها الأطفال فى المراحل الأولى من العمر ، والأفضل الانتظار حتى يبدأ الطفل من نفسه بالسؤال مدفوعا بغريزة حب الاستطلاع ، وليحذر الآباء أن يجيبوا الطفل إجابة تنبه ما كمن فيه من الرغبات الجنسية ، ثم ليحذروا أن يقتنوا الصور والكتب التى تهيج فى الأطفال هذا الشعور ، وليكفوا عن أخذ أطفالهم لمشاهدة أشرطة سينمائية مبنية على الموضوعات الجنسية . وليكن للأطفال حجر خاصة ينامون فيها منعزلين

عن آبائهم ، ثم ليفرق بين البنات والأولاد فى المضاجع .

وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر بعض الظواهر التى تلاحظ على البنات والأولاد فى مرحلة البلوغ ليفطن لها الآباء والمربون . فبعض البنات مثلا يظهرن بمظهر الكراهة للأنوثة ويملن إلى تقليد الأولاد خصوصا فى عاداتهم الرذيلة كالتدخين والشرب ـ وإذا حللنا هذه الظاهرة وجدنا أن منشأها كراهة البنت للأنوثة فى دور الطفولة وأن هذه الكراهة كانت مستورة حتى جاء دور البلوغ فكشف عنها القناع . لهذا كان من المهم أن نراقب البنات فى طور البلوغ لنرى ماذا ستكون حالهن تجاه دورهن فى الحياة المقبلة .

وقد نجد من البنات من ينصرفن إلى التفكير فى العلاقات الجنسية والانشغال بالشبان ـ ولذلك كثيرا مايشتجرن وأمهاتهن ويدعين أنهن مهضومات ـ والذنب فى هذا على الآباء فإنهم لم يعدوا بناتهم لهذه المرحلة ولم ينموا عندهن قوة الحكم وأصالة الرأى وقدر الأشياء حق قدرها .

ومعظم الأولاد فى مرحلة البلوغ يميلون إلى التشبه بالرجال فى الشجاعة والحكمة والثقة بالنفس ـ غير أن منهم من يهابون صعاب الحياة ويفرون من مواجهتها لفقد الثقة بأنفسهم ، وربما ظهر بعضهم بمظهر الضعف والخنوثة وقلدوا البنات فى تصرفهم كالإفراط فى التزين واستهواء الأعين .

وهنالك فريق ثالث من الأولاد يغلو فى ادعاء الرجولة والتظاهر بخصائصها فيفرط فى الشرب وفى العلاقات الجنسية ويرتكب الجرائم لالشىء سوى رغبته فى التظاهر بالرجولة والقوة .

فمن أحسن الوسائل إذن للتمهيد لمرحلة البلوغ واتقاء أخطارها أن ننمى روح الصداقة فى الأطفال ليشعروا بالود والثقة نحو رفقائهم وأعضاء أسرتهم وكل من يتصل بهم . وأن نعودهم التعاون والاعتماد على النفس ، وأن ننمى شخصيتهم من كل ناحية من نواحيها جثمانية أو نفسانية ، وأن ننور أذهانهم بالبصر والمعرفة ونزحزحهم من دنيا الخيال والأحلام إلى دنيا الحقيقة والعمل .

الآن وقد فصلنا الكلام على مشاكل المراهقة والبلوغ من ناحية التربيتين

الشخصية والاجتماعية ، وعلى مانستطيع أن نساعد به ، بنينا وبناتنا فى كفاحهم فى أهم مرحلة من مراحل الحياة ، فلنرجع البصر على مافصانا ، ولنجمله إجمالا يضم شتاته ، ويظهر ما انطوى فى ثناياه من بعض مقترحات حاولنا فيها تطبيق النتائج العملية على أحوالنا فى مصر .

وليسمح لى القارئ هنا أن أذكِّره أن أغلب البحوث النفسية (السيكولوجية) التى أدت إلى هذه النتائج إنما أجريت على شبيبة الغرب ، وأنه يجب علينا ألا نأخذها على علاتها — وإنما على النفسانيين منا أن يُعَدِّلوها ويطبقوها أو مثيلاتها على شبيبة مصر ليخدموا العلم من جهة وليخدموا الاجتماع فى بلدهم من جهة أخرى ، ثم ليعذرنى القارئ إذ لم أستطع أن أقصر الكلام فى بعض النقط على مرحلة البلوغ فحسب ذلك لأن المعروف بين علماء النفس أن تقسيم النمو النفسانى إلى مراحل إنما يقصد منه تسهيل البحث وتحديد دائرته ، ويُبَرِّرُه أن بعض المميزات الجثمانية والنفسانية أظهر فى مرحلة منها فى مرحلة أخرى .. وأن الكائن الحىّ فى طفولته كالزهرة المقفلة كلما ترعرعت تفتحت عن سرٍّ جديد

وبعد فهذه خلاصة ما أسلفنا .

* * *

المشاكل الاجتماعية التى يواجهها الطفل فى المدة بين الثانية عشرة والعشرين من العمر ثلاث .

١ — أولاها الخروج من الوسط الأسرىّ إلى المحيط الاجتماعى .

٢ — ثانيتها اتخاذ فلسفة فى الحياة ، وتتناول :

ا — البحث عن النفس .

ب — البحث فى علاقة الفرد بالمجموع .

حـ — البحث فى ألغاز المبدأ والمعاد .

ء — الشكوك الدينية .

هـ — الولع بالمناظرات والجدل فى الأمور المعنوية .

٣ — ثالثتها مشكلة العلاقات الجنسية وتشمل :

ا — مظاهر الصداقة والمحبة .
ب - معضلة غيرية الجنس ومثليّته .
حـ — الاختلاط المشروع بين الجنسين.
ء — بعض ظواهر الشذوذ فى الأولاد والبنات .

٭٭٭

وأما تربيتنا فى دور البلوغ فيجب أن ترمى إلى انتاج شباب كفء تتجلى كفاءته فى :

١ — الاستقلال الاقتصادى بأن يربى الولد على أن يقوم بشئون نفسه و نفقات عيشه ، وتربى البنت على أن تقوم بدورها فى بناء الأسرة .

٢ — الحرية الذهنية وذلك بأن يكوّن البالغ آراءه الخاصة ، ويشق لنفسه طريقاً فى الحياة ، وألا يعتمد فى مهام أموره على آراء الآخرين ، وألا يكون تحت رحمة لومهم أو استحسانهم .

٣ — النضج الوجدانى وذلك بأن ينشأ الطفل على الاحتمال وعدم الشكوى وعلى الاستجابة لكل مؤثر بما يناسبه ، والقدرة على تصريف وجداناته حسب إرادته .

وأما الخطى التى نحن حريون أن نترسمها فهى :

(١) نظر المنزل والمدرسة إلى الطفل لا على أنه مخلوق يحكم بل على أنه فرد مستقل ينتمى إلى نفسه ووطنه والمستقبل الذى ينتظره ، وتشجيع الطفل على القيام بالمسئوليات وعلى الرحلات والأسفار وعلى العمل الحر وكسب العيش فى أوقات فراغه من الدراسة .

(٢) تنبه المدرسة إلى أن وظيفتها ليست التعليم وإنما هى تربية الشخصية فى نواحيها الجسمية والذهنية والعاطفية والخلقية ، أو بعبارة أجمع إعداد الطفل للحياة .

(٣) الإكثار من المكتبات العامة وتزويد الأطفال بالكتب والروايات التى تبعث فيهم الشعور بالنبل والتطلع إلى المجد ـ وإخراج أشرطة سينمائية تعرض

على الأطفال حياة أبطال الاسلام وزعماء التاريخ المصرى .

(٤) دراسة (سيكولوجى) الجنس ومساعدة الأطفال على إنماء شعور الجنسية الغيرية والتدرج فى تزويدهم بالمعلومات الجنسية حسب سنهم وإدراكهم ، والترفق فى معالجة شذوذهم بأحدث الطرق (السيكولوجية) ، والإكثار من عدد الإخصائيين النفسانيين والانتفاع بخبرتهم فى دراسة الظواهر الاجتماعية وفى مساعدة البالغين على مواجهة صعاب الحياة .

(٥) تنظيم المحاضرات العامة فى الفلسفة والاجتماع وأصول الدين ، واستخدام المذياع فى نشر الثقافة الاجتماعية والتربية الوطنية ، وإحياء التقاليد الدينية فى المدارس والكليات ، وإنشاء عصبة للمتكلمين باللغة العربية الفصحى ، وبناء التعليم فى جميع مراحله على أساس ثقافة وطنية واحدة توحد فى الأمة طرق التفكير وأسلوب الحياة وتوجه جهود الشعب إلى أشرف الغايات؟

محمد خلف الله

ضيعة دار تينجتون ومدرسة التربية التجريبية بها (١)

بقلم عبد العزيز أمين

عضو بعثة دار العلوم بانجلترا

٢

وربما كان أهم ما استدعى عجبي خلال الأسبوع الأول في هذه المدرسة ما يسمونه « الحرية المطلقة » ، فلقد زرت فصلا به اثنا عشر تلميذا (بنين وبنات) ولاحظت أن بعضهم كان مكبا على إتمام صورة ملونة لمنظر طبيعي ، وآخرين ينسجون على النول ، والمدرسة تقرأ قصة تاريخية للبقية التي التفت حولها التفاف الأطفال حول أمهم . وقد يكون من المناسب هنا أن أشير إلى أنني كنت ألاحظ بعض التلاميذ يتسللون إلى حجراتهم (حجرات نومهم) من حين لآخر لاستعمال الفونوغراف ، وإدارة المدرسة تعلم هذا ولا تراه خروجا على النظام .

(٥) قد يكون من السهل إدراك تلك الحقيقة وهي أن المدرس مكلف بترك الموضوع الذي يتناول شرحه إلى موضوع آخر يقترحه التلاميذ إذا علمنا أن بالمدرسة مدرسا لكل خمسة تلاميذ ، وأنه من الممكن تطبيق هذه القاعدة بسهولة . وقد سألت أحد المدرسين عن موقفه إذا طلب بعض التلاميذ تغيير موضوع المناقشة إلى موضوع آخر ورفض الباقون ، فذكر لي أنه في مثل تلك الحال يتبع رأي الأغلبية ويترك للأقلية الخيار في عمل ما يشاءون أو ترك مكان الدراسة نهائيا إلى أي عمل آخر يريدون . وما لاحظته على العموم هو أن التلاميذ يملون بسرعة كل ما كان خاليا من التشويق والنشاط الجسمي ، فقد حدث أن اقترحت إحدى المدرسات ذات مرة إعطاء قطعة إملاء وابتدأت تملي القطعة على عشرة

(١) راجع المقال الأول في العدد الأول من السنة الثانية من صحيفة دار العلوم ص ٢١٦ — ٢٢٥ .

تلاميذ ، ولكن ما مضت بضع دقائق حتى قال أحد التلاميذ : هذا يكفى . لم تشا المدرسة أن تقبل هذا الاقتراح واستمرت فى إملاء القطعة ولكنها طلبت من ذلك التلميذ أن يعمل أى شىء آخر إذا لم يرد كتابة القطعة . وقد لاحظت هذه الروح تسرى من تلميذ لآخر حتى انتهت المدرسة باملاء القطعة على ثلاثة تلاميذ فقط .

وبالرغم من بعض المزايا التى تنتجها حرية اختيار التلاميذ لموضوع الدرس فإنى لا أعاضد أنصار هذه الفكرة ، وأرى أنها قد تستغل ـ وهو الغالب ـ فى إضاعة الوقت والعبث ، وقد لا يمكن اتباعها فى الفصول كبيرة العدد . على أنه من المستحيل أن تترك للتلميذ حرية اختيار موضوع الدرس ما دام هناك منهج دراسى معين يجب إكماله .

(٦) قادتنى الضابطة إلى بعض حجرات نوم التلاميذ ، ثم أخذت تشرح لى أهمية الاعتماد على النفس منذ الصغر ، وضربت لى مثلا بتلامذة المدرسة حيث ينظفون حجراتهم وفراشهم بأنفسهم ، وبينما هى كذلك فى حديثها إذ أبصرت بعض أعقاب السجائر على مكتب إحدى التلميذات ، فقلت : وما هذا ؟ أهو اعتماد على النفس أيضا ؟ فابتسمت ثم قالت : هذا أثر من آثار الحرية التى نمنحها تلاميذنا ، ولا نرى ضيراً فى هذا إذ أن التدخين شىء ثانوى ككثير من الأشياء الثانوية المباحة ، وما دام التلميذ يميل إلى التدخين ـ كما يميل إلى الأكل أو الشرب أو الذهاب إلى السينما ـ فلندعه وخير لنا وللتلميذ أن يشرب الدخان علنا من أن يعمل ذلك خفية . ولا أريد أن أقول : إن كل التلاميذ يشربون الدخان وإنما ليس هناك ما يحول بينهم وبين ذلك إن أرادوا . ولو بحثنا لوجدنا أن أغلب أولئك الذين يشربون الدخان إنما بدءوه خفية ورغم إرادة والديهم أو أولياء أمورهم ، ولم تفلح صرامة آبائهم وشدتهم فى أن تحول بينهم وبين شربه . وفى ذلك من الجبن الخلق ما يجد المربون مندوحة عنه .

(٧) إن تكوين العادة الطيبة منذ الصغر أمر ضرورى قرره علماء النفس والمربون ، وشعور الطفل بضرورة اعتماده على نفسه منذ صغره ، وتحمله مسئولية

القيام بما يحتاج إليه متى استطاع لهما أثرهما الصالح حين تصبح الحياة جهاداً ومغالبة. ولهذا أعجبنى النظام الذى تتبعه مدرسة دار تينجتون مع تلامذتها من تكوين عادة الاعتماد على النفس، وتحمل المسئولية منذ الصغر. يتضح هذا فى تكليف التلاميذ بتنظيف حجرات نومهم، ومسح أحذيتهم، واعداد مائدة الغذاء، وحمل الأخشاب من الغابة إلى حجرة الأعمال اليدوية.

وليس غريبا أن يعلم القارئ أن تلامذة هذه المدرسة قد حفروا بأنفسهم بحيرة كبيرة للسباحة داخل بنيان المدرسة، واشتركوا فى بنائها. والكبار منهم يشتغلون كالعمال فى قطع الأخشاب، وفلاحة الأرض برغبة ونشاط عظيمين. ولا يخفى أثر تلك الخبرة الشخصية والممارسة العملية فى تكوين المعارف العامة، والوقوف على كثير من الحقائق والمعلومات التى لا يكفى فى الحصول عليها قراءة كتاب أو سماع محاضرة.

والمدرس الخبير يعلم مقدار رغبة الطفل فى مباشرة الأعمال اليدوية. وفى استغلال نشاطه الجسمانى فى أى عمل يستدعى الحركة. فاذا لم يستغل ذلك النشاط فيما هو مفيد، وتحت اشراف المدرس كان لابد ان يجد منفذاً لاستنفاده فى ناحية أخرى محوطة بالضرر. ومعرضة للأخطاء.

ويحسن أن أشير هنا إلى عدم إسراف التلاميذ فى الألعاب الرياضية ككرة القدم «والهوكى» أو «الكركت» كما هى العادة فى المدارس الانجليزية، إذ أن إدارة المدرسة ترى أن نشاط التلاميذ الجسمانى مستغل إلى أقصى ما يمكن فى الأعمال اليدوية، والفلاحة وغيرهما. «ولهذا لا ترى داعياً لمجاراة المدارس الأخرى فى الإغرام بالألعاب الرياضية (Atlletics) إلى حد العبادة، وإنما نعتقد فى الألعاب الرياضية كوسيلة لجلب السرور، وحفظ توازن الجسم» هذا هو رأى مديرى المدرسة فى تقريرهم الأخير.

(٨) إن فكرة تنشئة الطفل فى بيئة «ديمقراطية» خالية من مظاهر الحياة الكاذبة، والتصنع الذى لا حاجة إليه قد حدت بمديرى مدرسة دار تينجتون إلى

إلغاء كل مايسمى « لقباً » فهم ينادون بعضهم بعضاً بأسمائهم العادية فقط . ولا يحسب القارىء أن معنى هذا أو نتيجته هو عدم الاحترام ، فما شاهدته من عطف الكبير على الصغير ، واحترام الصغير للكبير اقنعنى بصلاحية تلك النظرية . كنت جالساً مع أحد المدرسين أثناء بعض الفسح (الواقع أنها لم تكن فسحة وإنما هى فترة راحة بسيطة) وإذا بتلميذ يحمل زورقا خشبياً صغيراً فى إحدى يديه ، وكتاباً فى اليد الأخرى قد دخل علينا مناديا : كلاراك (اسم المدرس) أتسمح بإرشادى إلى كيفية إتمام ذلك الزورق ؟ أخذ المدرس الكتاب من يد الطفل ثم شرح له ما يجب عمله ، وحينئذ التفت إليه التلميذ قائلا : أشكرك ، وانصرف . ذلك مثل من أمثلة كثيرة يضيق المقام عن شرحها هنا .

إن المدرسة تتحاشى جهد الطاقة أن تشعر التلميذ بأى سلطة صادرة من المدرس ، اللهم إلا ذلك الإشراف الطبيعى : إشراف الكبير القوى على الصغير الضعيف ، ذلك الاشراف المصحوب بالعطف والحلم والحب . ولما كان نظام المدرسة مؤسساً على نظام الأسرة - والمربون يعتبرون إخوة كبارا للتلاميذ - لم تكن هناك حاجة لاستعمال الألقاب بين أفراد الأسرة الواحدة .

(٩) يشير تقرير المدرسة إلى « أنها تهمل نهائيا العادة المتبعة فى المدارس وهى إعطاء التلاميذ درجات على أعمالهم المدرسية ، وإيجاد روح المنافسة بين التلاميذ بحجة أنهما ضروريان لاستبقاء النظام ورفع المستوى العلمى بالمدرسة » فالمنافسة فى المدرسة (دارتينجتون) لايلجأ إليها مطلقاً . والسبب فى هذا :

أولا - أن التجربة لم تثبت قطعياً ، أن المنافسة ذات أثر صالح ، فبينما تستحث بعض التلاميذ على العمل إذ تثبط همة الباقين الذين يحتاجون فى الحقيقة إلى تشجيع .

وثانياً - أن فى اعتماد المدرس على عامل خارجى لا صلة بينه وبين المادة التى تدرس دليل على فشله فى جعل المادة مشوقة بطبيعتها ، وانها لم تعد بعد موضع رغبة التلميذ ، ومبعث نشاطه .

وثالثاً ـ أن فى اهتمام المدرس بايجاد روح المنافسة بين التلاميذ فى موضوع من الموضوعات قد يؤدى إلى الاسراف فى تلك الناحية و إهمال ناحية أخرى أهم وأنفع .

ومع أننا نعتقد بصدق النظرية القائلة : إن حب المنافسة طبيعى فى التلاميذ ، لانرى ضرورة لجعل المنافسة أداة فى يد المدرسين يستغلونها دائماً فى غير موضعها الطبيعى ، ويعيرونها أهمية أكثر مما يجب . وقد يتساءل القارىء : وما هى إذن طريقتهم فى الامتحانات ؟ والجواب على هذا من التقرير هو أن « المدرسة لاتعد لأى امتحان . ورائدها فى الدراسة هو تزويد الطفل بكل ما يرغب فى معرفته ، وتمهيد كل الوسائل الممكنة لتثقيفه و إرشاده ، وإنماء غريزة حب الاستطلاع ، وتشجيع نشاطه الذاتى ، وإعطاؤه الفرصة الكافية لتنمية مواهبه واستعداده فى أى ناحية من نواحى الحياة . وعلى ذلك لا داعى لتعقيده بأى منهج دراسى معين . ومع ذلك فبعض التلامذة الكبار الذين يرغبون فى الالتحاق باحدى الجامعات يجدون الفرصة الصالحة للدراسة المنظمة على أيدى مدرسين قادرين . وفى اعتقادنا أن بعض التلاميذ عندهم الاستعداد للدراسة الاكاديمية ، وآخرين لم يوهبوا ذلك الاستعداد ، ولهذا نجد من العبث محاولة إعدادهم لأى امتحان عام ، ونرى من الأوفق إعدادهم لما خلقوا له » والتعاون فى المدرسة غاية ووسيلة فى آن واحد ، فهو ضرورى فى المدرسة ـ كغاية ـ لأن المدرسة صورة مصغرة من الحياة العامة ، والتعاون فى الحياة العامة ضرورة لا مندوحة عنها . وهو أيضاً وسيلة لتنمية روح المسئولية فى الطفل ، والشعور بوجوده ككائن منتج مفيد يعتمد عليه فى ترقية مجتمعه ، والقيام بالواجب المشترك نحو الجماعة . وعادة التعاون تتضح وتنمو فى كل ما يقوم به الأطفال من قطع الأخشاب ، أو إعداد مائدة الطعام ، أو مساعدة كبيرهم لصغيرهم ، وقويهم لضعيفهم .

(١٠) لما كانت الفكرة فى تأسيس تلك المدرسة هى اجراء تجارب مختلفة فى التربية كان من الضرورى إذاً أن تترك للتلاميذ الحرية الكافية لعمل مايشاءون ولادارة أنفسهم بأنفسهم Self - government ولهذا تركت المدرسة للتلاميذ حق اختيار النظام الملائم لرغباتهم وميولهم من غير تكلف أو تصنع . فهم

يشتركون فى تعيين أيام الإجازات السنوية ، وتحديد وقت افتتاح المدرسة فى الصباح ووقت الغذاء أو الذهاب إلى النوم إلى غير ذلك من النظم المدرسية .

وترى المدرسة أيضاً أن هذه الحرية فى وضع أو الغاء أى قانون مدرسى وفقاً لرأى الأغلبية تكون فى الطفل روح الديمقراطية ، وتحمله على احترام رأى الأغلبية ، وعلى الاعتداد برأيه كعضو فى الأغلبية أو ضدها ، وتستحدث فيه الشعور بقوة الرأى ، وبضرورة التفكير المقرون بالتعقل قبل اصدار أى فكرة تتبعها نتائج تؤثر فى تكوين مجتمعه .

وأثر تلك الحرية فى وضع أو الغاء أى قانون مدرسى يتضح بجلاء فى الإدارة المدرسية ، فأولئك الذين وضعوا القانون مسئولون عن تنفيذه وتطبيقه على أنفسهم . ومن ذلك يتبين أن سلطة ناظر المدرسة والمربين ضعيفة أو معدومة ، وأن ليس هناك سلطة عليا تملى رغبتها على مرءوسيها ؛ بل هناك احترام ، ورغبة ، واعتداد بالنفس .

وتعتقد المدرسة أن منح تلك الحرية للطفل - نظريتهم هى أن الحرية حق طبيعى للطفل - يكون فيه فضائل لا تكونها الشدة والإدارة الصارمة . ويعنون بتلك الفضائل : الشجاعة ، وحب الحقيقة ، والشفقة ، والاقدام . يقول ناظر المدرسة فى كتاب أصدره عن التربية بعنوان « المدرسة » :

« كلنا يعلم أن الطفل فى المدرسة مجبر على أن يظهر الأدب ويلتزم النظام فى بعض الفصول الدراسة ، بينما هو يظهر عكس ذلك فى فصل آخر حينما يشعر أنه آمنٌ من العقاب . ومن هذا نستنبط أن الفضائل التى أبداها فى الحال الأولى لم تكن نتيجة حب للفضيلة ورغبة فى عملها ، وإنما كانت نتيجة الرغبة فى تحاشى العقاب » . فلو تركنا إذاً للطفل - أو الأطفال - الحرية فى اختيار النظام الذى يلائم طبيعتهم لصدرت الفضيلة عنهم بريئة طاهرة لا يصحبها تصنع أو نفاق .

(١١) لم أشعر بذلك الاحترام الشخصى بين تلاميذ أى مدرسة زرتها فى انجلترا أو قمت بالدراسة فيها ، كما شعرت به بين تلامذة مدرسة دارتينجتون . فرغماً عن تلك الحرية المطلقة التى يتمتعون بها لا يتعرض أحدهم لآخر بانتقاد مهما كان

مخطئا . ولما كان التلاميذ مسئولين بالتضامن عن تصرفهم ونظامهم كان طبيعا أن يتخذوا وسيلة لتنبيه المخطىء إلى سوء تصرفه أو خرقه النظام . هذه الوسيلة سلبية محضة ، فالتلميذ الذى لا يحضر إلى حجرة الطعام فى الميعاد الذى حددوه يؤكل غذاؤه ، والتلميذ الذى يسىء معاملة زملائه يقاطع . وليس لتلميذ أى حق فى التعرض لآخر بانتقاد شخصى ، وإنما يترك هذا لروح الاعراض والنفور التى تبديها الأغلبية نحو المخطىء .

(١٢) وأخيرا ما موقف ناظر المدرسة ومديرها إزاء تلميذ عرف بالكسل والإهمال أو خرق النظام أو تحدى القوانين التى اشترك فى وضعها ؟ يقول ناظر المدرسة فى كتابه (المدرسة) : « أستطيع ان أحكم من تجاربى فى التعليم أن الوسيلة المنتجة فى حالة صدور أى سوء تصرف أو إهمال من التلميذ أن يجتمع طائفة من التلاميذ وبينهم ذلك التلميذ « المتهم » مع طائفة من المدرسين وأن يبحثوا المسألة باشتراك وبصراحة وحرية لكل متكلم . ومهمة المدرس هنا هى توضيح الفكرة ، والتعبير عن الرأى العام ضد هذا التصرف ، وتسهيل مهمة المناقشة وتنظيمها بين التلاميذ وإذا قصر المدرس واجبه على هذا فقط فإن التلاميذ يستطيعون أن يعطوا حكما معقولا ، وأن يقرروا رأيا سديداً ، وأن يجدوا حلا مرضيا لقضيتهم . وليس من الممكن اتباع هذا النظام الذى أشير به إلا إذا كانت المناقشة حرة مصحوبة بـ « لماذا ، وكيف ؟ » ، وكان المدرسون الذين يشتركون فى المناقشة معتقدين بسلامة تفكير الأطفال ، وقدرتهم على الوصول إلى نتيجة منطقية ، إن الطريقة المتبعة فى المدارس لاصلاح الطفل وتقويمه هى العقاب أو التهديد بالعقاب ولكنى أرى أن العقاب غير مجد . وإنى لأتحدى أولئك المدرسين الذين يدينون بضرورة العقاب لتقويم التلميذ أن يجيبوا على هذا السؤال « أليس التلميذ الذى عوقب لذنب من الذنوب هو بعينه الذى يقترف الذنب مرة أخرى ؟ » وإذاً فما فائدة العقاب ؟ إذا كان للعقاب أى قيمة فى التربية والتهذيب فلتكن إرجاع الطفل إلى أحضان الفضيلة التى انحرف عنها . ولكن العقاب كوسيلة لترك الرذيلة فقط ليس بذى قيمة فى التربية . ولأعرض على القارىء حادثة شخصية فى ظنى أنها كافية لاقناعه

بعدم فائدة العقاب لاصلاح الطفل : عندى الآن تلميذ فى المدرسة ، حضر إليها بعد أن أمضى ثلاث سنوات فى مدرسة أخرى كان فيها يضرب بالعصا يوميا . ولو أن العقاب يكوّن الفضيلة لأصبح ذلك التلميذ ملاكا . ولكن النتيجة أنه أصبح يرى فى المدرسين و ناظر المدرسة أعداء ألداء له ، وأنه أصبح لا يبالى بخرق النظام ومجابهة الادارة بالخطأ . ولم ينتج العقاب فى قسوته ، ووقاحته ، وكسله ، وحبه للتخريب أى إصلاح ؛ بل بالعكس تحول التلميذ من سيئ إلى أسوأ . ولكننى عاملته بالتى هى أحسن واتبعت معه الرفق ، وصادقته ، فاعتدل وبدت عليه علامات الاستقامة ، وهو الآن فى طريق التقدم الخلق ، ولن يمضى زمن طويل حتى يصبح عماداً فى مجتمعة » .

هذا هو رأى ناظر المدرسة فى العقاب أو الزجر أو التوبيخ ، وفى اعتقاده أن الرفق ولين الجانب وحسن السياسة تقود إلى تقويم المعوج . أما إذا أعيت كل هذه الوسائل فهناك الحل الوحيد الذى يشير اليه التقرير السنوى بالعبارة الآتية :

« تحتفظ المدرسة بحقها المطلق فى فصل أى تلميذ ترى أن بقاءه بين التلاميذ غير مرغوب فيه ، وحكم ناظر المدرسة فى هذه الحال نهائي لا يقبل استئنافا . »

لقد أطلت القصص ، ولعلى مع هذا قد وفقت لإعطاء القارىء صورة قريبة للحقيقة من مدرسة دار تينجتون ونظامها .

ولعله من المناسب قبل أن أتمم المقال أن أشير إلى طرق التدريس المتبعة :

المدرسون لا يعتقدون بصلاحية طريقة خاصة فى التدريس فهم يرون محاسن ومثالب فى كل طريقة ولذا يختارون ما هو أوفق لتلاميذهم . وأنسب لظروفهم ، وأصلح لمجتمعهم . وهم يتبعون ـ مع صغار الأطفال ـ الأسس العامة لطريقة فروبل ومدام مونتسورى ، وكذلك طريقة دلتون ، ولكنه بكثير من التهذيب والتنقيح .

ولأختم اذا حديثى بما وعدت القارىء به حين قابلت صاحب الفندق ؛ قال لى صاحبى وهو يحاورنى لن أخشى شيئا على أبنائى الثلاثة الذين يذهبون إلى تلك المدرسة خلال عهد الدراسة ، وإنما أنظر إلى مستقبلهم بشىء من الخوف والشك

وذلك لسببين : الأول هو أن تلك الحرية المطلقة التي يتمتعون بها الآن سيفاجئون بفقدها بمجرد ترك المدرسة ، وسيرون أن الحياة العملية صورة مخالفة لتلك التي ألفوها في مدرستهم . وحينئذ يواجهون من الصعوبات ، وقيود المجتمع والقوانين المفروضة ما لم يحلموا به . وسيجدون أنفسهم غرباء في معترك الحياة العامة عاجزين عن رياضة أنفسهم على إطاعة النظم الموضوعة ، والخضوع لسلطة فوق سلطتهم ونفوذ أقوى من نفوذهم . ولن يكون لهم حق اختيار نظام ، أو تقرير مصير ، وسيكونون أشبه بملائكة بين شعب من الشياطين .

أما السبب الثاني فهو أن هـذا النوع من التربية — على ما به من سمو وكمال — صالح لأبناء الأرستقراط والأثرياء الذين يجدون من ثروة آبائهم ما يمكنهم من اختيار الحياة العملية التي تتفق مع تنشئتهم وتربيتهم الأولى . أما أبناء الفقراء — مثلي — الذين يعتمدون على كسب عيشهم بأنفسهم ولا يجدون مندوحة عن الاتصال بالجماهير ، والاندماج في المجتمع كعضو حيوي عامل ، فستكون تربيتهم الأولى مبعث يأس وقنوط حينما ينزلون مضمار الحياة الحقة .

وأرى أن اعتراضيْ صاحبي جوهريان ، وجديران بالتفكير واتخاذ الحيطة لمستقبل الأطفال ، فالتربية مهما اختلفت أغراضها يجب أن تعد طفل اليوم لأن يكون رجل المستقبل ، ولن تكون التربية كاملة إلا إذا هيأت الشخص للحياة العامة .

ويرد مديرو المدرسة على هذه الاعتراضات بأن الحياة العامة مملوءة بالعيوب والأخطاء ، والنظم العتيقه ، وواجب التربية أو غايتها تهذيب تلك النظم العتيقة وإصلاحها ومعالجة تلك العيوب والأخطاء ، وهذا غير ممكن إلا إذا أعددنا الطفل للمثل الأعلى من الحياة ، وربيناه التربية السامية للحياة التي يجب أن تكون لا للحياة كما هي الآن .

عبد العزيز أمين

پومپي العظيم « Pompey The Great »

تأليف جنْ مِسفيلدْ « John Masefield »

ترجمة محمد على مصطفى

المفتش بوزارة المعارف

تمهيد : —

جنْ مِسفيلد : روائى انجليزى معاصر ، كاتب وشاعر ، ولد سنة ١٨٧٥ فى ليفربول ، وقضى فجر حياته متنقلا فى أقطار مختلفة ، ومتقلباً فى أعمال متعددة وقد أقام مرة فى أمريكا ، وخدم فى الأسطول ؛ ثم توفر على الأدب فأخرج عدة دواوين شعرية وقصص وروايات مسرحية . وأشهر مسرحياته :

(١) فاجعة نان « The Tragedy of Nan »

(٢) پومپي العظيم « Pompey the Great »

وفيما يلى ترجمة « پومپي العظيم »

☆☆☆

الفصل الأول

المنظر — حجرة فى بيت پومپي بالقرب من رومه ، علقت على حيطانها ونوافذها ستائر ضاربة إلى السواد ، ولها شرفة مفتوحة يظهر منها نور المصابيح البعيدة . وبينما أنتستيا منفرة تضىء المصابيح إذ تسمع الأبواق ووقع أقدام الجند.

جرس . خمر . كئوس . أوراق فى سفط

أنتستيا (تنظر من النافذة) جيوش يتبع بعضها بعضاً . انفخوا فى الأبواق ، وارفعوا الرايات واتبعوا العلم . إلى الأمام إلى الأمام فرومة ـ مهبط

الحضارة ـ تناجيكم ودماء آبائكم المسفوكة تناديكم : ردوا حياض الموت الزؤام حتى تفيض أرواحكم بين أطراف الأسنة ونصال السهام وتبلى أجسامكم وتصير رفاتاً سحيقاً تذروه الريح فى كل مكان ، وعند ذلك تذهب أعلامكم وتصمت أبواقكم . هذا مصيركم أيها الجند . ليت شعرى ماذا تضمره الأيام ويخبئه لنا المستقبل ! أين فيلب ؟ لعله يحضر !

صوت (فى شرفة المنزل) بومبي !

أنتستيا ما هذا ؟

الصوت بومبي !

أنتستيا (مذعورة) من ذا الذى ينادى بومبي ؟

الصوت لاتصيحى . لا تفزعى . بومبي !

أنتستيا ما هذا ؟ هل لك من حاجة مع بومبي ؟

الصوت يجب على فيلب أن يخبره حالا .

أنتستيا ماذا يجب عليه أن يخبره ؟

الصوت أن يضرب برجله .

أنتستيا أن يضرب برجله؟

الصوت (ضاحكا) ها . ها . ها . بومبي اضرب برجلك يابومبي !

أنتستيا (تذهب إلى الباب خائفة) فيلب ! فيلب !

(يدخل فيلب)

(يضع الصينية على الخوان) ما الخبر ؟ ماذا حصل ؟

أنتستيا لقد كان هناك صوت ــ صوت ــ شىء عند النافذة يهزأ ببومبي ويسخر به .

فيلب « يفتح النافذة » من هنا ؟ ليس هنا من أحد الآن . هل كان رجلا ؟

أنتستيا لم أر أحدا ولكنى سمعت صوت رجل يتكلم ويضحك .

فيلب قد ذهب يا حبيبتى فلا تفزعى ولا تخافى . لقد ذهب .

أنتستيا فيلب ! يقولون إن أشباح الموتى تصيح تحت جنح الظلام عند حدوث الملمات ونزول الشدائد وأن أرواح القتلى من الرجال تلمس الدماء حينما تكون رومة فى خطر .

فيلب لا تفوهى بمثل هذا الكلام فان الأشباح تحيا به . ماذا قالت ؟

الصوت بومپي ! اضرب برجلك . اضرب برجلك يابومپي !

أنتستيا آه . آه

فيلب (راقيا ببخور الخ) خمر بدل من الدم (يسكب خمرا) خبز بدل من اللحم (يكسر الخبز) ملح بدل من الحياة (يرمى بعض الملح) القبة الزرقاء فوق رومة تحميها من الخطر . شبكة ذهبية فوق هذا المكان تحفظه ومن فيه من السكان . اذهبوا إلى الصحراء — إلى الليلة الليلاء — إلى جنح الليل البهيم — إلى أعماق البحار — إلى الدرك الأسفل من النار . اللهم إنى أضرع اليك أن تحفظ مولاى فلقد صرت أخشى حدوث المصائب (يسكب ماء) اشربوا هذا . اشربوا هذا . سأحضر كوبا آخر .

انتستيا (فزعة) لا تحضره من هذه المائدة .

فيلب ها هو ذا . ها هو ذا . اللهم احفظنا بعنايتك . انتستيا ! ليس لهذه الأشباح من قوة .

انتستيا إنى أرى طلائع الجند تحمل فى القلوب حنقا وفوق الأسنة علقا ولقد أعلنت الأبواق الحرب — حربا أهلية — حربا تصافح فيها المنايا النفوس . بومپي وقيصر كعقابين التقيا فتقاتلا .

فيلب لا . لا . لاتقولى ذلك فإنه لاينبغى التشاؤم خشية الوقوع فيما تحذرين .

انتستيا ما الذى أراد الصوت وما ذا قصد ؟

فيلب (مفكرا) لست أعرف بالضبط ما قال .

انتستيا « اضرب برجلك يا بومپي »

فيلب لقد قال ذلك فى « مجلس الشيوخ » أمس . جاءت التقارير أن قيصر يزحف بجيش على رومة فاستولى الفزع على القلوب وأجهد

الأعضاء فكرهم فى أحسن الطرق وأنجع الوسائل لمقاومة العدو وسألوا بومپي أعنده جيش يستطيع الدفاع عنهم والذود عن حياضهم ؟

أنتستيا هل قيصر زاحف بجنده ؟

فيلب هكذا كان يشاع .

أنتستيا وماذا قال بومبي ؟

فيلب قال إنه إذا ضرب برجله أتته الجيوش من جميع جهات ايطاليا ـ جيوش جرارة يغلب بها عدوه ويرده إلى بلاد الغال .

أنتستيا إذن يجب عليه أن يضرب برجله فان قيصر زاحف مع جنده .

فيلب هناك متسع عظيم من الوقت (يسمع صيحة من بعد)

أنتستيا إن أحدهما ليشمخ بأنفه حتى يضرم نيران الحرب فى العالم فيصطليها الآخر .

فيلب إن بومپي يدافع عن الحكومة .

أنتستيا (إلى تمثال قيصر) املأ الصحارى بالدماء يا قيصر . تماد فى طغيانك وكبرك حتى يقهرك ملوك العالم وتنال منك سيوفهم وتصير جسدا هامدا ثم يذر عليك القطران ليزيد اشتعال النار فيك وعند ما تتفرق أصلابك وتبلى عظامك وتصير رفاتا سحيقا توضع فى وعاء من خزف يهمل فى زوايا النسيان، إن الزهرة التى يأكلها الأرنب الوحشى ستكون أولى بالكبر منك يا قيصر فى ذلك اليوم فاخضع لله أيها الرجل المدل بقوته المغرور بنفسه .

فيلب إن قيصر يعتقد أنه من عظماء الرجال لأنه أخضع بلاد الغال . ولكن من هم سكانها ؟ هم عرايا كفرة يحملون سيوفا من نحاس كما يفعل المتوحشون . ومع هذا لم ينل هذه المنزلة إلا بمساعدة مولاى له .

انتستيا ذلك هو السبب فى أنه يشن عليه الغارة الآن .

فيلب ساعده بومبي فى إخضاع بلاد الغال فرفع من شأنه وجعل له منزلة بين الناس وقد كان خامل الذكر (سكوت) وهو يود الآن أن يغلب مولاى ويحكم رومه بدلا منه

أنتستيا أتظن أن قيصر يستطيع ذلك يافيلب ؟

فيلب لاتقولى مثل هذا الكلام لأن إلهاً يقود مولاى أينما ذهب ويمده بروح من عنده ويضىء له السبيل ، وهذا هو السر فى رفعة شأنه وعلو قدره وباهر نصره . آه يا سيدى المحبوب ! إن الجنون ليصيبنى حينما أفكر فى ذلك فمن كان يظن أن قيصر يعلن على بومبي حربا داخلية وهو زوج جديد ؟

أنتستيا إن الحرب الأهلية هى التى جعلت بومبي ذائع الصيت بعيد الشهرة .

فيلب كان مع « سلا » ضد « مَارْيَسْ » فى تلك الحروب الداخلية ومن ذلك العهد كتب له النصر أين سار كأن الملائكة المقربين من جنده . يرى الإنسان أنواع الخطر محدقة من جميع الجهات وما هى إلا أن يركب بومبي فى طليعة جيشه حتى تذهب أدراج الرياح كأن لم تغن بالأمس (سكوت) .

لقد رأيت سكان رومة فوق سطوح المنازل وفى الشرفات والطرق وقد لبسوا أحسن ثيابهم واشرأبت أعناقهم لترى مولاى بومبي . نفخت الأبواق من كل مكان حتى صمت الآذان وأقيمت معالم النصر فى كل ناحية ورفرفت الأعلام الرومانية فى عليل من النسيم تحت سماء صافية الأديم ومشى فى الاحتفال بسيدى أربعون ملكا حفاة الأقدام فى شوارع رومة . وأقسم لقد رأيته أعظم رجل فى العالم .

أنتستيا أعظم رجل فى العالم ! كل ذلك لأنه كان مع سلا فى الحروب الداخلية — هبه خامل الذكر — هبه هيكلا كبيرا من طين مقاما على العصى — تمثالا من الصلصال مذهبا تأكله الفيران وتلعب به الرياح قد أخذت حرارة الشمس مأخذها منه فإن أرواح الشهداء من الرجال الذين

قتلهم فى تلك الحرب الطاحنة تتزاحم تحت هذا التمثال لإسقاطه وتحطيمه

فيلب أنتستيا !

أنتستيا يقولون إن الوقت خير كفيل باظهار الحقائق ، لقد ذكرت « سلا » يافيلب فتذكرت أنى كنت بنية صغيرة حينما اشتعلت نار الفتنة بينه وبين ماريس وكان والدى ضابطا تحت علم ماريس - إنى لم أخبرك ذلك من قبل ، هل تعرف سوى أنى سأتزوجك ! كنت واقفة فى الطريق أمام منزلنا وإذا ببعض الرجال قد عبروا الطريق وتلطفوا إلى وسألونى أكان والدى فى المنزل فقلت لهم نعم فدخلوا وأخرجوه منه . أخرجوه من المنزل إلى حرارة الشمس المحرقة والتفوا حوله وسيوفهم مصلتة فى أيديهم واجتمع الأطفال لرؤية هذا المشهد فأسرعت نحو والدى لأريه دميتى التى كنت ألعب بها ولكن الرجل الذى كان واقفا خلفه قال له سنجازيك على وفائك لمريس ثم استل سيفه من غمده وضرب والدى فى عنقه ثم تبعه بقية الرجال فطعنوا والدى بعد سقوطه على الارض .

وعند ذلك أقبل أحد الصبيان فسرق نعلى والدى وآخر نخطف دميتى — الزمن يظهر الحقائق يا فيلب — إن الأرواح البريئة والدماء الطاهرة التى أراقها بومبي وسلا تأتى الآن من مراقدها لتثأر لنفسها — تأتى من اسبانيا — تأتى من رومه — تأتى من آسيا . إن للأرواح قوة حتى فى الظلام حينما يأتى الأوان .

فيلب (مذعوراً) أى أوان ؟

أنتستيا أوان بومبي . لقد حان الوقت (ضجة وصياح ونفخ أبواق) هكذا يكون المبدأ لقد ملأ الكبر نفوسهم . تلك سنة طبيعية فى كل مخلوق يفر من ظلمات الأرحام إلى سجن القبور .

فيلب (عند النافذة) لقد اضطرمت النيران فى بعض أحياء رومة ، وتطاير شررها ، وامتد لهيبها (سكوت) يجب علينا أن نؤخر زواجنا ياأنتستيا .

أنتستيا تلك سنة الحياة، لا يزال الإنسان يؤجل الأمر من وقت إلى آخر، حتى يفنى الشباب ، وتنفد القوة ، ويذهب الجمال، وتنقضى لذة العيش . ويتصرم العمر .

فيلب يجب على أن أصحب مولاى .

أنتستيا أناشدك الله يافيلب إذا انقضى الشباب، وتصرم العمر، وذهبت نضارة الحياة، أن تذكر فتاة ضحت بجمالها فى سبيلك، وجعلت حياتها وقفا عليك، ومحبتها خالصة لك، وأن تذكر ذراعين طالما تشوقتا لمعانقتك، وشفتين حمراوين كان جل أملهما أن يتمتعا بقبلة منك، وسيذهب بهذا كله إخلاصك وحسن وفائك لسيدك وسيدتك الزوجة الفتية التى لم تمتع بزوجها إلا قليلا — افتح الباب يافيلب فإنها حاضرة الآن مع جاريتها تطربها بنغماتها.

فيلب (يفتح الباب) سيدتى .

(تدخل كورنيليا وجوليا وتقدم الكراسى إليهما)

كورنيليا فيلب — أخبر ضابط الحرس أن يبعث نفراً من الجند لحراسة پومپى عند خروجه من « السناتو »

(يخرج فيلب وأنتستيا)

جوليا هل عزم قيصر على محاربة زوجك ؟ وإذا لم يكن له رغبة فى الحرب فما الذى يريد ؟

كورنيليا يود قيصر أن يحكم رومة حكما مطلقاً ، ولكنه يحتال فى أن ينتخب قنصلا أولا — وهو الآن فى بلاد الغال يفكر فى أن يخيف الرومان حتى ينتخبوه (تذهب إلى النافذة) لعل والدى يحضر الآن فقد ملأت الوساوس قلبى — ما الذى صمم عليه « السناتو » يا ترى ؟ (تمشى فى الحجرة من جهة إلى جهة)

جوليا سيقرر السناتو أن قيصر يجب عليه أن يسرح جيشه — ماذا يريد والدك ؟

كورنيليا يرى أن زوجي يجب عليه أن يتغلب على قيصر وأن يقبض عليه بيد من حديد ادخل

(يفتح الباب بعنف ويدخل والدها ميتلس سبيو)

أبى

ميتلس أين زوجك ؟ ـ أهو هنا ؟ ـ هل كان هنا ؟

كورنيليا كلا ياوالدى ـ ما الخبر ؟

ميتلس ألا يزال فى السناتو ؟ هل وصلته مذكرتى ؟ ألم يبعث إليك برسالة ؟

كورنيليا لا . ماذا حصل ؟

ميتلس سأتكلم معك يا كورنيليا .

جوليا تستعد (للخروج) أستودعكما الله .

ميتلس انتظرى ، إنك ستنامين الليلة هنا ، فالطرق غيرمأمونة ، وهناك اضطراب عام فى رومة فاجلسى . كورنيليا ما الذى يريد زوجك ؟

كورنيليا لا أعرف ياوالدى لأنه لا يبوح لى بشىء مما فى نفسه ، ولا يلقى إلى بسر من أسراره .

ميتلس وصلتنى بعض رسائل ، وعلمت أن قيصر زاحف على إيطاليا بجميع جيشه .

كورنيليا ليحاربنا ، ليغير على رومة ؟

ميتلس هذا ما كنت أخافه دائماً ، وأحيانا كنت أعلل النفس بأن قيصر لا تسمح له نفسه بأن يأتى عملا شائنا كهذا .

كورنيليا هل يعرف زوجى ذلك ؟

ميتلس نعم . لقد أرسلت اليه فى السناتو وضربت له موعدا ليقابلنى هنا ولكنه لا يدرك الخطر المحدق بنا حتى الآن ، أليس معنى هذا الاضطراب أن حكم رومة بأجمعها ينتقل إلى جماعة من الخونة الماكرين ؟ إن قيصر الخائن الأثيم يزحف على رومة لينتقم من طبقات الأشراف والحكام

ليهزأ بدين آبائنا وأجدادنا ، ليخرب معابدنا ، ليدمر المآثر الرومانية التى عادت بالعظمة على رومة . لقد حدث أمر فى المعسكر .

كورنيليا وما هو ياوالدى؟

ميتلس الجيوش الرومانية التى أكلت الملح والخبز وأخلصت لرومة وأخذت على نفسها عهود الطاعة والولاء ، قد امتنعت عن أداء الواجب ؛ لقد استهوتهم نقود ذلك الرجل الحديث النعمة قيصر .

كورنيليا كيف تستطيع الجند الرومانية أن يروا هذا الأثيم وجيوشه يخربون رومة وينهبونها ويسلبون ما وصلت اليه أيديهم ؟ يالها من فظاعه !

ميتلس يجب أن أرى زوجك فانه يلعب بنا .

كورنيليا هو حاضر الآن ؛ ألا ترى الجند ؟

صوت (من الخارج) استعداد ! سلام !

ميتلس شكراً لله .

الصوت استعداد ! تحيه ! (أصوات تهتف لبومبي وأبواق تنفخ) إلى اليمين ، سريعاً سيراً !

(يدخل فيلب فيفتح الباب ويدخل بومبي ومعه بعض رسائل يحييه ميتلس ويخرج فيلب ويغلق الباب)

بومبي كيف أنت ياجوليا ؟ كيف حالك يا كورنيليا ؟ (يذهب اليها فيواجهها وينظر إلى عينيها) آه أيتها المحبوبة (يصرف نظره عنها)

ميتلس هل وصلتك رسالتى ؟

بومبي نعم (يرمى نفسه على الكرسى)

ميتلس ما الذى صممت على عمله يا رجل ؟ إن قيصر زاحف على رومه مع أربعين ألفا من الجند .

كورنيليا ولكن فى استطاعتك أن تمنعه وأن تقفه عند حده وهذا أول واجب عليك .

ميتلس هل يعلم « السناتو » ذلك ؟

بومپي نعم فلقد كان فى المجلس سبعمائة من أحسن الرجال فى روما ، جلسوا إلى غروب الشمس منتظرين ، ووقفت أمامهم وأخبرتهم أن رجلا من أعز الناس إلىّ يزحف بجيش جرار على رومة ليخرب منازلها ، ويهدم معاقلها ، ويدمر ماشاده الرومان فى القرون الماضية ، ويطفىء نور الفضيلة والعدالة والحرية ذلك النور الذى انتشرت أشعته فى العالم أجمع فبددت حجب الظلام .

ميتلس استمر استمر !

كورنيليا وماذا عزموا على فعله ؟

بومپي لقد لعبت أموال قيصر بعقول معظمهم وامتدت أيديهم إلى الرشوة .

ميتلس كيف وقع الخبر فى نفوسهم ؟

بومپي قابلوه بالصمت ، ولكن همسا خفيفا انتشر فى أركان المجلس بعد قليل ، وتحرك الأعضاء فى أمكنتهم ، واستولى الرعب على قلوبهم . ودوّى المكان بهم ، ووقف اتلس — الذى كثيرا ما أغدقت عليه من النعم — وهو الآن من جواسيس قيصر — يسألنى عن عدد الجند تحت قيادتى لحماية رومة .

ميتلس قد يحق لنا يا حامى رومة أن نتساءل عن عدد جيوشك .

بومپي حينما تأتى الفرقتان من بلاد الغال وينضم إليهما الجيش الاحتياطى ربما اجتمع لى نحو ثلاثين ألف رجل .

ميتلس ربما اجتمع ثلاثون ألفا ! لقد وصلت أموال قيصر إلى الجند ببلاد الغال فشقوا عصا الطاعة وانضموا إليه يحاربون تحت علمه . أما الجيش الاحتياطى فإنه مع الشعب وكلهم مع قيصر فلقد خرج الجيش الاحتياطى من خيامه فى المعسكر يصيح السلام السلام ، لقد هزأت بنا ، لقد احتلت علينا ، لقد خنت رومة .

بومپي إنهم قالوا ذلك فى « السناتو » .

ميتلس لم لم تستعد للأمر قبل وقوعه ، وقد مرت عليك اشهر كان يمكنك الاستعداد فيها ؟

بومبي لقد أخذت العدة ولكنى لم أنتظر ذلك من قيصر لأنى ظننت أن عملا جليلا ينبغى أن يذكر على مر السنين وكر الأعوام وأن رومة تفوق القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وأن الصداقة القديمة يجب أن تراعى.

ميتلس لاصبر لى على ذلك ويجلس ثم يقوم ، نحن نعلم مالم تفعل فأخبرنا ماذا فعلت .

بومبي سأخبرك ياميتلس . لقد ذكرت حينما ابتدأ النزاع بيننا ذلك الوقت الذى قضيته مع سلا . لما سرنا بالجنود إلى إفريقية . كنت فى رعيان الشباب ومقتبل العمر ، فقابلت الخطر بوجه بش ، وساعدنى الحظ ، ولا حظتنى عين العناية ، فأخضعت إفريقية ، ثم أرسل إلى سلا يأمرنى بأن أجرد الجنود من السلاح وأن أرجع . وقد زعمت أن النجاح سببه مقدرتى الشخصية فاستولى على الغرور وأخذ منى العجب كل مأخذ — ولكنى لا أعجب بنفسى الآن — فاستأت من أمر سلا واستاء الجيش معى وسألونى أن أكون ملكا عليهم فى إفريقية ولكنى أطعت القائد العام وجعلت ذلك مثالا حسنا فى الطاعة يتبعه الفاتحون من بعدى حتى لا تنشب حروب داخلية .

كورنيليا لقد زعمنا أن قيصر يتذكر هذا المثال الحسن وكنا عقدنا النية على أقامة احتفال باهر له حينما يرجع فيخرج أعضاء حزبنا والسناتو ليقابلوه ويحتفوا به كما فعل سلا مع زوجى لما أقبل مع جيشه بعد أن جرده من السلاح ولقد كان ذلك أولى بقيصر وأجدر به وأعظم من أن يصير قنصلا ولكنه لا يعبأ برومة ولا يهتم بأمرها .

بومبي لم يخطر ببالى أن قيصر ينسى عظمة رومة ويغض عنها نظره (يذهب إلى النافذة)

ميتلس أذكرك الآن بشىء قلتَه أيام كنا فى سيسليا . إنك قلت « ليس هناك من قانون مع القوة . إنا نحمل السيوف والقانون يخضع لها » ألا

تذكر هذه الكلمات ؟ أتستطيع أن ترى رومة تخرب وتمتد إليها أيدى العصاة فتهدم هذه الآثار التى ورثناها عن الآباء والأجداد وهى خير ما تركه الخلف للسلف ؟ أتستطيع أن ترى الهياكل تدمر والمعابد تهدم لأغراض قوم من السفلة الطغام همهم الأكل والسكر ؛ أترضى أن تمتد أيديهم الخائنة الأثيمة إلى نسائنا الطاهرات ؟ ماذا قال السناتو ؟

بومبى لقد أعطيت الحكم المطلق .

ميتلس انشر ذلك بين الناس ! وزع المنشورات ! وجند كل رجل قادر ! جند النساء إذ لم يرض الرجال !

بومبى كلا !

ميتلس إذا ماذا تفعل ؟

كورنيليا إن الحرب خير من انتهاك حرمة القوانين . يجب علينا أن نحترم إرادة رومة وأن لا نطرحها فى زوايا الإهمال لطمع رجل واحد إن واجب كل رومانى أن ينضم إلى الأعلام الرومانية ليدافع عن رومة ولو ذهب إلى الحرب منفردا . وأنت لا تذهب منفردا فان أرواح آبائنا وأجدادنا ستسير معك ، وإذا مت فى سبيل الدفاع عن البلاد التى أروتها الدماء الرومانية وكانت النفس ثمنا لها فان هذا خيرموت يتمناه لك كل محب .

بومبى عجبا لك يا كورنيليا إنك تجعلين الموت مر المذاق ولكنى أجد الموت حلواً إذا مت فى سبيلك .

ميتلس (بسرعة) استمرى يابنيتى ، استنهضى همته ! حثيه على العمل ! استفزى عواطفه !

بومبى (بصوت رفيع) نعم سأحارب قيصر .

ميتلس آه (بتهيج) ولكن عجل ولا تفسح له فى الأجل حتى لا يكون ما قد يناله من الفوز مدعاة لانضمام بعض الناس إلى جنده ، إن العامة لا يترددون ولا يفهمون رَجلا يقدم رِجلا ويؤخر أخرى ، أعطنى فرقة الفرسان حتى أناجزه القتال

بومبى أين « الخريطة » ؟ (يأخذ الخريطة بسرعة من على الحائط) إنى أفكر فى أثر الحرب هنا لا فى الفوز على قيصر ، يجب علينا أن نزيد فى حامية المدن ، ولا شك أن ذلك يؤخر تقدمه .

ميتلس إن قيصر سريع خفيف الحركة ، يزحف بسرعة شيطانية .

بومبى لقد أخبرتنى إن عنده أربعين ألفا من الجند أرنى رسالتك ، من بعث بها إليك ؟ (يأخذ الرسالة) هل تثق بهذا الرجل وتعتمد عليه ؟

ميتلس نعم إنه شاب ذكى الفؤاد .

بومبى شاب ! أين خدم ؟

ميتلس لقد كان أحد أركان حرب كراسس فى بارينا فى الواقعة الكبيرة .

بومبى أنا لا أثق بالأشباح .

ميتلس أشباح !

بومبى إن جيشا أبيد عن آخره جدير بأن لاينجو منه أحد (يقرأ) أربعون ألف رجل . هذا شاب ماهر أريب قرأ كثيرا من الكتب المدرسية . أربعون ألفا !

ميتلس نعم .

بومبى كلا هذا غير ممكن ، هذه سياسة لاحرب ؛ أن يسوقنا إلى الحرب سوق النعام المخزمة وجيشه يبعد عنا أميالا كثيرة ، ولكنه يعبر الحدود مع نفر من أحسن الرجالة وحملة الرماح من الغاليين ، وغرضه من ذلك أن يستولى الرعب على قلوب أهل رومة وينتشر الفزع فى أرجائها .

ميتلس (يعض أصابعه) هذا ما لم تكن لتفعله .

بومبى وهذا ما يحملنى على اعتقاد أنى مصيب فى رأيى . (يقف) خذ فريق الفرسان وناجزه الحرب ، وناوئه العداوة ، وأخر سيره ، واجعل لنا من الوقت متسعاً ، وسأحضر مع كل من أستطيع جمعه من الرجال .

ميتلس خذ حملة السيوف من المبارزين .

بومبى كلا هذه مسألة رومانية وهؤلاء العبيد المستأجرون لا يقررون مستقبل رومة ولا يختارون لها مصيراً .

ميتلس إنهم إن لم يذهبوا معنا كان مركزنا حرجا محفوفا بالمخاطر .

كورنيليا هذا هو الأسطول نخذ الرجال من السفن .

ميتلس إنهم لايستطيعون السير والزحف وهذه الحرب مسابقة .

بومبى اسمع ! سأبعث الرسل على جناح السرعة إلى الأسطول عند برنديزى ليحجزوا البحارة أن يذهبوا إلى الشمال بأسرع ما يمكن حتى يلحقوا به بسورم ويناوئوا الجناح الشمالى من جيشه . هذا ما يتعلق بالقارة أما المدينة هنا فانها المشكلة .

ميتلس لا تفكر فى أمر المدينة فإنها ستكون دائما للغالب .

بومبى إن لقيصر جيش احتلال فى المدينة ، وأرى أن أول واجب علينا أن نبدأ بحمايتها والمحافظة عليها .

ميتلس دع حزب الأعيان يكون لجنة للمحافظة على الأمن العام وسيمكنهم حينئذ إخضاع الرعاع الذين يتبعون قيصر .

كورنيليا لا . لا . ستنتشر المذابح فى جميع أحياء رومة فإن الخائف لا رحمة عنده .

ميتلس اسمعى يابنيتى . نعم يارجل .

بومبى لا . هذه هى الخطة يتبعها الرجل فى خطر ليضاعف الخطر على نفسه ، على أن ذلك يسفتز العامة ويستنهض هممهم للقيام ضدنا ، ونحن نريد أن نكسب رضا العامة .

كورنيليا اجعل « كاتو » محافظا على المدينة حتى يجند فريقا للدفاع عنها ويجمع قوة لا تنتمى إلى حزب من الأحزاب البتة .

بومبى نعم « كاتو » رجل لاينتسب لحزب ، وله قوة وسيطرة على كلا الحزبين .

ميتلس هذا الرجل لا حول له ولا قوة ، ولكنه محبوب لدى العامة .

بومبى ذلك كل ما نحتاج إليه .

ميتلس كلا . إنما نحتاج إلى القوة ـ إلى جماعة من السفاكين ليصلبوا نفرا من

العصاة ؛ لا إلى « كاتو » ليخبر الناس بأقاصيص الأولين .

بومبى (يحاول دق الجرس) سنبعث إلى « كاتو » .

ميتلس لا . لا .

بومبى نعم .

ميتلس انتظر برهة .

بومبى ثم ماذا ؟

ميتلس إنا نحتاج إلى رجل نضو حروب .

بومبى إلى رجل يثق به كل إنسان .

ميتلس « كاتو » ضعيف الإرادة لاثبات له .

بومبى يجب أن ترفرف أعلام الهدوء والسكينة على رومة حتى لا يستولى الفزع على القلوب .

ميتلس إنى لا أخدم فى الجيش إذا تركت هذا الرجل ، بعد مسيرنا ، فى رومة.

بومبى عجبا لك ! لاتنطق بمثل هذا الكلام! فما الأسباب التى تحملك على المعارضة؟ اذكرها الآن.

ميتلس كيف يعامل « كاتو » العصاة فى المعسكر ؟

بومبى آه (سكوت) لا ينبغى لنا استعمال القوة مع هؤلاء المساكين . انظر إلى المسألة كما ينظرون إليها . إنهم خيروا بين حرب داخلية والامتناع عن أداء الواجب .

ميتلس إن أول واجب على الجندى هو الطاعة .

بومبى كلا . إنى أفضل أن يكون الجندى رجلا قبل كل شىء . هل لاحظت أن أحسن الجند هم الذين يشقون عصا الطاعة ؟

ميتلس لا . ولا أنت . يلزمنا أن ننكل بهم .

بومبى (باسما) تعال ياميتلس وها هى ذى الكأس ملأتها الصهباء .

ميتلس (مغضبا) ليس هذا وقت معاقرة بنت الحان (يمشى فى الحجرة من جهة لجهة) نفرض أننا غلبنا . فى مثل هذه الحال نحتاج لرجل قوى السلطان عظيم الشوكة ، ليدافع عن رومة - إلى رجل يسحق قيصر ويقضى على

حزبه ويذيقه كئوس العذاب ألوانا ، حتى إذا وقف قيصر على أبواب رومة لم يجد إلا نفرا قليلا من أصحابه ، لأنى سأملأ الشوارع والطرق بالدماء ، حتى ينقل ذكره على الأسماع وتكرهه النفوس .

بومبى   رباه لقد تدفقت الدماء أنهارا فى أيام سلا ، وجرت العجلات فوق جثث الموتى .

ميتلس   لقد كان ذلك لعبة صبيانية بالنسبة لما سيكون .

بومبى   هبنا غلبنا وأن رومة أخذت منا ! كلا . كلا . إن ذلك لا يكون . إنى سأنزل عن ايطاليا ولا أحاربه فيها حتى أمنع الغوغاء أتباع قيصر من تخريب رومة وتدميرها .

ميتلس   إذن أين تحاربه ؟ هل تناجزه العداء فى أسبانيا حيث جنوده ؟

بومبى   لا .

ميتلس   ولم لا؟

بومبى   إنك تعرف ما قيل من أن أسبانيا مملكة تموت فيها الجيوش الجرارة جوعا وتغلب الجنود القليلة العدد ؛ وإنى أعلم ذلك حق العلم ، فلقد حاربت هناك ،وهى بعيدة عن رومة ، وقريبة من بلاد الغال . ستحاربه فى مقدونيا وسنذهب مع الأسطول ، وينضم إلينا هناك خمس فرق ممن كانوا تحت قيادة كراسيس ، ونعدّ له هناك جيشا عرمرما .

ميتلس   ولكنا نخاف على أنصارنا . وحزبنا ، وأعضاء السناتو منا ، والحكمين .

بومبى   إنهم سيذهبون معنا إلى برنديزى حالا ليلحقوا بالأسطول ومن هناك نركب السفن تشق عباب البحر . (يكتب) إنى أكتب الآن مذكرة أبعث بها إلى روميتيس فى كورفيو لينضم الينا حالا مع جنده ، لأنه إن لم يفعل ذلك فسيحوط به الأعداء من كل مكان : وأظنه يفضل المقام لأنه مستبد برأيه عنيد عناد البغل ، ولكنه إذا زحف جنوبا فسيكون عندنا عشرون ألفا ، وإذا آثر البقاء تركنا فريسة القضاء ـ يجب علينا أن نغادر إيطاليا .

ميتلس هذا صحيح ، فكيف تكون العاقبة ؟
بومبى لا خطر فى ذلك ؛ أما حربنا الآن فى هذا المكان فمآلها الخسران .
ميتلس سيفر أصدقاؤنا من حولنا .
بومبى ولكن سيكون لنا فى الوقت متسع .
ميتلس أرنا « الخريطة » (يأخذ خريطة) هذا حسن ، إنها حركة طيبة مباركة ، مآلها النصر إن شاء الله تعالى.
بومبى إن قيصر سيغير أولا على جيشى الذى فى أسبانيا .
ميتلس أذلك لأنه يخاف أن يحتل جندك بلاد الغال وهى عزيزة لديه ؟
بومبى إنا لا نترك الخيرة لقيصر ، فليس لديه سفن حربية يتبعنا بها . أما أنا فهذا هو الأسطول وبينما هو يبنى المراكب ويجهز عمارة بحرية أجمع أنا الجند ، ولئن حارب قوادى فى أسبانيا إنه ليحتاج إلى سنة كاملة حتى يتسنى له أن يتعقبنا ، وفى أثناء تلك المدة ستكون جيوشنا عظيمة العدد مدربة على القتال ، جميلة الصبر فى المعامع .
ميتلس إنا إذا بعثنا البُرُد على جناح السرعة وانتشرت فى مقدونيا فإن الشجعان وحملة السيوف سيغدون علينا من كل ناحية ـ من الجبال والوهاد واليفاع والأدوية . ولاشك أن مصر ستكون خير عضد لنا عند الحاجة .
بومبى نعم إن مصر مملوءة بالرجال الذين سبقت لهم خدمة فى الجيش تحت قيادتى ، وسيمد الينا الملك بطليموس يد المساعدة ويؤيدنا بكل ما لديه من قوة .
ميتلس أن فكرة الحرب فى مقدونيا جليلة ، لأن قيصر سيخاف من أن يتبعنا . اقسم العالم بينكما فله الغرب ولك الشرق وسيتم لك فى المشرق ما تم للأسكندر وذلك بفضل الله يسير
بومبى لاتخدعنك الأحلام ، ولا تغرنك الأمانى الكاذبة . هيا بنا إلى مقدونيا.
ميتلس سمعا وطاعة .
كورنيليا متى ؟

بومبى الآن ياعزيزتى ، إذ ليس هناك متسع من الوقت ، فتأهبى واتركى كل غال لديك .

كورنيليا لقد كنت أفكر فى راحتك الليلة - إن الحياة عندى صورة أجاد صانعها رسمها ، أو كتاب تعددت صفحاته ، وستبقى فى خيالنا ذكرى رومة وتمثالها وجميع ما اشتملت عليه .

ميتلس هيا بنا إذن .

بومبى ناد فيمن حضر ، وخذ الأهبة وسر على بركة الله ، وسأصدر لك الأوامر بعد . (يدق الجرس فيدخل فيلب)

فيلب لبيك يامولاى .

بومبى أرسل إلى توفانيس حتى أكلمه برهة . (يخرج فيلب ويدخل توفانيس فيطأطئ رأسه ويحييه بومبى) اجلس (يأخذ ورقا) إنا ذاهبون إلى مقدونيا وسنركب البحر عند برنديزى . اكتب هذه الأوامر ووزعها على الناس وانشرها بين حزبنا .

توفانيس ليس هناك من حاجة لذلك .

بومبى ماذا تقصد ؟

توفانيس أقصد أن هذه الأوامر لا يحتاج اليها لأن قيصر مع جنده « فى كريمونا » أما خبر زحفه على رومة فأشاعة لا نصيب لها من الصحة .

الجمع ما هذه الأخبار ؟

بومبى كيف وصل اليك علم ذلك ؟

توفانيس لقد حضر الآن مبعوث قيصر ، ومعه رسل يحملون اليك اقتراحات جديدة منه ، ويقولون إنه لا يزحف على رومة .

بومبى وما هذه الاقتراحات الجديدة ؟ هل للمبعوث علم بها ؟

توفانيس إن الخوف قد ملأ قلوب رجاله ، واستولى عليهم الفزع عند ما اقتربت الحرب ، ولست بلائمهم فى ذلك .

كورنيليا فلنعترف ببعض الشرف لقيصر .

ميتلس تبا تبا إن الحوادث لم تدع مجالا للشك فى أنه كان فى مؤامرة ، كتليني ، ما ذا عقدت النية عليه يا بومى .

بومى إن هذا لشيء عجاب ولا بد أن أرى كاتو.

ميتلس لأى شيء ؟

توفانيس إنه هنا (يدخل كاتو فى ثياب سوداء ثم يقف وذراعاه على صدره ينظر اليهم جميعا)

ميتلس ما الخبر

بومى ما وراءك يا كاتو ؟

كورنيليا هل لك فى أن تجلس ؟

كاتو أهذا مجتمع الأسرة ؟ إنى أرى العوائق التى تمنعك على إخلاصك وأمانتك (يخاطب جوليا) أنت ناقدة ولكن لا عقل لك ولا علم . تزعمين أنك ذكية الفؤاد فتنقدين الناس وتخطئينهم .

جوليا هل تظهر عقلك وذكاءك بانتقادك إياى !

كاتو طهرى قلبك أيتها المرأة ، واجعلى شعارك الاخلاص فى القول والعمل (يخاطب ميتلس) أما أنت ياسيدى القائد فكيف بلغت هذه المنزلة ؟ ليس لك خبرة بالحرب ولا علم بأمورها ، ولم يجعلك قائد سوى نسبك لبومى وارتدائك لهذه الملابس ، ومع ذلك أراك تشتاق إلى الوغى . وستدفع بوطنك إلى حرب شعواء يوما من الأيام حتى تنال مغانم كثيرة ، ويأتيك الذهب من كل مكان ، ويطير صيتك فى الآفاق ويتملقك العامة (يخاطب توفانيس وهو ينظر إليه من رأسه إلى قدمه) لست أعرفك يا سيدى (يخاطب بومى) أما أنت أيها الداهية الأريب فمن ذا الذى أصاب منافى قوله؟

بومى لقد أصبت ولكنى راعيت حرمة الصداقة ، وحفظت عهود اضيعها قيصر.

كاتو هل لك فى أن تصلح ما أفسدت يداك ؟

بومى أذلك فى أمكانك ؟

كاتو أنا ذاهب إلى سيسليا لأنى عينت محافظا هناك .

كورنيليا فى هذه الأوقات ـ أوقات الهوادة ـ يمكننا أن نداوى هذا الداء .

كاتو ولكن لا بد من دفع ثمن .

بومبى كيف ذلك ؟

كاتو يجب عليك أن تذهب منفرداً ماشيا على القدم إلى قيصر .

بومبى معاذ الله .

كاتو وأن تخبره أنك تركت العظمة والكبرياء جانبا لتخلص رومة من حرب داخلية .

بومبى لست أفعل ذلك فلقد كنت ملكا فى هذه البلاد ، وكاد الناس يعبدوننى من دون الله وأتى إلى الملوك بخضوع وذله . وما قيصر إلا صنيعتى وغرس من غراسى أنلته هذه المكانة بكلمة من قلبى .

كاتو إن قيصر يتأثر من فعلك وكلامك ، فتسيل دموعه وتجرى على خديه ، ألا يكفيك هذا النصر المبين ؟

بومبى أنا لا أذهب اليه . هذا ما لا يكون .

كاتو ألا تريد أن تخلص رومة ؟

بومبى أما بهذه الطريقة فلا ، لأنى أكون محط الاستهزاء . وموضع السخرية .

كورنيليا إنك ستكون مثالا حسنا يحتذيه الناس فى أنحاء العالم على ممر الزمان

بومبى هل ترغبين ذلك أيضا يا عزيزتى ؟ أأذهب فى ذلة وخضوع لرجل أحسنت اليه ، وأغدقت عليه من نعمى ؟ إن ذلك لشديد الوقع على النفوس الأبية ، والموت لدىّ أهون منه ، ومع هذا لئن كان حسنا ما تقولون لأذهبن إلى قيصر رجاء أن أخلص رومة .

كاتو لقد زعمت متواضعا .

بومبى أيها الشيخ . أيها الشيخ . (ضوضاء فى الخارج وصياح . ينادى الحارس « قف مكانك » فيجيبه صوت . « دعنى أدخل » . تهتز الرماح وتسمع لها قعقعة ويفتح الباب)

توفانيس من هذا ؟ دعه يدخل أيها الحارس (يدخل رجل أشعث أغبر عليه هيئة السفر وقد نال منه التعب)

ميتلس هذا رجل من فرسان قيصر .

الرجل من منكم القائد الأكبر (شاهقا)

بومبى أنا ذلك (يصب له بعض الخمر) اشرب هذا واسترح قليلا ولا تعجل .

الرجل لقد نجوت الليلة الماضية ولقد عبر قيصر « روبكن » مع كل جيشه يزحف على رومة و سيكون هناك بعد يومين .

بومبى (يتناول عباءته) انتهى الأمر ولم يبق هناك مجال للمعاهدة الآن .

كورنيليا قامت الحرب على قدم وساق .

بومبى نعم ، دارت رحاها ، وسأجعل مقادها رحى ، وصوتها زئيرى، حتى يزداد لهيبها ، ويستعر لظاها وسنستمر إلى النهاية . (يستعد للذهاب)

ميتلس هيا بنا إلى برنديزى (يمشى نحو الباب ثم يقف أمام كاتو ويطيل النظر إليه ويرقبه بومبى وزوجه) ماذا تفعل الآن أيها الرجل المجند . أتركع لقيصر ، وتسجد له الآن ، وتحرض الناس على طاعته وهو خائن أثيم ؟ افعل ما تشاء أنت وجماعتك ولكن رومة ستملأ قلوبنا الطاهرة بالأفكار السامية .

كاتو يا ميتلس انك تعنى برومة ، المدينة التى شادها الصناع من آجر وغيره ، أما رومة التى أريد فتلك التى تملأ قلبى نوراً ـ رومة مقر الآلهة ، منبع المدنية ، ومهد العظماء ، وسيدة العالم ، فدعنى أحافظ على كرامتها ، وأذد عن حياضها ، وأمت فى سبيلها .

ارفعوا الأعلام . سددوا السهام . أعدوا السلاح . إلى الأمام . إلى الأمام

(تنفخ الأبواق وتنزل الستارة)

ابنـــة اللورد أولـــين

للشاعر الانجليزى كامبل

بقلم طه عبد الفتاح

المدرس الأول للغة العربية بمدرسة بنها الثانوية

شريف من الأسَر الثاويه(١) أقاليم (إيقوسيا) العـاليه
دعا زَورَقِيّا وقال : احتملنا وشيكا على هــذه الجاريه
ولا تتريث سأعطيك رطلا(٢) يروقك من فضة زاهيه

* * *

ومن أنتما وعلام العبور على لجة عاصف داجيه ؟

* * *

فقال : أنا لجزيرة (ألفا) زعيمٌ تَطوع له عانيــه
وهذى ابنة اللورد أُولين من أولى الجاه والرتبة الساميه
فأسرع بنا إن من خلفنـا رجالا لإدراكنا باغيه
فرَرْنَا معا مُذْ ليال ثلاث نجد الرحيل عن الناحيه
وفى ذلك الوهد إن يَلْقنـا أبوها وإخْتَتَهُ واريه
رأيتَ دمائى بهـذا المكان تلطخ أعشـابه الناميه
تحث المذاكىَ فرسانه فتُرْقِلُ مُوجِفَةً خاديه (٣)
يقصون بالدأب آثارنا فإن ظفروا حلت الداهيه
فمن ذا يَسُرُّ فؤاد عروس إلىّ محبّبةٍ باهيـه

---

(١) الفعل (ثوى) يتعدى بنفسه و بالباء .

(٢) فى الأصل «Silver pound»، وقد آثرنا ترجمتها برطل من فضة بدلا من جنيه من فضة

(٣) خدى يخدى بمعنى أسرع .

إذا ما المحب لها قد غدا ذبيحا بأيديهم القاسيه

* * *

هنا لك قال له الزَّورَقىّ وكان أخا عزمة ماضيه
سأمضى لما قد أمرتم به بنفس تطيب له راضيه
وما ذاك من رغبة فى سنا تَألُّق فضتك الزاهيه
ولكن لأجل العروس التى تروع ببهجتها السابيه
وإن التوانىَ لا ينبغى وما هو بالخطة الواقيه
اذا الطائر الفاتن الحسن قد تعرض للنكبة الجائيه
وبالرغم من أن تلك المياه تعج بها ثورة راغيه
سأجذف بالفلك أجريكما بأثباج لجتها الطاميه

* * *

وقد ظلت الريح اذذاك تقوى وتنمو عواصفها العاتيه
وزمجر فى البحر عفريته وردد أصواته الداويه
ولما اكفَهَرَّ مُحيَّا السماء ولاحت به غضبة غاشيه
ترامت وهم يرجعون الحديث بأوجههم ظلمة غاسيه (١)
وما زالت الريح تزداد عصفا وتزأر كالأُسُدِ الضاريه
وبينا يجن الدجى ناشرا على الكون حلكته الكاسيه
إذا بالكماة تحث الجياد على الوهد قد أقبلت عاديه
وتزجى السنابكُ من دونها إلى السمع دبدبة دانيه
فصاحت على إثر ذاك العروسُ عجالِ عجالِ إلى الجاريه
ولو أننا قد أحاطت بنا عواصفُ من كل ما ناحيه
فإن ملاقاة غيظ السماء لأهون فى مثل أحواليه
وليس بوسعى ملاقاة غيظ طواه أبى فى الفؤاد لِيَه

* * *

(١) غاسية بالسين المهملة : حالكة.

جرى بهم الفلك مستدبرا على البر عاصفة آتيه
وشق الخُضَا خِضَ مستقبلا على اليَمّ عاصفة طاغيه
ويا هولها قد أحاطت بهم مؤلّبَة شملها ساطيه
يهون ابن آدم تلقاءها وإن أُعطىَ البأس والعافيه
فظلوا على الجذف بين المياه تجلجل صاخبة نازيه
عليهم لها غلب عاجل كأنهم الفرصة الباديه

* * *

إلى شاطىء الشؤم إذ ذاك وافى أبوها وعصبته القافيه
فبُدّل من سخطه لوعة تفتّتُ فى كبدٍ داميه
و بين الظلام وعصف الرياح رأى البنت فى حالة شاجيه
تمد إليه باحدى يديها ليحميها الموتة الآتيه
على حين حول الحبيب المعنّى بها عطفت يدها الثانيه
و بين العواصف (أولين) أزجى إلى ابنته صيحة آسيه
وقال : هَلُمّى هلمى إلينا ألا يا ابنتى يا ابنتى الغاليه
سأمنح صفحىَ هذا الشريف وأغفر زلته الهافيه

* * *

وما كان ذلك يجدى فتيلا وينجى من الخطر الفانيه
فان المياه على الشط أنحت تَسُوط بأمواجها العاتيه
فما من سبيل إلى عودة إلى البر أو نجدة واقيه
وصالت عليها المياه الضوارى فغاصت وكانت هى القاضيه
وغُودر ما بين قلب لهيف وعين مقرحة باكيه

فى الأدب الانجليزى

بين الشبان والشيوخ

خطبة وِلْيَمْ بِتْ[1] (١٧٠٨ — ١٧٧٨)

ردا على تعييره بصغر سنه

ترجمة وتعليق

بقلم محمد مهدى علام

المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفنى بها

تمهيد :

ليس اسم وليم بت الكبير ـ صاحب الخطبة التى نحن بسبيل ترجمتها ـ ولا اسم ابنه وليم بت الصغير ، بمجهول لقراء التاريخ الإنجليزى . فقد كان كل منهما سياسيا خطيرا شغل وشغلته السياسة الإنجليزية فى القرن الثامن عشر .

ولعل أهم ما يعنينا أن نعرفه عن بت الكبير فى مقامنا هذا أنه كان أديبا ، واسع الاطلاع على الأدبين العريقين : الأدب الاغريقى والأدب اللاتينى . وقد عين فى الجيش وهو فى سن العشرين ، ولكن خدمته فيه لم تطل ؛ فقد حدث فى سنة ١٧٣٤ أن أخاه الأكبر تُوَمَسْ بت انتخب عن دائرتين نيابيتين ، فاختار إحداهما ، واختارت الثانية أخاه وليم لينوب عنها فى « البرلمان » الإنجليزى . وما جلس فى كرسى النيابة حتى اتصل بشعبة « المتبرمين » ، وهى شعبة ضمت عدداً من الأعضاء المعارضين أطلقوا على أنفسهم اسم « الوطنية » . وقد غذى حماسة هذه الشعبة ، وأذكى نار البغضاء فى قلوبها حبُّ « وَلْبُولْ » « Walpole » الاستئثار بالسلطة المطلقة ولم يمض على بت زمن طويل حتى كان من قادتها

(١) William Pitt, 1st Earl of Chatham.

المفكرين ، وألسنتها الناطقة . فلقد كان موهوبا كل الصفات التى تكمل الخطيب كان أخاذا إذا اعتلى منبر الخطابة ، بهى الطلعة يميل بموقفه أحيانا ميلا مسرحيا وكان لعينيه بريق مغناطيسى يجتذب إليه سامعيه ، وكان له صوت مطواع يتصرف فى نبراته كيف يشاء . أما أسلوبه فكان أحيانا متحذلقا ، ولكنه كان دائما عاليا قويا جباراً ، كما كان آخذا بمجامع القلوب ، يفيض اقتناعا ، فيفيض إقناعا . ولقد كان فى مناضلاته السياسية أحد المعاول ـ بل أقوى المعاول ـ التى هدمت مجد « وَلْبُول »

أما خطبته التى نترجمها هنا فقد رد بها على « ولبول » عندما ضاق هذا الوزير به ذرعا فعيره بصغر سنه ، وبأنه يلقى خطبا مسرحية . وهى تهمة كثيرا ما يلجأ اليها الضعفاء عند ما يخذلهم المنطق . كأنما يريدون ألا ينطق بالحق إلا من قوست ظهورهم السنون . وما أنا ممن ينكرون على السن تجربتها ، أو يجحدون الشيخوخة حكمتها ـ وأنا أكاد أقف على أسكُفَّتِهَا ـ ولكننى أقول كما قال ابن سينا إن من الناس من يجتاز حياته عرضا بدل أن يجتازها طولا . فهو يقطع من العمر نفس المساحة التى يقطعها أخوه ـ أستغفر الله ، أبوه أو جده ـ أو كما يقول رُسُو : « ليست الحياة أن تتنفس ، وإنما الحياة أن تعمل ، إنما الحياة أن نستخدم أعضاءنا وحواسنا ، وملكاتنا ، وكل ما منحنا لإشعارنا بالوجود . إن أطول الرجال عمراً ليس الرجل الذى مضى عليه أكثر عدد من السنين ، ولكنه الرجل الذى شعر بالحياة شعوراً دقيقا . » على أن من الخير أو من المجاملة ألا نطيل القول فى هذه النقطة . فلنعد إلى موضوعنا .

وليست هذه الخطبة أقوى خطب « بت » ولكنها مع ذلك أشهر خطبه وأدلها على قوة عارضته ، لأنه ارتجلها ارتجالا عند ما واجه ولبول بتلك التهمة « الصغيرة » ـ لا ينقص من ذلك ما يقوله أحد النقاد من أن صَمْوِلْ جُنْسُن ربما أعمل فيها قلمه عند ما نقلها إلى صحيفته « Gentleman's Magazine » فان كل ما يستند اليه هذا الناقد هو أن جنسن كثيراً ما اعترف بأنه كان يعدل ويغير ، إن لم يخترع ، الخطب التى كان ينقلها عن النواب والأعيان . ونحن إذا صدقنا

جنسن فى دعواه لم نجد برهانا أقوى من الشك على أن خطبة بت كانت من الخطب التى يزعم جنسن أن قلمه قد نقحها . ويضعف هذا الشك ما عرف عن بت فى خطبه الأخرى التى تدل على منزلته الخطابية . على أننا لا نميل كثيراً إلى تصديق جنسن ، وهو الرجل المتكبر الفخور الذى يكاد لا يعترف لأحد بفضل(١)

° ° °

الخطبة :

قال وليم بت موجها خطابه إلى رئيس المجلس ، وفق التقاليد البرلمانية الانجليزية

« سيدى ، إن هذه الجريمة النكراء التى تفضل السيد المحترم فى أدب جم فاتهمنى بها - جريمة أننى ما زلت شابا ، لن أحاول إنكارها أو الاعتذار منها ، ولكننى سأقنع بالأمل فى أن أكون أحد أولئك الذين تذهب حماقاتهم مع شبابهم ، بدل أن أكون أحد هذه الشرذمة التى يلازمها الجهل على الرغم من التجارب . أما أن يكون الشباب ذنبا يبكت عليه الرجال فأمر أرانى غير مختص بالفصل فيه ، غير أن من المحقق أن الشيخوخة قد تكون محتقرة حقا إذا هى أضاعت الفرص التى تصحبها من غير أن تغتنمها فى إصلاح صاحبها . فتسيطر عليه الرذائل فى الوقت الذى تخمد فيه جذوة العواطف .

« إن ذلك التعس الذى يظل يرتكب الأخطاء بعد أن يرى عواقب ألف خطأ من أخطائه ، والذى لم تزد شيخوخته على أن أضافت إلى حماقته عناداً ، لجدير به أن يبوء بمقت الناس أو باحتقارهم ؛ وليس له أن يطمع فى أن يحميه بياض شعره من الإهانة .

« وأجدر منه بالمقت ذلك الرجل الذى تتقدم به سنه فتتقهقر فضائله ، وتزداد آثامه بنقصان مغرياته ؛ ذلك الرجل الذى يتجر بشرفه فى سبيل مال لا يستطيع أن يستمتع به ، ويقضى البقية الباقية من عمره فى تدمير أمته .

---

(١) راجع مقالنا عن جنسن ص ١٠٦ - ١١٠ فى العدد الأول ، من السنة الأولى من « صحيفة دار العلوم »

«ولكن الشباب — يا مولاى — ليس جريمتى الوَحِيدَة ؛ فإننى قد اتهمت كذلك بأننى ألعب دورا مسرحيا . وهى تهمة ترمى إلى أحد غرضين : فإما أن لى فى أثناء خطابتى لازمات من التلويح والإشارات ، وإما أننى أنافق ، فأخفى ريا ما تكنه نفسى ، وأنتحل من الآراء والعبارات ما ليس لى . فأما المعنى الأول — يا سيدى — فهو أقل من أن يفند ، ولا يستأهل أكثر من أن يذكر فينكر ؛ فإن لى من الحرية ما لكل إنسان ، فى أن أنطق بلغتى الخاصة ، وأن أعبر بأسلوبى الشخصى ؛ وربما كان من لازماتى أنى طموح ، ولكن ليهنأ السيد ، فإننى لن أكبل نفسى بأى قيد من القيود ، ولن أتهالك على اقتباس أسلوبه ، ولا احتذاء موقفه ، مهما تكن السنون قد أنضجتهما ، والتجارب قد كملتهما .

«وأما إذا حدثت امرأً نفسه بأن يتهمنى بأننى أنطق بغير وحى ضميرى فليعلم أنه مفتر أثيم ، ولن يحميه حصن مما سأنزله به من الجزاء . فإننى لن أتأثم حينئذ فى اقتحام تلك الحصون التى يتحصن بها ذوو الثروة والجاه . ولن يهون من حنقى إلا الشيخوخة ، الشيخوخة التى تثمر دائما ثمرة واحدة : هى أن يكون صاحبها سفيها صلفا ، من غير أن يناله عقاب سفاهته وصلفه .

«إن هؤلاء الذين قد أغضبتُهم — يا سيدى — كان فى قدرتى أن أنجو من لومهم لو أننى لعبت دورا مسرحيا استعرت فيه رأيا غير رأيى ، ونطقت فيه بغير لسانى ؛ إن الحرارة التى آذتهم هى حرارة العقيدة ، وحمية التفانى فى خدمة بلادى ، مما لن ينجح فى تحويلى عنه خوف أو رجاء . ألا إننى لن أجلس غير مكترث وأنا أستمع إلى من يعتدى على حريتى ، ولن أشهد معقود اللسان ، السرقات العامة . وسأغامر ماشاءت المغامرة فى صد الظالم ؛ وسأقتاد اللص إلى ساحة العدالة ، مهما يكن ظهيره فى نذالته ، ومهما يكن شريكه فى سرقته» .

مهدى علام

كولمب وصحابه فى المحيط

كولمب: هلمّ يا صحابى نخترقِ العبابا
فقوة الشبابِ تذلل الصعابا

صحابه: احبس زِمام النفسِ يامسرف الجنونِ
نُباع بيع وَكْسِ فى هذه الظنون

كولمب: لاتلجئوا للخوف وحققوا الأمنيّة
من لم يمت بالسيف لم تعفِهِ المنيــة

صحابه: ها نحن قد نزلنا لشاطئٍ مجهولِ
ودُورَنا هجرنا ما قيمة العقول ؟

كولمب: عوذتكم بالله من مارد شيطان
ومن أذى المياه وصولة الحيتان

ما أحسن البحارْ فى ثوبها الجميلْ
كنفحة الأزهارْ نسيمها البليلْ

ما أحسن السماءْ فى حُلّة الغيومْ
ما أحسن الفضاءْ ما أحسن النجومْ

أحد الملاحين: قد زدتنا ابتعادا عن ساحة الديارْ
وقد أكلنا الزّادا أنأكل البحارْ

كولمب : لا تيأسوا ياقومى فغصنكم رطيب
وخففوامن لومى فسعدكم قريب

أحد الملاحين : هيا اشربوا دماءه الجاهل الغشوم
وقطعوا أمعاءه فإنه ظلوم

هيّا خذوه هيّا وارموا بهفى البحر
فقد لقينا غيّا بما أتى من سحر

كولمب : ها قد أتى البشير بالجنة الفيحاء
فهذه الطيور ترفّ فى الفضاء

صحابه : نعم لمحنا طيرا وحولهيزهوالشجر
نعم سنلقى خيرا هذاجزاءمن صبر

كولمب يخطب ساعة الوصول : —

الآن قد ظهرتم بمظهرالشجعان
الآن قد غلبتم كواسر العقبان
الآن قد حققتم أمنية الشباب
الآن قد أتيتم بالعجب العجاب
الآن قد سجّلتم صحيفة الفخار
الآن قد منحتم إمارة البحار

محمد عبد المنعم سالم
المدرس بمدرسة سعيد الأول الابتدائية

البواخر المصرية

هـــذى سفائن مصرٍ شقَّتْ عباب البحَارِ
(النيل) فى البحر تجرى مثل النجوم الدرارى
(وكوثر) كهلالٍ فى التم لا فى السرارِ
(وزمزم) تتهـادى فى حشمةٍ ووقارِ
طورا تطوف بنجدٍ تزور أكرم دارِ
وتارة بشـــآمٍ ترعى حقوق الجوارِ
وإن أرادت ترامت فى الغرب تحكى الضوارى
راحت تُدِلُّ بمصرٍ وتزدهى بفخـــارِ
يا دهر سجله واكتبْ بأحرف من نضـــارِ

الصبح

أشرق الصبح وغنَّت بالأهـــازيج الطيور
كل حَىٍّ حين لاحت شمسنا غَشَّاه نُورْ
قام يسعى لجهَادٍ فى ابتهـــاج وسرور
ذلك الفـــلاح يسقى زرعه المــاء النميرْ
والنواعـــير تغنِّى وترى الثـــور يدور
والأزاهير تبـــدت فائحاً منها العبـــير
أنت كالأزهار غصن أيها الطفل الصغـــير
لا تنم فالزهر يصحو إنْ بدا الصبح المنيرْ

محمد عبد المنعم سالم

إعجــام الأعــلام

تأليف

محمود مصطفى

استاذ الأدب العربى بكلية اللغة العربية
بالجامعة الأزهريه

ليس فى قراء الأدب العربى من لا يقابل فى قراءاته كل يوم عددا من اعلام الناس، وأسماء البلاد والأنهار والمواقع وما إليها .

وكثير من القراء يمرون بهذه الأعلام سراعا . إما لأنها لا تعنيهم ـ أو يظنون أنها لاتعنيهم ـ وإما لأنهم يعرفونها معرفة ماقد يجدون فيها قناعتهم ، وإما لأنهم على تشوفهم للوقوف عليها لايجدون معجما سهلا موجزا يعرف بها تعريفا صحيحاً سريعاً . والكتاب الذى بين يدى الآن يخدم الأدب العربى من هذه الناحية خدمة جليلة ، فإن أعلام الأدب العربى كمعالم الطريق ، بها يعرف ، وعليها يمتد ، وحولها ينعطف ويدور .

ولقد خدم العلماء والأدباء القدامى هذا الفرع من التاريخ الأدبى فيما سلف فكانت لهم فيه مؤلفات مشكورة ، كمعجم البلدان لياقوت الحموى ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان . وكتاب الأنساب للسمعانى ، واللباب فى معرفة الأنساب لابن الأثير ، ولب اللباب للسيوطى ، ومعجم ما استعجم لأبى عبيد الله البكرى ، وتهذيب الأسماء واللغات لأبى زكريا محيي الدين بن شرف النووى ، وغيرها

ولكن هذه الكتب لاتصلح للقارىء العصرى مهما تصلح للعالم العصرى ، ومهما كانت صالحة للأزمنة التى كتبت فيها . وكلنا يعرف عبارات الفيروزابادى فى التعريف بأعلام الناس والبلاد ، وما فيه من جهد حميد بذله ، وما فيه من غموض لايهدينا إلى ما نريد فى عصرنا من حيث الدقة والسرعة .

فكتاب الأستاذ محمود مصطفى فى إعجام الأعلام قد أضاف إلى المكتبة

العربية الحديثة صفحات طيبة كانت فى أشد الحاجة إليها ، وهو عمل شبيه بما يقوم به العلماء الأوربيون من وضع معاجم مختصرة لكل شيء ، فى اصطلاحات العلوم المختلفة ، وفى أعلام العلوم والفنون ، وفى الأسماء التاريخية والجغرافية . وكلنا يعرف فضل « لاروس الصغير » وما يقدمه لنا قسمه التاريخى والجغرافى من معلومات مضبوطة سريعة عن الأعلام العالمية .

ويزيد فى قيمة هذا الكتاب أن مؤلفه جد خبير بموضوعه ، فان له من تضلعه فى علوم اللغة والأدب، ومشاركته فى سائر العلوم ، ما يجعله خير مؤلف لمثل هذا المعجم النافع . وهو فى توفره على العلم والدرس شبيه بأستاذنا العلامة الشيخ الاسكندرى ، حتى لقد سميناه عن جدارة « الاسكندرى الصغير » ونحن حين نوجز القول فى إطراء هذا الكتاب ومؤلفه إنما نفعل لأن روابط عدة تربطنا بالأستاذ ، ونخشى إن نحن استرسلنا أن نرمى خطأ بمحاباتنا لزميل فاضل ، يجب ألا تكون زمالته وصداقته حائلا دون إنصافه .

وفى الكتاب أكثر من ألف علم من أعلام الأناسى والمواضع ، وبه خمسة مصورات تاريخية للبلاد التى عرفها الاسلام منذ الفتح إلى اليوم ، وبه كذلك فهارس هجائية للأعلام والمواضع .

وقد أقرت الكتاب اللجنة العلمية لجماعة دار العلوم وطبعته الجماعة ، فهو بذلك أول كتاب تخرجه اللجنة العلمية فى سبيل إحياء الأدب العربى .

مهدى علام

تاريخ الاسلام السياسى

تاليف

الدكتور حسن ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية

اعتزم مؤلف هذا الكتاب أن يخرج تاريخا سياسيا للإسلام فى ستة أجزاء، ظهر منه منذ أسبوع الجزء الأول فى ستين وستمائة صفحة. وقد تناول فى هذا الجزء: تاريخ العرب قبل الإسلام، والبعثة النبوية، والخلفاء الراشدين، والدولة الأموية.

وقد اعتمد المؤلف على عشرات المصادر العربية والفرنجية.

ولم يقصر بحثه على النواحى السياسية للتاريخ بل عرض لكثير من مظاهر الحضارة كالاجتماع والثقافة، ولو لم يفعل لكان التاريخ السياسى جافا مملا. فإن الحالة السياسية لأى شعب من الشعوب ليست إلا مظهرا من نظام عام يشمل فلسفته ومثله العليا وحياته الاجتماعية والدينية الخ.

ويستوقفنا عند كلامه عن «المرأة فى الجاهلية» ص (٣٧) ما كتبه عن «وأد البنات» فقد قال.

«ومن عاداتهم المستقبحة أيضا ما كان من وأدهم البنات أحياء لاعتقادهم أنه ليس بهم من حاجة لتربية نفر غير مفيد؛ على أن هذا الأمر لم يكن شائعا عند العرب، بل كان فى بعض الطبقات المنحطة منهم خشية الفقر، وعلى الأخص فى بنى أسد وتميم، وقد نهى عن ذلك القرآن الكريم: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ).»

فإن الذى نعرفه أن وأد العرب بناتهم كان خشية العار : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ».

ذلك إلى أن هـذه العادة لم تكن مقصورة على الطبقـات المنحطة ، فان بعض أشراف العرب وأد بناته قبل الاسلام .

ونقتبس فيما يلى بعض ما كتبه الأستاذ المؤلف عن هجرة المسلمين إلى الحبشة، بمناسبة المحنة الحبشية الحاضرة (ص ١٠٦) :

لماذا لم يفكر الرسول فى غير الحبشة ؟

ولما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء قال لهم . « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ؛ وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه . »

ولم يفكر الرسول فى هجرة المسلمين إلى إحدى القبائل العربية ، لأنها كانت ترفض دعوته فى مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكا بدينها الوثنى كذلك لم لم يفكر فى الهجرة إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين فى يثرب ونجران وغيرهما ؛ لأن كلا من الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى وتنافسها فى النفوذ الأدبى ببلاد العرب ، فهما والحالة هـذه لا تقبلان منافسا ثالثا خصوصا إذا كان من العرب أنفسهم الذين يحتقرونهم ويقولون عنهم « لا علينا فى الأميين من سبيل » (١) أما اليمن ـ وهى مستعمرة للفرس الذين لم يدينوا بدين سماوى ـ فلم يطمئن الرسول إلى الالتجاء إليها . وقد برهنت الأيام على بعد نظره . فقد كتب كسرى إلى « باذان » عامله على بلاد اليمن : « ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جَلْدَين من عنـدك فليأتيانى به » وكذلك كان شأن الحيرة التى

(١) وقد بدا هذا الشعور منهم واضحا عند ما هاجر الرسول إلى المدينة إذ ائتمروا به مرات وجادلوه غير مخلصين حتى وصل بهم الأمر إلى أن قالوا لقريش « لدينكم أفضل من دينه »

كانت إلى ذلك الحين بعيدة غاية البعد عن مكة ، أما الشام فهى بعيدة كذلك فضلا عما كان يسودها هى والحيرة إذ ذاك من اضطراب ، ثم إن كلا من الشام واليمن والحيرة كانت أسواقا هامة لتجارة قريش ، ولقريش بكل منها صلات وثيقة ومصالح متبادلة وزيارات فى أوقات منتظمة . فاذا علمت قريش بوجودهم فى بلد منها ، فانها تطلب إلى أهل ذلك البلد أن يردوهم إليها ويخرجوهم . كما حاولت ذلك مع النجاشى لولا تسامحه ، وقوة خلقه .

لذلك اتجه الرسول إلى بلاد الحبشة لما كان يعهده عن ملكها من العدل والتسامح .

وفى ذلك يقول الرسول للمسلمين : « فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق . . . . الخ » وقد هاجر عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان ؛ وكلهم من بطون قريش . وكان فيهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ، والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف . . .

وقد أكرمهم النجاشى وأمنهم على حياتهم وأصبحوا فى رغد من العيش .

فلما رأى أهل قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمنوا ، واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ، ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين جلدين إلى النجاشى ليخرجهم من بلاده ، فبعثوا عبدالله ابن أبى ربيعة وعمرو بن العاص(١) ويقال إنه كان معهما معاوية بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة .

سار عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص إلى النجاشى ومعهما الهدايا وطلبا مقابلته ثم قالا له : « أيها الملك ! إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ؛ فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . » فقال بطارقة النجاشى : أيها الملك ! قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٢

وكان النجاشي بعيد النظر ، فطلب هؤلاء المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم ؛ فتقدم جعفر بن أبي طالب ووصف له حالة العرب قبل الاسلام وبعده ، وشرح له أن دعوة الرسول ترمى إلى ترك الأوثان وعباده الله والتخلق بمكارم الأخلاق . فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء فقال جعفر : نعم . قال : فاقرأه على . فقرأ جعفر عليه صدرا من كهيعص (سوره مريم - وفيها حديث ميلاد المسيح) فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته . وبكى أساقفته حتى ابتلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم ، ثم قال النجاشي :

إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما .

ولما خرجا قال عمرو بن العاص : « والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم ، ولأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد » وطلب مقابلة النجاشي فى الغد وقال له : « أيها الملك ! إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم وسلهم عما يقولون فيه » فطلب النجاشي المهاجرين مرة أخرى فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . فقال النجاشي : والله ما عدا عيسى بن مريم . ثم قال : اذهبوا فأنتم شيوم (آمنون) بأرضى من سبكم غرم ، فانصرفوا . وقد رجع بعضهم إلى مكة قبل هجرة الرسول إلى المدينة وأقام بعضهم فى الحبشة إلى السنة السابعة للهجرة .

***

وبعد فان الزمن القصير الذى صرفناه فى تصفح هذا الكتاب لا يسمح لنا بمواصلة الكتابة عنه الآن ، فلنرجىء ذلك إلى وقت أطول ، مهنئين المؤلف على دأبه وكثرة إنتاجه ؟

مهدى علام

الطائر الحائر

الطائر الحائر قصة مصرية دبجتها يراعة حضرة الكاتبة القديرة
جميلة محمد العلايلى

لقد وقعت إلىّ هذه القصة كما يقع الطائر الحائر فالتقطتها عندما وقع نظرى على عنوانها لأكشف عن دخيلة هذا الطائر فى فصولها، ولأتعرف سر هذه الحيرة فى ثناياها، فتصفحتها وروأت فيها وقصدت أن أستشفها لا أن أتسلى بها فكان أن قصرت نفسى عليها غسق ليلة وبعض نهار حتى قرأتها قراءة لا أكون معها متجنيا إذا رأيت أنها تجعل لى سعة فى التنويه بها، والكتابة عنها.

أنا بطبعى عزوف عن الغلو والمبالغة، حريص على استعمال الألفاظ بقدر ما تنقل للقارىء الحقيقة واضحة جلية، خالية من التطرية والغبن، فأنا أشفق على القارىء أن أنقل إليه صورة قد يتحدث عنها من قراءته فيؤخذ عليه غير ما حدث ويروى له غير ما خبر، فيقعد محسوراً، ويرانى ملوماً ولن تقع المجاملة فى طريق. ولن تأخذ على سبيلى. وهلا أستمع لتلك النغمة العذبة نغمة (رويدك سَوْقَك القوارير)

لست فى حاجة إلى هذا، ولا إلى بعض هذا، فلم تردنى حضرة الكاتبة على ذلك ولم تحوجنى إليه، فهذه قصتها، قريبة المنال، دانية القطوف، عذبة المورد، مطردة التنسيق، سهلة الأسلوب، ناصعة البيان، واضحة التعبير، تقرؤها فلا تجد نبوا فى موضع، ولا تجانفا عن مذاهب السلاسة، ولا تجافيا عن مواطن الرقة، فكأن لفظها مناغاة الأطيار، أو مر الصبا على عذبات الأغصان، وليس أدل على قولى من أنى ألقيت منها بعض فصل على تلميذات وتلاميذ أقاربى، فاستهوت أفئدتهم، وامتلكت عليهم أسماعهم، فأصغوا تمام الاصغاء، وأقبلوا نهاية الإقبال فلا سأم ولا ملل، ولا حركة، ولا نأمة، حتى لو كانت الطيور على رءوسهم كما يقولون ما انصرفت فكان السكون شاملا والهدوء تاما، وفجأة انقطعت عن عن القراءة لا تعرف مبلغ تأثيرها وأتبين مدى وقعها، فحملقوا فى، ونظروا إلى

يستوحوننى القراءة فرفضت واعتذرت . وهممت بالانصراف لارتباطى بموعد سابق فأحاطوا بى وأخذوا على طريقى ، ورغب كل واحد منهم فى أن يتمكن من نزعها من يدى ويحظى بالحصول عليها . وكان منى احتراس فلم يفز واحد بغرضه ولم ينل طلبته ، فلجئوا إلى الالحاح وأمعنوا فيه ورأيت أنى لو خصصت بها واحداً منهم غضب الباقون فلجأت إلى الاقتراع ففاز بها أحدهم طبعاً فصاح فرحاً وأخذها طروباً وكانت لناقصة من وحى الطائر الحائر

٭٭٭

لقد راعت الكاتبة فى قصتها الروح المصرية والعادات المألوفة فلم تتبذل فيها ولم تسف فى عباراتها ولم تستعمل لفظاً يمجه الطبع ، وينبو عنه الذوق فقد جنحت بالحب الممثل فى بطلة القصة إلى حب يواتيها عن طريق الفن كالموسيقى أو التصوير أو الشعر أو الأدب ، وصورتها وقد ملك الفن عليها قلبها فلم تطر فى فضاء أحلام العذارى ، وجعلتها تمقت الحب المادى وتندد بالمرأة التى تندفع وراءه تبعاً لهواه وطيش عاطفتها وذلك حيث تقول فى تقديم بطلة القصة (فاذا ما رزقت نعمة القرب منها يوما فقد تدرك أنها محبة محبوبة ، أما أنها محبوبة فهذا مالا شك فيه ، وأما أنها محبة فهذا ما تأمله وتسعى إليه ، ولقد طافت بروحها فى سماء الأحلام ، وهامت بكثير ممن هم وراء سماء الخيال ، ولكن الهيام الذى لا يدرك ، الهيام الذى يواتيها عن طريق فن تألفه كالموسيقى أو التصوير أو الشعر أو الأدب ولعل هذا الحب الفنى يملك عليها أمرها فلم يترك قلبها يحوم فى فضاء أحلام العذارى كما أنه حملها على الاعتقاد بان من الطيش أن تندفع المرأة وراء حب مادى لا يسمو بالنفس أو يمنحها قوه تدفعها إلى النعيم الدائم والخلد المقيم وهى مشغوفة بأن تفكر فى طلاقة ، وتكافح فى حرية حتى تبلغ مثلها الفنى الرفيع غير آبهة ، لنقد جاهل أولوم متجن)

وتعرضت فى قصتها لنقد بعض أحوالنا الاجتماعية واستنكرتها كزواج بعض الشبان بالأجنبيات وكمغازلة بعضهم الفتيات على مرأى من اخواتهم فيفتح

الواحد منهم أمام أخته بابا لم تكن تألفه وإن كانت لاتجهله ، فإنها كانت تخشاه .

وذلك كله بعبارات أخاذة . وأسلوب جذاب فى وقائع استلهمتها من فنها وسلامة فكرتها . هذا ولى بعض مآخذ يسيرة بسهلها أنها شائعة على الألسن دائرة فى الكتابة فقد جاء فى الصفحة الرابعة (ولم أجد مندوحة من تعرف) وهى مندوحة عن - وقد استعملت مرات عدة رضخ بمعنى خضع وهذا غير صحيح وعدت ضحى بنفسه أكثر من مرة وهو فى المعنى الذى تريدين يتعدى بالباء وإن كان فى غيره يتعدى بنفسه .قد ورد فى صفحة ٦٥ (الشتاء هو الحياة والحياة ياحبيبتى هى الحب وكأس الحب فاك والصواب فوك)

وأراك قسوت على الخطيبة حيث قلت فى صفحة ٧٠ (فياالهول ما رأت الخطيبة الكاذبة المجرمة) فقد كنت أتمنى أن تخلو القصة من لفظة الاجرام فأنت تعلمين حرج موقفها . وضيق صدرها ، وأنت بصيرة بمقدار غيرة العذارى فهذا خطيبها يحادث أجنبية ،ويبثها لوعته ، فقريب جدا من العقل أن تخترع وأن تتهم ولقد أدركت البطلة نفسها هذا ورضيت الاتهام فيما بعد لنفسها لتتخلص من الوقف .

وتلك هنات هينات لاتقلل من شأن القصة ولا تضع من قيمتها فهى متسقة الانسجام فى موضعها وفى فصولها مطردة السياق ، منسجمة التراكيب

محمود الطنبجى
المدرس بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية الأميرية

صحيفة دار العلوم

فهرس العدد الثانى من السنة الثانية